

علی الطنطاوی

فی
سبیل
الاصلاح

دار الفکر الاسلامی

Princeton University Library



32101 072240813

al-Tantāwī, 'Alī

علي الطنطاوي

Fī sabīl al-islāh

في سبيل الإصلاح

دار الفكر الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة
يمنع النقل والترجمة والاقتباس للاذاعة
والمرحح الا باذن خطي من المؤلف

الطبعة الأولى
١٩٥٩ - ١٣٧٨

مطبع وزارة المعارف بدمشق
شارع خالد بن الوليد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ونستعينه وتوكل عليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،
اللهم اجعل عملي هذا خالصا لك ،
اللهم اني أسألك أن تتفعبه ، وأن تتيبني عليه ،
وصل اللهم على سيدنا محمد معلم الخير وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسان .

(في غرة رجب سنة ١٣٤٨) نشرت أول كتاب لي وهو (رسائل في سبيل الاصلاح) ، وقد قلت في مقدمته أننا « إن لم نجد في عصرنا من المصلحين ، كالذين كانوا في الصدر الاول ، فلا أقل من أن نتشبه بهم ، ونسلك سبيلهم ، فنصيح بالناس بقدر ما في حناجرنا من قوة ، ندعوهم إلى الاصلاح ، وندلّهم على طريقه ، وإذا جاءت أصواتنا خافتة فضاغت في جلبّة المجتمع فلم تسمع ، فإن حسبنا أن فعلنا ما استطعنا . وهذه الفصول صحيحة ، وإنها لضعيفة ، بل هي أشبه بالهمس ، ولكنها غاية جهدي ، ولم أرد أن أدلّ بها على علم عندي فان كل ما قلته يعرفه القراء ، ولكن أردت أن أذكر بها من نسي ، وأنبه من غفل » . واليوم (في غرة رجب ١٣٧٨) ، أنشر كتابي هذا (في سبيل الاصلاح) ، فلا أجد ما أقدم له به ، الا هذا الكلام الذي قلته قبل ثلاثين سنة كوامل .

★ ★ ★

هذه هي كلمتي أقدمها (بين يدي الكتاب) ، وهذا هو الكتاب أضعه (بين أيدي القراء) .

علي الطنطاوي

أين الأتلام ؟

نشرت في مصر سنة ١٩٤٦

نحن اليوم في معركة مع الاستعمار ، قد اندلعت نارها ، وطار في كل أرض من أرض الإسلام شرارها ، فهل رأيت جيشاً في معركة يدع مدافعه فلا يطلقها ، وينسى دباباته فلا يسيّرهما ، ويلقي ببنادقه فلا يحملها ؟ هذا مانفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخرها في هذا النضال ، وإن من أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغير ، لهذه الأقلام ؛ فما لهذه الأقلام نائمة لا تفتيق ، جامدة لا تتحرك ؟ وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب ، كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعركة المدهمة التي 'جنّ فيها الموت ؟ !

* * *

إنها معركة الاستعمار : استعمار البلاد بالجيوش ، والأسواق بالشركات ، والرؤوس بالمذاهب ، والقلوب بالشهوات ، فجنود العدو تخطر على أرضنا ، وشركاته تتحكم في أسواقنا ، ومذاهبه الخبيثة تملأ رؤوسنا ، وتقليده في إباحتة وشهوته وسفوره وحسوره ، وتكشفه في نسائه وفي أدبه ، يفسد قلوبنا ؛ فأين تلك الأقلام تنبه القوم النيام ، وتطهر الرؤوس والقلوب ، وتحمل نور الحق لتبدد به ظلمة الباطل ؟ !

أين تلك الأقلام تعرّف هذا الشعب بنفسه ، وتتلو عليه أنجاد أمسه ،
وقد كره أنه لم يخلق ليدل ويخنع ، وإنما خلق ليعز ويحكم ، وأن الله ما برأه
من طينة العبيد ، بل سواه من جذم الصيد الأماجيد ، وأنه أثبت من هؤلاء
المستعمرين أصلاً في الأرض ، وأعلى فرعاً في السماء ، وأكرم نفساً ،
وأشرف عنصراً ، وأنقى جوهرأ ، وأنها إذا أفقرت الأيام الغني ، وأذلت
العزير ، فإن الفلك دوار ، والدهر دولاب ، فلا يغتر الفقير بالغني الحادث ، ولا
يأس الغني على اليسار الذاهب ، فإن كل شيء يعود إلى أصله ، وإن كل حال
إلى زوال .

أين الفوهر الذي نطح النجم كبرياء ؟ وأين الدوتشي ؟ فاعتبروا يافهارة
اليوم ... فما أنتم بأمنع من الموت ، وما أنتم بأعصى على القدر ، وإن لهذا
الكون دياناً جباراً ما شاركه أحد كبرياءه إلا قصمه ... وما أنتم حتى
تشاركوا الجبار كبرياءه ؟ !

* * *

وأين تلك الأقلام تفهم الشعب أن المستعمرين ما زهدوا في قرآنه ، وصرفوه
عن دينه ، وشغلوه عن تاريخه ، إلا ليسلبوه أحداً أسلحته ، ويجردوه من أمتن
أدراعه ، حتى إذا قابلوه أعزل عارياً ، هان عليهم اصطیاده ، وسهل استعباده ،
فكان الهم قياده ؛ وأنه آت لنا أن ننتبه لمكرهم بنا ، وأن نفيق من غفلتنا ،
ولانغشي إلى الهوان بأرجلنا ، ونغكن عدونا منا بملسكنا

وأين تلك الأقلام تعلن للناس أن هذه القوانين الاجنبية في محاکمنا ،
أثر من آثار الاستعمار الذي نحاربه ، وأن لنا شرعاً هو أفضل من قانونهم ،
وديناً هو أحسن من نظمهم ، وأنتا نستطيع أن نأخذ القانون المدني والجزائي
من ديننا وفقهنا ، وأن نحكم في محاکمنا بما أنزل ربنا ، وأن من العار علينا أن

نفتقر إلى قوانين عدونا . وما قوانينه ؟ إن كانت من فكره فلنا أفكار ، وإن كانت من تجاربه فلنا تجارب ، وإن كانت من دينه ... وأنسى ، وما في الوجود دين تستمد منه القوانين كلها إلا الإسلام ؟

فهل رأيت غنياً موسراً ، أورثه أبوه صناديق الذهب ، ثم يتكاسل عن القيام إليها ، ومعالجة قفلها ، ثم يذهب فـ (يشهد) ذليلاً للملايم والقروش من أكف أعدائه ليبلغ بها ؟

هذا مثالنا حين نترك ديننا ونأخذ قوانين المستعمرين !

* * *

أين تلك الأقلام تقول للناس : إن الإسلام جاء يكسر الأصنام وأنتم رجعتم تعبدون أصناماً من لحم ودم ، تأكل الحبز والخلوى والذهب وورق النقد (البنكنوت) ، وتأكل كل شيء وتهضمه معدها ، أصناماً تسمونها زعماء الأحزاب تجددون وتتعبون ليستريحوا هم ، وتشقون لينعموا ، وتنخفضون ليرتفعوا ، وتدفعون إليهم ما كسبتموه بأيديكم الحشنة من العمل ، وأنتم تقبلون أيديهم الناعمة من الكسل ، وتنجوهم كل نعمة ، ولا يمنحونكم شيئاً . وإن من بقايا الاستعمار هذه الأحزاب التي لا تتقاتل إلا على أكل لحمكم ، وامتصاص دمكم وحكمكم ...

وهذا الأسلوب الاحتمق الذي يشترط في معلم المدرسة الابتدائية وكاتب المحكمة الجزئية ، شروطاً في نفسه ودرسه ، وامتحاناً وتجربة ، ولا يشترط في الوزير شرطاً ، فكل من أراد الوزارة وسلك سبيلها نالها ، ومن نالها يوماً لصقت به (معاليها) إلى آخر أيامه .

ستقولون : وماذا نعمل وهذه سنة المتمدينين في كل بلاد الله ؟ نعم هذه سنة

المستعمرين ، ولكن في بلادهم هم علماء فلا تلقى وزيراً جاهلاً ، وان فيها شعباً يقطاً وصحافة ساهرة وانتخابات صحيحة وإدراكاً شعبياً ، أما الأحزاب ، ففي بلد واحد من بلادنا (كمصر مثلاً) أكثر مما فيها كلها ، وهل في أميركة إلا حزبان : الجمهوريون والديمقراطيون ؟ وهل في انكلترا إلا ثلاثة : الاحرار والعمال والمحافظون ؟ فكم حزباً في مصر يأبها المصريون ؟

فإذا كرهتم الاجتهاد ، وأبستم إلا أن تكونوا مقلدين ، فقلدوا في المذهب كله ، ودعوا التلفيق !

* * *

وأي هذه الأقلام تقول للناس : إن ثكنات قصر النيل في القاهرة ، ومطار المزة في دمشق ، ومعسكر الجبانية في العراق ، حصون العدو وقلاع المستعمر ما في ذلك خلاف ^(١) ، ولكن للاستعمار قلاعاً أخرى ، إن تكن أخفى فقد تكون أخطر ، وهذه القلاع هي بيوتنا التي انتشر فيها (التحرر) في الشباب والشابات ، و (التجدد) في الصلات بينها ، فقلل الزواج وزهد فيه الشبان ، وكسّد البنات ، ونشر الأمراض ، وشغل بالهزل عن الجسد ، وبالسعي للشهوة عن العمل للوطن . ولقد قلت إنها أخطر ، لان ثكنات قصر النيل قتلت عشرين مصرياً في عشرين سنة ، وهذه تقتل كل سنة مليوناً من أهل مصر ، كان يكون منهم العبقري النابغ ، والقائد البارع ، والاديب الملمهم ، والعامل النافع ، ويكون منهم حماة الحمى ، ودرع الوطن ، خسرناهم

(١) كان ذلك يوم نشر هذا الفصل (سنة ١٩٤٦) وقد خلت كلها اليوم من المستعمر ولله الحمد .

لأنصراف الشباب عن الزواج وزهدهم فيه ، ولولا هذا التحرر ، وهذا التجدد ، ولو عادت بنا الايام كما كنا من خمسين سنة ، إذ لا تلقى شاباً في العشرين إلا متزوجاً ، ولا فتاة في الثامنة عشرة إلا ذات بعل ، لزادت مصر مليون إنسان في كل سنة ، أفرأيتم كيف قتل استعمار البيوت هذا المليون ؟

* * *

أين تلك الأقلام تفضح أكبر خدعة سربت إلينا ، وترد أفضع كذبة جازت علينا ، وهي دعواهم أن من الخير لنا أن نأخذ المدنية الغربية بكل ما فيها ، وأن كل ما جاء من أوربة فهو خير ورشاد ، وكل ما بقي لدينا من الشرق فهو شر وفساد !

وهذا من أقبح ما خلّفه فينا الاستعمار

فأين تلك الأقلام تدل الناس على مزاينا لنحتفظ بها ، وشروء الغرب لننجنّبها ، وتقيم لهم الميزان العادل ، وتحكم فيهم الحكم السديد ، فنرتفع عن أن نكون قردة مقلدين ، ونرجع عقلاء مميزين ، يعرفون ما يأخذون وما يدعون !

* * *

وبعد ، فهذه هي المعركة ، وهام أولاء المسلمون في كل بقاع الأرض يكتبون بدمائهم على جبين الزمان أروع قصائد المجد ، وأبلغ آيات البطولة والبذل . هاهم أولاء يردون بأيديهم وبإيمانهم وبحقهم الجيوش التي لم يستطع ردها هتار مجديده وناره . لا يرونها أكبر من أن تغلب ، ولا يرون نفوسهم أصغر من أن تغلب . هاهي ذي المعجزات تظهر كل يوم على أيدي أتباع

محمد : في ميدان الاسماعيليه ، وفي شوارع الاسكندرية ، وفي بلاد الشام ،
وفي مدن فلسطين ، وفي الهند ، وفي جاوة ، وفي إيران ، فأين تلك الاقلام
تدّون خبرها وتخلد ذكرها ؟

أين الشعراء وأين ملاحمهم فيها ، وهناك شيء ينطق الجهاد بالشعر ؟ أين
القصصيون وأين ماوضعوا فيها من القصص ، وهناك قد جلس الزمان يقص من
أفعال هذا الشعب أعجب الاقاصيص ؟ أين من في نفوسهم قرائح ، أفلا تفيض
اليوم بالبينات هذي القرائح ؟ أين من بين أصابعهم أقلام ، ألا تلتهب اليوم
بالحماسة هذي الاقلام ؟

أين كتاب العربية وشعراؤها وبلغاؤها ؟

يا خجلته غداً من كتاب التاريخ إذا جاءوا يترجمون لاديب فيقولون :
لقد رأى أعظم بطولة بدت من بشر ، وشاهد أجل الاحداث التي رآها الناس ،
ثم لم يكتب فيها حرفاً . لقد شغلته عنها شواغل الايام ، ومباهج الاحلام ،
وملذات الغرام !

* * *

ان هذا العلم دين

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

أنا لم أتشرف بالانتساب الى الازهر ولا الى غيره من المعاهد الشرعية ،
لأنني تعلمت في المدارس الأميرية من دار الحضانة الى كلية الحقوق ، ولكنني
نشأت من صغري بين كتب العربية والدين ، وربيت في مجالس العلم والأدب ،
لأن والدي رحمه الله كان من كبار علماء دمشق ، وكانت دارنا من الدور
العريقة في العلم ، فلم تكن تخلو يوماً من مراجعات أو مناقشات ، ونظر في
الكتب ومقارعات بالحجج ، ومن عامة يستفتون وطلبة يقرؤون وعلماء يبحثون
فلما توفي والدي ^(١) لزممت عالماً أزهرياً متفنناً ، فكنت أنصرف من المدرسة
فأراجع دروسها على عجل ، ثم أنعشت (وكان العشاء في تلك الأيام بعد العصر)
وأصلي المغرب وأمضي اليه في مسجده ، فأقعد مع الطلبة ننتظره حتى يفرغ من
صلاته ، وكنا نحو المؤمنين طالباً ، منا تلميذ المدرسة ومنا التاجر ومنا الموظف
ومنا الشاب ومنا الكهل . وما يبتغي أحد منا بالعلم دنيا ، ما نبتغي الا العلم
وحده لنعرف به الحلال من الحرام ، نرى طلبه علينا فرضاً ، وتحصيله عبادة ،

(١) في شعبان سنة ١٣٤٣ هـ

فكننا نجيد في المطالعة لذة ، وفي الحفظ مسرة ، وفي التعب راحة ، فنطالع
الدرس قبل أن نقرأه ، ونطالع بعد أن نقرأه ، ونحقق مسائله ونحفظ شواهد
ونفتش عن الشروح له والخواشي عليه ...

فاذا قضى الشيخ صلاته أقبل علينا فسلم فرددنا عليه السلام ، لا نقوم له
لأنه أدبنا بأدب الاسلام ، وليس منه هذا القيام ، ولكن تثب لمقدمه قلوبنا ،
وتخشع لمحضره جوارحنا ، وتنفض بحبه وإجلاله كل ذرة فينا ، فيقعده ونحن من
حوله ، فيسمي الله ويمجده ويشرع في درس النحو ، فيقرأ المعيد ويشرح
هو ، ويقيم أحدنا الى لوح أسود كالذي يكون في المدارس ، فيملي عليه الشاهد
ليوضح عليه القاعدة الجديدة ويذكر بالقواعد القديمة ، وكان أحب شيء اليه
أن نستعيده ونستوضحه ونناقشه ، فيعيد ويوضح ويجيب باسم الثغر ، طلق
الحيا ، مشرق الشبية محبوباً مهيباً ، فيملك بخلقه قلوبنا ، وبعلمه عقولنا ، ثم
يختم الدرس بحمد الله كما بدأه بحمد الله ، ويؤذن المؤذن فنقوم الى الصلاة ،
فترى السكينة قد حقت المجلس ، والرحمة قد نزلت عليه ، ونحس بالملائكة
قد حضرت ، ويؤمننا الشيخ فيقرأ قراءة إخال من روعتها كأن القرآن قد
هبط به الوحي آنفاً ، ولقد سمعت قراء أحلى صوتاً ، وأصح نغماً ، فما سمعت
مثلاً أبداً . فاذا قضيت الصلاة قعدنا نذكر الله بقلوب حاضرة ، وألسنة رطبة ،
وجوارح خاشعة ، ثم من شاء قبل يد الشيخ (ولا يكاد يسمح بتقييلها)
وانصرف ، ومن شاء بقي يستمع الى حديث الشيخ ، وكان حديثه أعذب في
آذاننا من همسات الحب ، وأشجى من عبقریات الأغاني ، ثم ينظر الشيخ
فيقول : إن فلاناً لم يحضر وقد بلغني أنه مريض ، فعودوه وساعدوه . فنسرع
اليه نعوذه ونؤنسه ونأتيه بالطيب وبالدواء . وإن فلاناً في ضيق فأعينوه ،
فنسد خلته ونفرج ضيقه . وربما استبقى الواحد منا ، فانفرد به فنصحه ووعظه

أو أنبّه على زيّ (لا يلقى بطالب العلم) اتّخذَه ، أو حلّ (لا يحسن به) حلّه ، أو صاحب (لا يدلّه على الله) صاحبه ، فيبلغ منا تأنيبه مالا يبلغه السيف ، وندع ما كرهه ولا نعود إليه ، ثم ننصرف جميعاً الى بيوتنا : الكبار الى زوجاتهم وأولادهم والصغار الى أمهاتهم وأخواتهم ، نسام من أذان العشاء على فرش التوبة والاستغفار ، ثم نقوم في بواكر الاسحار ، عندما يفيق الديك والمؤذن والنور ، فتتوضأ فنطهر بالماء أجسادنا ، ونصلي فنطهر بالصلاة أرواحنا ، ثم نخضي الى المسجد فنؤدي الغداة مع الجماعة ، ثم نجلس في حلقة الشيخ ، لنقرأ عليه الفقه والحديث والتفسير في الصباح ، كما قرأنا النحو أولاً والبلاغة ثانياً في المساء وكما يقرأ عليه غيرنا غير هذا وذاك النهار كله ، فلا تلقى في حياة الشيخ إلا العلم والدرس ، والمراجعة والبحث ، يتخللها وعظه العامة^(١) ، وتوجيهه الناس ، فهو المرجع في كل شيء : في الانتخابات يسألونه فيأمرهم بأهل الدين والورع من أي حزب كانوا ، وفي الخصومات يرفعونها اليه ، فيزيلها بالصلح ، أو يفصلها بالحق ، وفي الاحداث كلها يبين فيها حكم الله . وكان كل نائب أو وزير يؤم داره خاشعاً متواضعاً كأنه يمشي الى حرم ، فيريه عزة العلم ، وجلال الحق ، ولطف المؤمن ، وتواضع العظيم ، ويعظه ويأمره وينهاه ، ولا يرؤه شيئاً من دنياه . وكان أيام الثورات على الفرنسيين من الدعاة الى الجهاد ، أزهبه الفرنسيون فلم يخف ، ورغبوه فلم يطمع ، وأزعجوه فما لان ، فتركوه لم يجرؤوا عليه ودونه أهل البلد يفقدونه بأنفسهم وأهلهم .

أما الدنيا فلم يكن يسأل عنها أقبلت أو أدبرت ، ولم يكن يفكر فيها

(١) العامة هنا منصوبة على المفعولية المصدر (وغطه) ومثلها الناس .

ضائق أو اتسعت ، فإن حضره الطعام حلالاً أكل ، وإن دعاه محب أو فقير أجاب ، وإن أهدي إليه قبل ، فإن كانت الدعوة أو الهدية من فاسق أو متكبر أبي . يلبس ما وجد فرمما كانت عليه الجبة من الجوخ الثمين فمر به فقير مقرر فدفعها إليه ، ولبس عباءة مرفعة ، أو خرج بالإزار وحده . تدخل الدنيا داره فيكون كأنعم الناس ، ويدخل المال كيسه فيكون كأغنى الناس ، ثم يضيق ويفتقر ، فيتنكر ويقصد القرى فيشتغل فيها بالطين واللبن ، ويعود بما كسبه من كدّ يده ، لا يطغى في الأولى ولا يقنط في الثانية ، ولا يذيق قلبه حلاوة الدنيا ، فيلين لأبنائها حرصاً عليها ، وخوفاً من زوالها .

وكنا نخرج معه كل ثلاثاء (وهو يوم الراحة عند العلماء) إلى القرى والأرباض ، فإذا جاوزنا رحبة دمشق ، قال : قد وضعنا المشيخة هنا ، ونحن من الآن إخوان . فتمارحه ويمارحنا ونعني أمامه ونثب ونلعب ، ونسبح ونركب الحيل ونصطاد ، وكان يرغبنا في السباحة والغروسية والرمي ، وسائر أنواع الرياضة ، لأن ذلك من سنة الاسلام ، ويود أن يكون معنا فيه ولكن السن تمنعه والضعف والكبر ، ثم نعود من الغد إلى الدرس ، ونحن أصفى الناس ذهنًا ، وأطيبهم نفسًا ، وأشدّهم نشاطًا .

* * *

ولازمت من بعده مشايخ كثيرين كانت حالهم كحال الشيخ أو قريباً منها ، وكانت حياتهم علماء وعملًا ، ومنطقاً وخلقاً ، وكانوا كلهم يتحدثوننا عن الازهر وما فيه ، حتى حبّب إلينا الازهر القديم من أحاديثهم ، وتحيلناه جنة الروح ، ونعيم القلب ، وتوهّمنا أن ما رأيناه من أحوال مشايخنا وردة من تلك الجنة ، وطرف من ذلك النعيم ، وبتنا نتشوق إلى الازهر ، ونتمنى أن نزور

مصر لنراه ، فلما قدمت مصر سنة ١٩٢٨ رأيت الأزهر قد تغير عما وصفوه لنا ،
 وحال عن حاله التي حدثونا عنها ، فتركته ودخلت دار العلوم العليا (١) . ثم لما
 عدت سنة ١٩٤٥ ، لم أجد الأزهر وإنما وجدت مسجداً خالياً ، وكليات تنقشب
 اليه ليست الا مدارس كما عرفنا من المدارس ، فبكيت لما فقدته ، وحننت اليه ،
 لا الى سراج الزيت ، وحصير الرواق ، بل الى ذاك التقى وتلك الاخلاق . بكيت
 فيه شيخي ، وبكيت فيه عهد الشيخ الذي مضى عليه اليوم أكثر من ربع
 قرن ، ولا تزال ذكره غذاء لروحي ، وفرحة لقلبي ، وأنسة لي في وحشة
 الحياة ، أفكر فيه كما يفكر العاشق المهجور في ليالي الوصال ، والسجين في أيام
 الحرية ، والمفلس في زمان الغنى ، بل إنه لأحب اليّ من عهود الحب ، وليالي
 الوصال ، لأن فيه حلاوة الإيمان وما فيها الالذة الهوى ، ولأن ذكره ذخري
 الذي لا يفنى ، ومفرغي كلما دهمني خطوب هذه الحياة المادية التي تحتق في-
 الروح ، ومعين اليقين لي في بوادي الشكوك .

* * *

رحمة الله على أولئك المشايخ الذين كانوا ينابيع العلم ، ومنارات الهدى ،
 وأئمة الخير . وما كل المشايخ الاولين كانت لهم هذه الخلال ، وما كل علماء
 اليوم تجردوا عنها ، ولكن الاعمال بالنيات ، والامور بالمقاصد ، وأولئك
 كانوا يقصدون العلم والدين ، فكان الاصل أن يكونوا أهل علم ودين إلا من
 شذ منهم ، والكمال لله وحده ، وهؤلاء الطلاب يقصدون الشهادة والمنصب
 فكان الاصل أن يكونوا أصحاب منصب وشهادة إلا من شذ منهم والخير
 لا ينقطع في هذه الأمة الى يوم القيامة .

وما أنا بالحامي عن عهد بذاته ، ولا عن أشخاص بأعيانهم ، لكننا أذافع

(١) ولم اكمل الدراسة فيها وكنت أول طالب من سورية دخل مدارس مصر العالية .

عن تقوى العالم وأمانة العلم، والعلم اذا لم يكن معه أمانة كان الجبل خيراً منه، كالطبيب الفاجر، يغش المريض ويماطل في العلاج، ابتغاء دوام الحاجة اليه، وتدفع المال عليه، بل ربما بالغ في الفجور فلم يمنعه علمه (إن لم يكن أميناً) أن يقتل المريض بالسم، بدلا من شفاؤه بالدواء.

* * *

إن نبينا ﷺ علمنا أن هذا العلم دين، وأمرنا أن ننظر عمن نأخذ ديننا، ونحن لا نستطيع أن نأخذ العلم إلا عن رجل نتق بدينه كما نتق بعلمه، ونطمئن الى إيمانه كما نطمئن الى منطقته، فان لم يكن الا العلم والمنطق، لم ينفعاه عند الله شيئاً.

وأنا لا أقس الا زهر على الجامعات، فالجامعات فيها العلم والفن، وفيها الكفر والإلحاد، لا يمنع منه عندهم أنه كفر مادام يسمى باسم الفلاسفة أو العلم، ذلك لان أسلوب الجامعات أسلوب عقلي لا يبالي بالدين، ولا يتقيد بالوحي؛ وديننا لا يعارض قضايا العقل المسلمة وأحكامه الثابتة، ولا ينافيها، ولكن أين هذه القضايا؟ وهل يكون منها كل حكم يوصل الباحث اليه عقله؟ فقيم إذن تختلف العقول، ويتناظر الفحول؟ أفنبني ديننا على آراء الرجال فكلما جاء واحد منهم ببدعة في الدين قلدها فيها، وأقمناه بيننا وبين ربنا، وجعلنا ما جاء به من شرعنا؟ ومن يكون إمامنا في ديننا اذا لم يبق في الازهر أئمة دين؟

ألا يكون ذلك تحقيقاً للحديث، ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام إذ قال: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من صدور العلماء، ولكن يقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس أئمة جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا؟

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ، والكفر بعد الإيمان !

* * *

ألا إن ديننا يقوم على أدلة معروفة هي الكتاب والسنة الثابتة ، والاجماع الصحيح والقياس الجلي ، لا عمل للعقل فيها ، إلا الاستنباط والاجتهاد ، على (الأصول) المعروفة ، والسبيل المسلوكة ، واتباع البيضاء النقية ، والاقتداء بالسلف الصالح ، فان جاوز هذا الحد ، لم يجوز لمسلم ان يعول في دينه عليه ، او يرجع في الحكم اليه .

ونحن نريد علماء من أمثال هذا الشيخ رحمه الله ، يعلمون ويعملون ، ويتبعون ولا يبتدعون ، ويتقون الله سرّاً وعلناً ، ويحكمون الشرع في خاصة نفوسهم وعامة أمورهم ، لا تذلهم الدنيا ، ولا يفسدهم الفقر ، ولا يطفئهم الغنى ، فان كانوا كذلك كان سواء لديّ ان يخرجهم أساتذة الجامعات ، او عاظ الجوامع ، وليكونوا بعد فلاسفة فالاسلام لا يعادي الفلسفة ما لم تكن كفرآ ، وليكونوا باحثين فالاسلام يحب البحث ، وليكونوا مجتهدين بالاجتهاد في الفروع ما داموا متبعين في أصول الدين . وليجلسوا على البساط او على الطنافس ، وليقرؤوا على السراج او على الكهرباء ، وليسكنوا الاكواخ او القصور ، ولينقطعوا الى العلم او ليكونوا أصحاب المناصب وأعضاء المجالس وأولياء الامر .

* * *

ولكن هل ينتظر ان تخرج هذه الجامعة الازهرية أمثال أولئك العلماء ؟
هذه هي المسألة !

وانا لا أحب ان أجيب عنها ، لاني إن أجبت قلت مرّة ثانية :
« ردّوا علينا الجامع الأزهر ، لا نريد هذه الجامعة الأزهرية ! » .

بطون جائعة وأموال ضائعة

نشرت سنة ١٩٤٦

ولدي في هذا الاسبوع مولود جديد ، فأهدي إلى أمه أكثر من عشرين علبة (شكلاطة) ، من هذه العلب التي جدت في دمشق ، وصارت (موضة) الوقت ، كل علبة منها لعبة كبيرة بأشكال وألوان ، ماعرفناها قبل الآن ، منها ما هو على صورة طيارة بأجنحتها وذنبها ومحركاتها ودواليها ، ومنها ما هو على شكل عربة بخيولها ولجها وسائقها ، كل ذلك مصور مشكّل دقيق الصنعة ؛ ومنها ما هو على هيئة سريوفيه فراش ووسادة من الحرير ، وفي كل منها قبضة من السكر والشكلاطة وهي ملفوفة بالورق الصقيل الشفاف ، معقود عليها شريط من خالص القز ، لا يقل ثمن إحداها عن عشرين ليرة سورية . فلما ذهبنا نفتحها تقطع الشريط وتمزق الورق . ثم تسلمها منا أولاد الدار ، وأبناء الضيوف ، لأنها لعب خلقت لهم لالكبار ، فلم تكن إلا أيام حتى تكسرت في أيديهم ، وكيف لا تتكسر وهي مصنوعة من قطع الخشب الملون ، لا تحتمل صدمة ولا نقرة ، وعادت حطبا انتهى به الطريق إلى المدفأة ، فاحترقت أربعمائة ليرة . كان يمكن أن يشتري بها من (خبز البلدية) عشرون ألف رغيف ^(١) ، ومن

(١) ذلك لان البلدية في دمشق كانت تباع الخبز للفقراء في تلك الأيام كل كيلو

بعشرة قروش ، فالطن منه بمائة ليرة فقط

الثياب النسائية المستعملة (التي توزعها وزارة التموين) أربعائة ثوب ، ويمكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال . هذا وأنا رجل معتزل الناس لا أديم مواصلتهم ، ولا أؤذي حقوقهم ، خارج على مواضعهم ، نأثر على عاداتهم ، لا أصنع إلا ما أجده نافعاً معقولاً ، ولي من جرأة جنائي ، ومضاء لساني عاصم من لومهم وتعنيفهم ، وهذا هو المولود الثالث لا الاول ، فكيف تكون الحال لو كنت من الاثرياء الذين يخالطون الناس ، ويقومون بحقوقهم ؟ وكيف لو كان المولود صبيّاً بكراً ؟

ففكروا كم تنفق من الاموال في أشياء لا يأتي منها خير ، وما في تركها ضرر ، ونحن نشكو الفقر والمرض والجهل ؟

أعرف رجلاً تزوج فأهدي إليه يوم زفافه ، من أصدقائه وصدقائه وأقربائه وقريبائه ، مائة وست عشرة باقة زهر ، ثمن أدناها خمس ليرات ، وقد يبلغ ثمن أعلاها العشرين ، فجار أولاً أين يضعها ، ومن أين يأتي لها بالكؤوس والأواني ، ثم بدا له فجعلها حول سرير العروسين ، فكان لها منظر رائع خلاب ، ثم مرت الايام ففسدت وجفت فاستأجر رجلاً يحملها ليلقيها في إحدى المزابل !

ألف ليرة تلقى على مزبلة ، ونصف الامة يتضور جوعاً !

وأعرف آخر من التجار أبى له سفهه وتبذيره وكفره بنعم الله إلا أن يوزع السكر على نحو خمسمائة مدعو لحضور عقد ولده في علب من الفضة في كل منها صحن من البلور ، لا أدري من أين جاء بها فما في بلدنا منها ، قالوا ، إن ثمن الواحدة منها خمس عشرة ليرة ، فهذه سبعة آلاف وخمسمائة ليرة ، دون باقي المصروفات ، في الفرش والزينة والثياب . وإن من نساء هؤلاء النفر من

التجار الفجار الاشرار^(١) من تشتري المعطف الواحد بألف ليرة ، وإذا لم تصدقوا فاسألوا تجار الفرو !

والتبذير في أتراح هؤلاء الاغنياء لا يقل عنه في أفراحهم ، فلا تخرج جنازة أحدهم حتى يمشي معها رجال المولوية بقلانسهم التي تشبه علب اللبن ، وثيابهم التي تحكي إذا داروا المخاريط الناقصة التي وصفوها لنا في درس الهندسة أيام المدرسة^(٢) ، ولا يمشون حتى يقبض شيخهم الرسم المقرر ، خمسمائة ليرة . وأمام الجنازة الآس والحناء ، وبعدها حفلة (التنزيلة) ، ثم (الصباحية) و (العصرية) وللنساء فيها كسوة خاصة تشتري من أجْلِها ، فلا يصل الميت إلى القبر حتى ينفق عليه إن كان من الموسرين خمسة آلاف ليرة ، ما أنفق قرش واحد منها في طاعة الله !

وإن حول كل دار من هذه الدور التي تهدر فيها الاموال لمساكن فيها ناس مثلاً ، من بني آدم ، من إخواننا في الدين وفي الوطن وفي اللسان ، يشتهون عشر معشارها ، أو أقل منه ، ليشتروا به طعاماً يملأ بطون أولادهم ، وثياباً تستر أجسادهم ، وإن هؤلاء الناس (لو عرف الاغنياء !) عيوناً تنظر كعيوننا ، وقلوباً تتألم كقلوبنا ، ولهم بنون وبنات هم قطع أكبادهم ، وهم (على هلهلة ثيابهم ووساخة أبدانهم) أحبّة إليهم أعزة عليهم كعزة أولادنا علينا ، وربما كانوا أذكى من أولادنا نفوساً وأطهر ، وأذكى عقولاً وأمهر ، وكانوا أرضى لله وأنفع للوطن منا ، ولكن الفقر عطل قرائحهم ، وكف أيديهم ، وكبل أرجلهم . إن هؤلاء وإن لم يكن في أعراسهم طاقات الزهر ،

(١) وهم بحمد الله قلة ، وجهرة التجار في الشام من المزكين المحسنين

(٢) انقضت الطريقة المولوية الآن من دمشق ، وقد كانت بدعة من شر البدع

ولم يكن في جنائزهم مولوبة ولا آس ، ولم يعرفوا طريق المدارس والملاهي ، ولم يزهوا بغالي الثياب ، ولم يتمددوا على أرائك السيارات ، ولم يعرفوا المشيخة التي يأكلون بها الدنيا بالدين ، ولا الزعامة التي يجمعون بها المال بالوطنية ، إنهم هم عماد هذا الوطن ، وهم جهرة أهله ، هم يزرعون القمح ويقدمونه إلينا ثم يعيشون على الذرة والشعير ، وهم يبنون لنا القصور ثم يقيمون في الاكواخ مع البقر والخمير ، وهم يصنعون بأيديهم (الشكلاطة) التي لا يذوقونها ، ويحكيون الثياب التي لا يلبسونها ، وهم يسهرون في الطرقات ليحرسونا ونحن نيام ، وهم يمشون الى الميادين ليدافعوا عن أوطاننا ونحن آمنون ، وهم قد دفعوا ثمن الاستقلال مهجهم وأرواحهم ، ثم لم يأخذوا من خيراته شيئاً .

ان هؤلاء هم ركن الوطن وعماده ، وهم أهله وقطانه ، فحرام علينا أن ننسأهم ونهملمهم ! حرام ان تبقى هذه الأموال ضائعة ، وهذه البطون جائعة ! حرام في دين الله ، وفي شرعة الانسانية ، وفي قانون الشرف ! فأين المصلحون ؟ اين المصلحون ؟ أين رجال الجمعيات ؟ أين أرباب الأقاليم ؟

لقد كنت أصفح (أعداداً) عتيقة من مجلة الهلال ، فوجدت في (عدد) منها أن في بلاد السويد جمعية اسمها (جمعية أمماء الأزهار) عملها جمع الاموال التي يشتري بها أهل الميت وأصدقائه طاقات الزهور التي تحمل مع الجنازة ثم توضع على القبر ، وإنفاقها في بناء مساكن ضحية للعاهل والفقراء ، يسكنون فيها بأجر يسير ، وأنها أنشأت (الى تاريخ ذلك الخبر) نحواً من الف مسكن .

فلماذا لا يكون فينا رجال مثل رجال هذه الجمعية ، يأخذون المال من هنا ، فيضعونه هناك ، فيصالحون به أخلاق الأمة بانقاذها من داء التبذير

والآثرة والمفاخرة بالباطل ، ويدفعون عن أغنيائهم حسد فقرائهم وبغضاءهم ،
ويعودون عليها بالخير لها في أجسادها وعقولها وصناعاتها وحضارتها إذ ينفقون
هذا المال فيما هو أولى به من وجوه الإصلاح ؟

لماذا نأخذ عن الأوروبيين السم وندع الترياق ؟

كم ينفق في الشام ومصر والعراق وسائر بلدان هذا الشرق الإسلامي في
الزفاف وحفلاته ، والمآتم وملحقاته ، والاعياد والمواسم وأيام الولادة
والحضانة ، فيما لا ينفع أحداً البتة ، ولا يعود عليه بعائدة ، ولا تناله منه فائدة ؟
حتام تهدر الأموال ويراق الذهب ، اتباعاً لعادات قبيحة وتقليداً كتقليد
القردة ، وجمهور هذا الشعب يشكو الفقر والمرض والجهل ؟

هل تذهب بشاشة العيد ويمحي رواؤه ، لو اصططح الناس فيه على تقديم
السكر الملبس الوطني بدلاً من الشكولاتة وصرخوا فرق الاثنان في بناء
مدرسة أو مستشفى في كل بلد ؟

هل يبطل أنس العرس ، وتضيع بهجته إذا لم يكن فيه الا طافتان
من الزهر ؟

هل يكتب على العروسين الشقاء الدائم إذا وزعت الحلوى على المدعوين
في قراطيس بدلاً من العلب ؟

هل يحرم الميت التقى من نعيم الجنة ، ويضاعف على الشقي العذاب إذا لم
يمش في جنازته رجال الطريقة المولوية التي لا يقول بها عقل ولا نقل ، ولا
يقرأها شرع ولا طبع ؟

فالى متى نضيع أموالنا نحن اليوم أحوج إليها من كل يوم مضى لاننا في
عهد تجديد وبنيان ، ولاننا في أول طريق الاستقلال ؟

فيا أيها الاغنياء لاتغتروا فان النعم لاتدوم ، وإن مع اليوم غدا ، وإن
بعد الحياة موتاً ، وإن بعد الموت لحساباً عسيراً ، أمام رب الارباب الذي
خلقكم وخلق الفقراء من طينة واحدة ، لم يخلقهم من التراب ويخلقكم من
الامنت المسلح ، ولم يميزكم عنهم الا بال أعاركموه ليكون محنة لكم وليطول
عليه حسابكم .

ويا أيها المصلحون هذا باب من أوسع أبواب الإصلاح فلبجوه بارك الله
فيكم إن فعلتم ، وأيدكم .

ويارب منك أنت التوفيق ، فأعط المخلصين مقدرة ، وأعط القادرين
إخلاصاً ، فانا نشكو اليك شكاة عمر : ضعف التقى وفجور القوي !



مستقبل الأدب

نشرت سنة ١٩٤٧

تزدحم المساجد قبيل الامتحان بجماعات الطلاب ، يتحلقون فيها حلقاً ، يطالعون ويقرؤون ، وقد مرت مرة بحلقة فيها نفر فهمت من كلامهم أنهم من طلبة العربية والأدب ، في المدارس العالية ، فقعدت قريباً منهم أستمع إليهم ، وكان واحد منهم يقرأ في كتاب ، فما رأيته سلمت له خمسة أسطر متتابعات ، وما مرّ على خمسة أسطر إلا رفع فيها منخفضاً ، وخفض مرتفعاً وحرف الكلام عن مواضعها ، وأزالها عن منازلها ، ولم يدع لغويّاً ولا نحويّاً ولا عالماً بالعربية من لدن أبي عمرو الى الاشموني ، الا نبش قبره وبعثر عظمه ، ولعن بجبهه أباه وأمه ، أما الطلاب الحاضرون فكان منهم من يتنبه للسخنة الظاهرة ، فيؤدّه عنها ، ويغفل عن الخفية ، وسائرهم (١) في عى عن ظاهرها وخفيها ، ودقيقها وجليلها ، فضاقت صدري ، حتى خفت أن يتفجر بغضبة للعربية ، لا أدري ما عاقبتها فحملت نعلي وخرجت هارباً أسعى .

وذهبت فسألت المدرسين فعلمت أن هذا القارئ ليس بدعاً في الطلاب وليس المتفرد في هذه (العبقرية) في الجمل ، وهذا (التبريز ...) فيه ، وإنما

(١) سائرهم أي باقيهم .

هو النموذج الصادق لأكثر طلاب المدارس في هذه الايام ، واجتمعت بعد ذلك بكثير من طلاب المدارس العالية ، فما كدت أجد في أكثرهم من يشبه أو يداني أصحابنا يوم كنا في أوائل الدراسة الثانوية ، لا أقول هذا فخراً بأصحابنا ، ولكن تذكراً لهؤلاء ، وحثاً على الجدي في طلب العلم ، وبياناً لما هبطوا اليه ، وما رضوه لأنفسهم من ترك العلم اعتماداً على شهادات ينالونها ، أو كراسي يركبونها ، أو وظائف ^(١) يقبضونها ، حتى صارت الشكوى من الضعف في العربية عامة في مصر والشام والعراق ، وحتى صار من أبواب التسلية للأدباء ، أن يفكروا في (تيسير) تعلم العربية ، بقلب قواعدها وتنكيس أوضاعها ، وابتداع البدع في نحوها وصرفها ، أو بهدم بنيانها ، وصرم نظامها ، بـ (تسكين أو آخر كلماتها) ، و (ترك إعرابها) ، أو بنسفها من أساسها ، وقلعها من جذورها ، باستعمال الحروف اللاتينية أولاً ، والكلمات العامية ثانياً ، وما لا يعرفه إلا الله ثالثاً . وما الى شيء من ذلك حاجة ، ولا له فائدة ، وما باللغة تعسير حتى نبتغي لها أوجه التيسير ، ولكن في العزائم خور ، وفي المهمم ضعف ، وفي الشباب انصراف عن العلم !

هذه هي الحقيقة ، وإلا فهل صلحت اللغة برسما ^(٢) وعلومها هذه القرون الاربعة عشر ، وصبرت على حكم الاتراك أولاً ثم الفرس ، ثم المغول ، ثم المماليك العبيد ، ثم الاتراك أخيراً ، ورأت عصور الانحطاط ، وعهود التخلف وكانت في كل ذلك ظاهرة ظافرة ، حتى لم يخل عصر من مؤلفين في النحو والصرف والبلاغة والأدب ، وحتى وضع القاموس أشهر معاجمنا في عهد العثمانيين ، وألف شرحه الجليل بعد الالف للهجرة ، وحتى كان طلبة العلم في الدهور كلها عاكفين على النحو والصرف والبلاغة ، إن لم ينالوا ثمرتها فقد حفظوا

(١) الوظائف الرواتب .

(٢) أي خطها وكتابتها .

قواعدها ، وإن لم يحصلوا سليقة العرب ، فقد أحاطوا بعلوم الادب . هل
صلحت اللغة في هذه القرون وبدا الآن فسادها ؟ وهل استسهلها الفرس والروم
والأتراك والهنود حتى ظهر منهم علماء أجلاء فيها ، ولم تصعب إلا على أبناء
العرب الاقحاح ، بعد ما طلع فجر النهضة ، وبدا النور ؟ وما لشبابنا وحدهم
دون شباب العرب في كل العصور ، هم الذين عجزوا عن تعلمها والتمكن منها ؟
أهم أقل ذكاء ، وأضعف عقلاً ، منهم جميعاً ومنا لما كنا في مثل أسنانهم قبل
عشرين سنة ؟ لا ، بل هم أذكى منا ، ووسائل التعلم في هذه الايام أكثر ،
وطريقته أسهل ، وربّ بحث كنا نتصيد مسائله من متفرقات الكتب يرى
الآن مجموعاً في كتاب واحد ، ينادي : من يقرأ في ؟ فما لهم يستصعبون
العربية ؟

وهل العربية أصعب عليهم من الكيمياء والجبر والهندسة ، وهذه الألسن
التي يزحم بعضها في رأس الطالب بعضاً من تعددها وما لاكثرها من فائدة
نلمس ، أو عائدة تحس : اللاتينية^(١) التي أخذناها تقليداً بلا علم ، والسريانية
والعبرية والفارسية والتركية ، ثم الفرنسية والانكليزية وما لست أدري
ماذا أيضاً ؟ أهذه العلوم وهذه الألسن كلها سهلة جميلة ، كأنها قصة من قصص
الغرام ، يشربها الطالب مع الماء ، ويأكلها مع الحلوى ، والصعوبة كلها في
العربية ؟

وإذا كانت هذه العلوم وهذه الألسن صعبة كلها فما هو السهل الذي يذهب
الطالب الى المدرسة ليتعلمه ؟ ولماذا نفتتح المدارس ونرهق الامة بنفقاتها ،
ونحمل خريجها على أعناق الناس حملاً ، بما حصلوا من العلم ، وما قالوا من
الشهادة ؟

لا ، ليس في العربية صعوبة ، ولا في كتابتها وعلومها تفسير ، هذه ضلالة

(١) كتبت هذه المقالة في مصر

يجب ان ينتهي حديثها ، وان لانعود الى اضاءة الوقت ، وإفساد النشء ، في الكلام فيها . ويجب ان نجيبها الى الطلاب ، ونزغهم في مطالعة كتبها ، حتى يألّفوها ، ويسهل عليهم فهمها ، واتقد كنا في المدارس الابتدائية نقرأ الكتب العلمية الكبيرة حتى إني قرأت (حياة الحيوان للدميري) - وقد وقع في يدي اتفاقاً - قبل ان آخذ شهادتها ، وقرأت (الاغاني) كله - متخطياً أسناده ، وما لا أفهم منه - في صيف السنة الثانوية الاولى ، وكنا يومئذ نحسن المراجعة في الحضري وفي المغني ، وكان فينا من ينظم ويكتب ، وعندي مقالات كتبها في تلك الايام ، قد لا ترضيني أفسكارها ولكن أسلوبها يرضيني اليوم .

وكنا نختلف الى بعض العلماء ، نسمع دروسهم العامة في المساجد ، ودروسهم الخاصة في البيوت فما أكملنا الدراسة الثانوية حتى قرأنا مع علومها ، النحو على المشايخ والبلاغة والفقه والاصول والحديث ، وحضرنا كتباً في التفسير والكلام والتصوف ، وعرفنا عشرات من أمّات ^(١) كتب العلم ، قرأنا فيها او تصفحناها او رجعنا اليها ، وحفظنا أسماء مئات من أعلام الاسلام من الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدثين والمفسرين والفلاسفة والقواد والادباء والشعراء ، حتى صارت أسناد الحديث والادب مألوفة لنا ، لكثرة من عرفنا من رجالها ، ومن لا نعرفه نرجع الى ترجمته ، وكنا في الثانوي نرجع الى الاصابة وأسد الغابة والاستيعاب ، وتهذيب التهذيب ، وتهذيب الاسماء واللغات وابن خلكان والفوات ومعجم الادباء ، وطبقات السبكي وتاريخ الخطيب ، وابن عساكر ، والديباج المذهب ، وطبقات الحنفية والبغية ، وتاريخ الخلفاء والقفطي وابن أبي أصيبعة ، وكانت هذه الكتب كلها - وأخرى نسيها - في مكتبة أبي وكانت تحت يدي من تلك الايام .

« ١ » قالوا : الأمّات للناس والأمّات للأشياء .

وقد نبغ في صفنا (فصلنا) جماعة من الاعلام ، كسعيد الافغاني ، ومحمد الجيرودي وجمال الفرا ووجيه السمان ، وانور السلاج ومحمود البحرة ، وقد نبغ في الصف الذي أمامنا طائفة أخرى من الاعلام كأُسعد الكوراني وجميل سلطان وزكي المحاسني وعبد الكريم الكرمي .

وما كانت تمر سنة لا ينبغ فيها نابغون في الأدب والعلم ، ومن نبغ في صفنا في كلية الحقوق ، مصطفى الزرقا ويونس السعادي وصديق شنشل وبدر الدين السكاك وباعادل العلواني رحمه الله .

ثم شح الينبوع ، ثم جفَّ أو كاد ، حتى مانجد في السنين الطوال كاتباً ينبغ في الشام ، أو شاعراً يظهر ، أو محققاً يرى ، وما زال الامر الى تخلف ولقد اشتغلت بالتعليم دهرأ في الشام والعراق ولبنان فما فارقت فوجاً من الطلاب إلا استقبلت أضعف منه ، حتى انتهى بي الامر ، أن دعيت (من سنتين) الى تدريس الآداب لطلاب السنة الاخيرة من مدرسة ثانوية ، فدخلت فوجدت رجالاً كباراً ، لهم طول وعرض ، وأناة في الثياب ، ولباقة في الخطاب ، وسمت ووقار ، فبهتهم وأعددت العدة لتعليمهم ، وحشدت كل ما أعطيت من قوة وعلم ، على ضعف قوتي وقلة علمي ، ومضيت على سني حتى جاء موعد سؤالهم ، فاذا هم من أئمة الجاهلين ، واذا هم لا يحسنون قراءة بيت ولا فهمه ولا إعرابه ، ففررت منهم ، حين وجدت أني إن كلمت ثيابهم وهيئاتهم منعتني جهالتهم ، وإن خاطبت جهالتهم منعتني هيئاتهم .

فالْحِكَايَةُ ليست حكاية كتابة تسهل ، ولا قواعد تيسر ، ولا أغراض خبيثة تحقق من وراء هذه السُّرِّ المائعة ، ولا سموم تقدم في هذه الكأس البراقة ، ولكنها مشكلة المعلم أولاً ، والتلميذ ثانياً .

وما دام في معلمي العربية من هم أصحاب شهادات لا أصحاب علم ، خطفوا

مسائله في المدارس خطفًا ، وحفظوها حفظًا ، ومنهم من تعلمها في ديار الغرب ، وجاء منها بدكتورات حرب ^(١) وما دامت دروس العربية تلقى بالعامية ، وما دام مدرس الأدب يتكلم ساعة عن أبي تمام وأدبه وما قيل فيه ، ولكنه لا يفهم بيتين من شعره ، ولا يحسن شرحها ، ويعلم الأدب وهو ليس بأديب ، وما دام يتصدر للإمامة في (فن القول) ^(٢) من لا يدري ما يقول - فمن أين يتلقى الطالب العربية ؟

فهاتوا المعلم القوي في علوم اللغة ، صاحب الاطلاع فيها ، والذوق في فهمها ، يصلح هو فساد المناهج ، ويقوم اعوجاج الكتب ، وييسر عسر اللغة ، (إن كان فيها من عسر !) وهذا المعلم لا يوزن بميزان الشهادات وحدها ، إلا إذا جاء وقت لا تعطى فيه الشهادات إلا لأربابها ، وتكون شهادة حق لا شهادة زور ، ففتشوا أنتم الآن عن ميزان آخر !

أما التلميذ فيجب أن نحب اليه المطالعة ، ونعرفه قيمة العلم ونذيقه لذته ، ولا يكون ذلك ما دامت المجلات والمطابع مفتحة أبوابها ، لكل هذيان وعبت صبيان .

وبيان ذلك أن في نفس كل ناشئ في الأدب حباً للظهور ، وهوى للنشر ، فلا يجد أن جدّ إلا ليلقى اسمه على رأس مقالة في مجلة ، أو على غلاف كتاب ، ولقد كان الواحد من أصحابنا يتمنى أن ينشر ما يكتبه بعد طول الكد ، ومتابعة السهر ، في جريدة محلية ، ثم يرتقي الى المجلة الصغيرة ، ثم يتدرج حتى يصل الى مثل الرسالة أو الثقافة . هكذا كنا ، وهكذا كانت هذه المجلات هيبة في نفوسنا ، فلا نقدم عليها الا بعد الاستعداد ، ولا نقدم لها الا ما نعتقد

(١) دكتور حرب على وزن « غني حرب » .

(٢) (فن القول) اسخف كتاب في البلاغة لاسخف دعي فيها .

أنه جيّد ، فتبدلت الحال ؛ وعلا الشباب (بالغرور) ، وهبطت هذه المجلات ، حتى صرنا نرى الغلام المبتدىء ، يكتب مقالته الاولى فلا يراها أقل من أن تنشر في الرسالة مثلاً ، مع مقالة العقاد والزيات ، ولا يعدم بعد إدمان القرع للأبواب من يفتح له باب مجلة من هذه المجلات .

هذا الشاب الذي يرى أنه وصل الى الغاية بلا تعب ، ونال ما يطلب بلا مشقة ، لا يجد بعد ذلك ما يدفعه الى سهر الليالي ، وتقريح الجفون ، في مسامرة الكتب ، والازدياد من العلم .

فليس الخطب في ضعف الطلاب وعجز المعلمين ولكنه خطب الادب . إنها إن استمرت هذه الحال ، ومات هؤلاء الكتاب البالغاء ، وكل حي الى ممات ولو طال به الاجل ، فإنكم ستلتفتون تفتشون عن كاتب بليغ ، أو شاعر مفلق ، فلا تجدون . فأعدوا من الآن شباباً تدخروهم لذلك اليوم العصيب ، وإلا فعلى اللغة والادب والبيان السلام !

رجل في ملابس النساء

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

قرأت في (اخبار اليوم) أن الشرطة عثرت على (فلان) قتيلاً في داره .
وقالت عن هذا القتل أنه كان يلبس ملابس النساء ، ويفضلها على ملابس
الرجال ، لأن أمه لما ولدته كانت تَرجو أن يكون بنتاً لذلك دعتَه (فلانة)
وألْبسته ملابس البنات ونشأته على ذلك ، وقالت الجريدة أنه كان غنياً واسع
الثروة فأراد يوماً أن يؤلف لجنة في (حزب سياسي) للسيدات يكون هو
رئيسها فأوفدت إليه الشرطة من يهدده بالاعتقال والنفي الى الطور إن هو فعل .

* * *

قرأت هذا فوقفت عنده وفكرت فيه ، فوجدت الجريدة قد ساقَت هذا
الحُبر لتعجّب الناس من أمرين هما : لبس الرجل لباس المرأة ، ودخوله في لجنة
السيدات - وما في واحد منها عجب ، ولا أدري ماذا وجدت فيه الجريدة
حتى عجّبت منه الناس ! وما دمنا لا ننكر على المرأة أن تلبس لباس الرجل
وتستعير سراويلاته (بنطالونه) ، ونجزيّ شعرها تشبهاً به ، وتتخذ مثل قميصه
ورداًه ؛ فلماذا ننكر على الرجل أن يلبس ثيابها مرة واحدة ؟

ولماذا ننكر عليه دخوله مرة واحدة في لجنة السيدات ، ولا ننكر على السيدات دخولهن في جان الرجال ومشاركتهم في أعمالهم ، من سوق السيارة الى تدريس الجامعة ؟ وأيهما أعجب وأغرب ، وأبعد عن سنن الله ومألوف الناس أن يرأس رجل لجنة السيدات في حزب من الاحزاب ، أم أن تقعد آنسة جميلة على منبر التدريس مثلاً ؛ تعلم شباباً كباراً ، علماً لم تختص هي به ، ولم تنفرد بمجمله ، ولم ينقرض الرجال حتى لم يبق لتدريسه إلا هي ، وليست أصلح له ولا أقدر عليه من رجال هم مستعدون للقيام به ، راغبون في أدائه ؟

فلماذا نستضعف الرجل فنحمل عليه ، ونظلمه هذا الظلم البين ، ونهاب الجنس (الخيف) أن نقول لأهله كلمة أو نشير إشارة ؟

وأي المساواة بين الجنسيتين التي ندعو إليها دائماً ، ونتجمل بتوحيدها ، وننبأها بها ، ونحن لا نفهم معناها ، ولا ندري علام تدل وإلام توصل ؟

* * *

وهل انفرد هذا الرجل وحده بلبسه غير لباسه ، وتزيينه بغير زيّه ؟ ألسنا نرى كل يوم أناساً يتزيّون بزيّ الصالحين ، ويحلمون سبحات المسيحين ، ويقومون في المساجد مع المصلّين ، ثم لا تعاملهم إلا غشوك ، ولا تخبرهم إلا وجدتهم طلاب مراتب ورواتب ، أو باغي^(١) منافع ، ولا تراهم إلا متزلفين لكل صاحب سلطان ، خاضعين له ، يؤثرون رضاه على رضا الله ، ويخافون غضبه أكثر من غضب الله . إذا رأوا الحرام منه خرسوا عنه ، وإن رأوا المكروه من غيره أقاموا الدنيا عليه .

(١) اي قاصدي .

ومشايخ طرق ظاهرهم مع مریدیهم ظاهر الفقراء الزاهدين ، وحقائقهم
مع أهليهم وإخوانهم ، حقائق الفساق الذين ينتهكون كل حرمة ، ويتغنون
كل لذة ، ويعيشون حياة ليس فيها شيء لله ولا للشرف .

أولسنا نرى كل يوم عملاء للأجانب ، يدرسون على حساب الاجنبي في
مدارسه ، ويتربون على يديه ، ويسبّحون بحمده ، يتوجهون أنسى وجههم ،
ويعملون له فيما استعملهم ، ويعرفهم الناس صنائعه وعبيده ، يلبسون فجأة
ثياب الوطنيين المخلصين ، أو دعاة الدين الصالحين ، ثم يدخلون (بأمر الاجنبي)
الحزب أو الجمعية ، فلا يلبثون أن يكونوا هم أربابها ، وأن يقصوا عنها أصحابها
ثم يصرفونها لمصلحة الاجنبي ، يخدمونه وهم يسبّونه ، قلوبهم وأيديهم معه
وألستهم عليه ، وعملهم لمصلحته وإن كانت ظواهرهم لمحاربهته ؟

أولسنا نرى أغنياء جهلاء يلبسون ثياب العلماء الأذكياء ، وأدنياء يزهون
بجلل الأعلیاء ، وأعداء يرتدون أردية الاصدقاء ؟
فلماذا نفرّد هذا القليل المسكين بالملامة ، ونخصه بالنقد ؟

* * *

وهل كل من حمل شارب الرجل ، ولبس لباسه ، كان رجلاً ؟ لو كان
هؤلاء كلهم رجلاً فهل كان يمكن أن تبقى بلاد العرب الى اليوم مجزأة مقطعة ،
تفصل بينها حدود وأعلام ، يطوّها الاجنبي ويتحكم فيها ، ويستغلها ويستعبد
أبناءها ؟ إن الرجال حقاً هم الاربعون الذين كانوا مستخفين في دار الأرقم في
أصل الصفا ، فلم تمر عليهم ثلاثون سنة حتى فتحوا نصف الدنيا ، لا هؤلاء
(الخمسة مليون) الذين ناموا منذ ثلاثمائة سنة حتى تجرأت عليهم نصف شعوب
الدنيا ؟ لو كان هؤلاء رجلاً حقاً واجتمعوا على الاسطول الانكليزي لملأوه

سحلا على أكتافهم ، والو نفخوا كلهم نفخة واحدة لطيروا الجيش الانكليزي
المربط عند القناة (١) .

ولكنهم اشبه الرجال ، ولبسهم لباس الرجال لا يقل عجباً وغرابة ، عن
لبس هذا القليل لباس النساء .

* * *

ولماذا ننكر عليه أن يكون رئيس لجنة السيدات الـ (حزبيات) ولا
ننكر على السيدات أن يؤلفن هذه اللجنة ؟ وما للسيدات وأعمال الاحزاب ؟
إنه إن دخل فيها فهذا عمله ، وهذا مكانه ، ليس هو الطارئ عليه الواعل فيه ،
ولكن السيدات المحترمات فهن أولى بالإنكار ، وأحق بالمنع ، لا احتقاراً
لهن وزرارة عليهن بل إكراماً لهن ، وترفعاً بهن أن ينزلن الى هذه المنزلة ،
وينحططن الى هذه الدركة ، وهل جنى الرجال من الحزبيات في بلادنا خيراً
حتى يحنيه منها النساء ؟ هل رأينا فيها إلا التفرقة والانقسام ، واستغلال نفر
منا إخلاص المخلصين ، واندفاع المندفعين ، وطمع الطامعين ، للوصول الى
كراسي الحكم ، والتمتع بأموال الدولة ؟ وماذا يرى المراقب البعيد ، من
تبدل الحكومات في هذا الشرق العربي ، وتعاقب الاحزاب عليها ، إلا تبدل
الوجوه ، وتغير الأشخاص ، أما الاسلوب فهو واحد ، والسياسة واحدة ،
يتبدل الوزان ويبقى الميزان ؟ والميزان مختل ، والقلب مائل ، والصنجات ضائعات !

* * *

أولسنا جميعاً مثل هذا القليل نلبس لباساً لم يفضل لنا ، ولم يقس علينا ،

(١) وقد أخرجهم الله الآن و (ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعهم حصونهم)

ولكنه خيط الغيرنا ، فأخذناه كما هو بلا إصلاح ، ومشينا فيه كما يشي الطفل بحلة أبيه يتعثر بها فيسقط ، فيضحك أهله عليه ، ويسلّهم بفعله .

لقد أخذنا هذه المدنية كما هي ، لم نحكم فيها عقولنا وشرائعنا وطبائع بلادنا . ولوازم معيشتنا كما تفعل كل أمة في الدنيا ، إذ تستوي الأمم في أصول الحضارات ، وأسس المدن ، ولكنها تختلف في التفاصيل ، فلا تبني البيوت وتخط الثياب في البلاد الباردة كما تبني وتخط في البلاد الحارة ، ولا تخطط المدن في شعاف الجبال كما تخطط في السهول أو على سواحل البحار ، ولا تكون الاطعمة في حدود القطب كما تكون في خط الاستواء ، وما يسوغ ويقبل في بلد قد ينكر ويرد في بلد ، وما يحسن في لسان من أساليب البيان يقبح في لسان ، وما يجمل في أذن من ألحان الغناء يبشع في أذن ، ليس في الدنيا بلدان متحضرة تستوي فيها هذه الدقائق كلها ، وإلا لما كانت معنى لاختلاف الحضارات ، وتعدد الثقافات ، وتكلف مشاق الرحلات ، ولما كان السائح الذي يرى فرنسا كأنه رأى ألمانيا ، والذي يبصر أمريكا كأنه أبصر روسيا ، وليس في الدنيا حضارة أصلية إلا ولها طابع خاص بها ، فما هو طابعنا نحن في حضارتنا الجديدة ؟ ما هو الثوب الذي نلبسه ؟

ادخل أي دار من الدور ، وسر في أي شارع من الشوارع ، في مصر أو الشام أو العراق ، تجد الجواب ، تجد في الدار الواحدة غرفة مفروشة بالبساط والسادة وفيها فراش على الأرض ، وغرفة فيها أحدث ما صنع من الأرائك والكراسي والمناضد ، ودق في هذه الغرفة تجد فيها خليطا من الذوق الفرنسي والانكليزي ، وفي صدرها مرآة من أسلوب عهد لويس الرابع عشر ، وأمامها نضد على الطريقة الاميركية ، وتجد بين الأم وبنتها في اللباس والعادات

والافكار قرناً كاملاً ، وتجد بين الدار وأختها فرقاً هائلاً ، في العمارة والفرش والذوق والترتيب ، مع أنك تدخل بيوت عمارة يسكنها إنكليز أو فرنسيون فتجسّ على اختلاف الغنى والذوق ، أن لها طابعاً عاماً يبدو على كل منها ، وإن تفاوتت درجات ظهوره وخفائه ؛ وتجد في الشارع ألواناً من الألبسة والأزياء ، يحسبها الغريب أزياء عيد المسخر (الكرنفال) . وادخل المدارس تجد في المناهج ، وفي المبادئ العلمية والسياسية والاجتماعية التي تعرض على التلميذ ، وفي آراء المدرسين ومذاهبهم (كرنفالاً) آخر ؟ ولكنه أغرب وأشدّ اختلافاً ، وأكبر ضرراً . وفي المبادئ الحقوقية في التشريع ، وفي المذاهب البيانية في الادب ، وفي الصحافة وفي السينما وفي كل شيء (كرنفال) ضخم ، ليس له يوم واحد ينقضي بانقضائه ، ولكنه دائم باق لا انقضاء له .

وأنا لا أدعو لنبذ الحضارة الغربية ، بل أدعو إلى أخذ ما ينفعنا منها ، وأن لا نأخذها أخذ العامي للراذ (الراديو) ، لا يفهم منه إلا أنه يأتيه بالاصوات فيفتحه على مصراعيه ، ويزعج به الجيران ، ويكره إليهم الحياة بجواره ، بل أخذ العالم الذي يعرف وجوه استعماله ، ويدرك تركيبه ، فيصلحه إذا فسد ، ويكمله إذا وجد ناقصاً ، ويصنع مثله أو يخترع أحسن منه ، أي أن نتعلم علومهم ، ونتقن فنونهم ، وندرس أخلاقهم ، ثم نرى ما يزيدنا منها قوة وسعادة ، للفرد منا والجماعة ، وسهولة في العمل ، ولذة في المعيشة ، فنأخذ كإله أو نعدله حتى يصلح لنا ، وأن ننقله إلينا ، ونجعله ملكاً لنا ، لا أن ننقل به إلى أمة غير أمتنا ، وطبيعة غير طبيعتنا ، وأن ننظر ما فعله أجدادنا في أول العهد العباسي ، مع الحضارة الفارسية مثلاً فنصنع مثله ، إنهم أخذوا كل نافع في الطعام والشراب واللباس والمسكن وفنون القول وطرائق الفكر ، ولكنهم لم يصيروا به فرساً ، بل جعلوا به الفرس عرباً ، أما أن نأخذ

النافع والضر ، والجليل والحقير ، بلا فهم ولا علم ، فهذا تقليد
كتقليد القردة .

* * *

وبعد ، فلماذا ننكر على هذا الرجل أنه فقد عزة الرجولة ، واتخذ لباس
المرأة ، ولا ننكر على الكثرة السكاثة من هذه الأمة أنها فقدت عزتها ،
واعتمادها بنفسها ، وكبريائها القومية ، وشعورها أنها أمة هي أعظم الامم في
الجاهلية وفي الاسلام ، وأنها إن قدر عليها أن تذلل حيناً ، فما من أمة إلا وقد
ذلت مرة ، ولكنها إن تذلت مرة أخرى ، ولن تعود الى الغفلة والنام .

إن رأس أدوائنا هو هذا اللطف ، والحرص على أن نكون مؤدبين ،
لا نؤذي محدثنا أو جليسنا . هذا اللطف ، وهذا الإكرام للضيف ، هو الذي
جرأ علينا الاجانب ، جنوداً وتجاراً ، حتى ملكونا بجيوشهم ومعاملهم وشركاتهم
ومتاجرهم ، ولا خلاص لنا ، أعني لا خلاص لمصر من هذا كله إلا بأربع
خلائق يجب على كتابها وصحفيها ومدرسيها وصانعي أفلامها أن يعلموها الناس
وأن يخلّصوهم بها ، هي حب المال أولاً ، وحب المال إن زاد كان مذمة للفرد
ونقيصة ، ولكنه لا يكون للشعب إلا خيراً ، وما أفلح شعب لا يحب في
مجموعه المال . وحب الاسفار ثانياً ؛ كونوا كاخوانكم الشاميين ، هل طلّع
كوكب إلا على نفر منهم ؟ اقتحموا البحر والصحراء ، الى امريكا شماليها
وجنوبيها ، وأفريقية أدناها وأقصاها ، والهند واليابان وأوربة ، وما نزلوا بلداً
إلا كانوا من كبار تجاره ، ومن وجوه سراته ، عاشوا تحت كل نجم ، وجابوا
كل أرض ، وخالطوا كل أمة .

وترك هذا اللطف ثالثاً ، وتعود الشدة في الحق ، والثقل على العدو ،
والمزاحمة على العيش ، وأن يحس كل مصري بعد هذا كله ، بل قبل هذا كله

أن البلد بلده وأنه أحق به من كل خواجة وكل دخيل ، وأن له هو طبيعته
وخيراته ، وأنه أكرم من هذا الدخيل (كائناً من كان هذا الدخيل) أصلاً ،
وأعز نسباً ، وأبين لساناً ، وأقوم ديناً ، وأجل أثراً في الدنيا ، فلا يطأطئ
رأسه لأحد ، ولا يحني هامته لإنسان ، ولا يرضى بالدينية من مخلوق في الدنيا .
بهذه الأخلاق تنقلب أمة أخرى ، ويرى هؤلاء الأجانب ماذا يصنع
الأسد الجريح (إذا برىء) بالثعالب التي كانت تلعق من دمه .
والويل يومئذ للثعالب !!



* وكم في مصر من نبات أمبان

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

إجلاء هذه البنت عما تسميه ملك أبيها ، اعظم عندي من إجلاء الانكليز
عن مدن مصر .

لأنها تحتل بحق (التملك) واولئك يحتلون بسيف الغصب .
ولأنها توسك ان تصير (كما صار غيرها) مصرية ، في سجلات الاحصاء ،
على حين انها لاتزال اجنبية الدم والهوى واللسان ، واولئك يبقون انكليز
غرباء ، غاصبين اعداء ، ويبقون قذى في عين كل مصري ، وغصة في حلقه ،
وثقلا على قلبه ، حتى يخرجوا ، وما من خروجهم بـد ، لان الباطل الى
اضمحلال وان كانت له جولة ، والحق الى ظفر وان كانت له كبوة ، وقد
(طالما) بغى باغون ، وظلم ظالمون ، ولكن لم يدم باغ ولا خلد ظالم ؟

★ « جلست بنت البارون أمبان صاحب شركة «مصر الجديدة» في فندق «هيلوبوليس
بالاس» مع شابين انجليزين ، وكان على مقربة منهم الضابط الطيار صدقي فجرت بينهم
مناقشة في الجلاء ، فقالت الفتاة : « إن المصريين من غير الانجليز صفر . » فلما انكر عليها
الضابط وألزمها بالاعتذار أمرت على قولها وأوعده بالطرده من فندقها ومدينتها . فبلغت
الواقعة حكومة مصر فطرقتها منها .

هذه البنت وامثالها شر من الانسكايز ، وسند التملك في يدها اقطع في رقابنا من السيوف في ايديهم ، وفندقها في مصر الجديدة اخطر على استقلال مصر من ثكنات قصر النيل ، لان المصيبة في هؤلاء انهم يعدون (في جنسيتهم الرسمية) منا ، وهم في حقيقتهم من غيرنا ، فيدخلون في الامة دخول السم في الجسم ، وصندوق الديناميت بين احجار البناء ، ويكونون منا كالشيطان من الانسان يجري منه مجرى الدم ، فلا يستطيع الخلاص من شره ، ولا النجاة من اذاه . ثم ان اصحاب كل بلد هم ملائكة ارضه ، واصحاب عماراته ، هم سادته ، وهم الحاكمون فيه ، فإن شاؤوا عطلوا هذه الأرض وتركوها مواتاً فجعلوا البلد مقفراً ، وردّوه فقيراً ، وإن شاؤوا أنخلوا عماراتهم للبوم والعناكب أو هدموها ، وإن شاؤوا أدخلوا الناس إليها وأسكنوهم فيها ، وإن شاؤوا أخرجهم منها وأغلقوا دونهم أبوابها ، فمن هو الذي مكّن لهذه البنت وأمثالها أن يكونوا هم ملاك هذا البلد ، وترك الكثير من أهله حفاة عراة جائعين ، يدورون يسألون هذه (الخواجات) صدقة وإحساناً ، فتزورّ عنهم وتنأى بجنبها ، وتصعّر خدها ، وترميمهم بكل قبiche من فمها (الجميل) .

من الذي أجرم هذه الجريمة الكبيرة ، أو غفل هذه الغفلة العجيبة ، حتى أصبحنا اليوم والمتاجر الكبرى في مصر للخواجات ، والفنادق للخواجات ، والقهوات للخواجات ، وأكبر العمارات يملكه الخواجات ، وأفخم السيارات يركبه الخواجات ، حتى أن شارعاً عظيماً هو شارع قصر النيل ، لا يملك فيه المصريون ، كما أخبرني الثقة ، إلا ثلاث عمارات فقط ، بقيت مصرية لأنها موقوفة ، وسائر الخواجات . فإذا بنفعك أنك مصري مستقل ، وأن الوادي وادي أبيك وجدك وواديك ، إذا كان الخواجة يستطيع أن يطردك من

مأواك ، فلا تلقى إلا بإذنه سقفاً يكتنك ، وأن يعريك فلا تجد إلا بإذنه
ثوباً يسترك ، وأن يسورك فلا تصل إلا بإذنه إلى ترام يحملك ؟

ما الاستقلال وأنت محتاج إليه في كل شيء ؟ ما العزة ؟ وأنت تأكل الحبز
الأسود وهو يأكل لباب البحر من أرض مصر ؟ وأنت تسكن الكوخ المهدم
وهو يملك الصرح الضخم على أرض مصر ؟ وأنت تشرب الماء العكر وهو
يشرب الرحيق المصفى من خير مصر ؟ وأنت تمشي حافياً وهو يختال بسيارته
على ثرى مصر ؟ وأنت تلبس الجلباب الخلق وهو يتخذ الثياب الرقاق من
قطن مصر ؟ أيصير الغريب صاحب البلد ، وابن مصر يصير غريباً في مصر ؟
هذا فظيع ! هذا (عهد الماليك) يعود بثوب جديد !

لما كنت في العراق كنت أرى بعض العراقيين يظهرون الكراهية
للمدرسين السوريين ، وينفسون عليهم روايتهم التي يأخذونها ، ويقولون لهم ،
أنتم آتون (لتقشرونا) (١) ، ويبغضون السوري الذي يزاحمهم على مورد
الكسب في التجارة ، ومنع الربح في العمل ، فكنت أنألم من ذلك وأقول ،
ليتهم تعلموا اللطف ومحبة الغريب . فلما جئت مصر ، ورأيت هذا اللطف وما
جر إليه من الضعف ، وحب الغريب وما أوصل إليه من الخراب عرفت أن
الحبر فيما يفعل العراق .

وأنا لأدعو العرب ليكره بعضهم بعضاً ، ولكن أدعو إلى شيء معقول :
هو أن العرب اليوم في أقطار العربية كلها ، كجيش في مصافته ، على كل فرقة
أن تدفع العدو عن حماها ، ولا تدع الجيش يؤتى من قبلها ، ونحن نحارب (فيما
نحارب) الفقر والإفلاس ، فعلى كل قطر ألا يدع في أبنائه فقيراً ، وألا يترك

« ١ » كلمة عامية عراقية معناها (لتسخرُوا بنا)

فيه رجلا بلا عمل ، وأن يمتنع الغرباء عنه من مزاحمة أهله في زراعته وتجارته وصناعته ، حتى إذا اشتغلوا جميعاً ، وبذلوا قواهم كلها ، وبقي فيه بعد ذلك فراغ لأيد غير أيديهم ، وأموال غير أموالهم ، استعانوا بآبناء الاقطار العربية الأخرى ، ولم يفتحوا لهم الباب إلا بمقدار الحاجة ، أما أن يجيء السوري ليعمل في مصر ، ويجيء المصري ليشغل في الشام ، ويترك أهل البلد بلا مال ولا عمل ، فتفسد البطالة أخلاقهم ، ويذل الفقر نفوسهم ، ويعلمهم هذا وذاك كره أخيم العربي ، فليس من مصلحة العرب أن يكون . هذا رأي أعلنه بلا جمجمة ولا مداراة .

وهذا للعرب . أما (الخواجات) فأجلوهم عن بلادكم إجلاء تاماً فلا يأتوها إلا سياحاً أو زواراً آثار . وادفعوا أيديهم عن مرافقها فلا يملكوا منها إلا ما يملك مثله الأجنبي في بلادهم . وكل بلاد الدنيا ، تمتنع الأجنبي أن يملك فيها أرضاً أو عقاراً إلا بمرسوم فما بال مصر مائدة ممدودة لكل طاعم ، وكنزاً مفتوحاً لكل آخذ ؟ وما بال الخواجة يجيء مصر فقيراً مفلساً ، لا يبتغي إلا القوت يملك رفقته أن يموت ، ولا يتمنى إلا قرشين يعود بهما إلى بلاده ، فلا تمر السنون حتى يصير الفقير غنياً ، والواغل على البلد مالكا له ، ويغدو (الشحاد) صاحب المنزل ؟ ويجيء معه بالغانية راقصة أو بغيّاً ، فيقدمها للمصري بيد ويأخذ منه الأسناد على موسم القطن بيد ، ثم تتجمع الأسناد فتأكل الموسم ، ثم تعجز المواسم عن سداد الدين ، فيملك الأرض ، ثم تقبل الدنيا غير الدنيا ، وينقلب الفلك ، فيصير السيد عبداً ، والعبد سيداً .

هذا احتلال شر من احتلال الجيوش الانكليزية ، لأنه احتلال المواسم : راقصات وأرتيستات ، واللصوص : أصحاب متاجر وأعضاء شركات .

والخلاص منه أصعب وأشق ، لأنه لا يكون بالرضا والبارود ، ولا يكون بالمظاهرات والثورات ، بل يكون بإعلان (التغيير العام) في الكتاب أولاً ، وتجنيد القوى الأدبية كلها ، للعمل على إعلاء همة هذا الشعب ، وأن نعيد إليه ثقته بنفسه ، وأن نردّ عليه عزّته وكبريائه ، حتى ترتفع هامته ، وتشتد عضلاته ، ويشمخ أنفه ، ويعلم أنه لا يكون حقيقةً بملك مصر ، ولا أهلاً للاستقلال ، ولا سليل من ملوكوا بالاسلام الدنيا ، إن لم يكن عزيزاً في سيّد في بلده .

ثم نعمل على أن نصب فيه روح المغامرة ، ونُدفعه إلى اقتحام المخاطر ، وركوب الأسفار ، ونعلمه حب المال ، فما يفلح شعب لا يحب المال ، ولا يعرف قيمته ، ولا يفلح شعب لا يريد فراق وطنه ، ولا النأي عن عشه ثم نعلمه بغض الأجنبي ، حتى يكون له ديناً ، ويغدو له طبعاً ، نعم ! البغض ؛ لماذا تنفرون من سماع هذه الكلمة ؟ لأنها منافية للطف والمجاملة والكرم ؟ يا ناس لقد قتلنا اللطف ، لقد ضيعتنا المجاملة ، لقد أودى بنا الكرم . الكرم صيّرنا شحادين ، والتواضع جعلنا عبيداً ، فلنتعلم الاقتصاد ، والعزة ، أو فلنعلمها أولادنا إذا لم يمكن أن نأخذ بها نفوسنا .

ثم لنفهم هذا الشعب أن الاوربي يضحك علينا بالأرتستات والتمجور والأزياء ، كما يضحك على زنوج أفريقية بالخرز والاجراس ، فلنره أننا عقلنا وشببنا عن الطوق ، وأننا لم نعد نرضى أن يضحك أحد علينا ، وما لنا ولارستاته وعندنا نساؤنا أذكى وأطهر وأجمل وأكمل ؟ وما لنا ولازيائه ولنا أزيائنا ؟ وما لنا ولخوره ولنا ... شرائعنا التي تحرم علينا الخمر ، وأخلاقنا ؟ فإذا استكملنا عدة الهجوم ، شرعنا الرماح وهجمنا ، وخضنا المعركة

نحاربه بمثل سلاحه ، بالعلم والجد والدأب والتعاون حتى نلقي غنا هذه القيود التي كبلنا بها ، حلقة بعد حلقة ، كما شذها من حولنا حلقة بعد حلقة ، على أن المعركة قد بدأت من زمان ، وما معامل المحلة الكبرى ، ومصانع الطرابيش والزجاج^(١) إلا أعلام النصر في معركة الوطن ، فلنبض فيها ، ولنؤلف لكل ميدان فرقة : شركة اقتصادية ، فيكون لكل مرفق من المرافق شركة ، حتى إدارة الفنادق ، وتسيير الترام وبناء المنازل .

لقد أعلنتم المعركة المقدسة ، بإجلائكم هذه البنت عن أرض مصر ، وعقد لكم اللواء ، ورفع العلم فامشوا تحته أدباء واقتصاديين وعلماء ، فإن الميدان يتسع لكم جميعاً ، ويحتاج إليكم جميعاً ، واعلموا أن الاستقلال الحقيقي لا يكون إلا عندما يلتفت المصري فلا يرى حوله شركة أجنبية ، ولا مدرسة أجنبية ، ولا متجراً أجنبياً ، ولا عقاراً يملكه أجنبي ، وتكون كل خيرات مصر لأبناء مصر !

هذا هو الاستقلال ، فعلى كل مصري أن يعمل له ما يستطيع !

(١) ذلك في مصر وفي الشام معامل الشركة الخماسية والشمثنو والزجاج والسكر وأمانها .

تاجر عرب

نشرت سنة ١٩٤٥

أكتب هذه الكلمة والمطر يطل منذ ثلاث ليال ، ما انقطع خيطه ، ولا سكت صوته ، أقبل بعد سنة مضت ، شجت فيها السماء ، وضنت السحب ، ففرح به الناس واستبشروا ، وانتظروا عاماً خيراً مباركاً ، يغاث فيه الناس ، ويأتيهم بالفرج بعد الشدة ؛ غير أن الخير إن زاد عن حده ، كاد ينقلب الى ضده ، وكذلك المطر لما استمر صار الناس يسألون الله الجفاف ، ويتمنون لو تطلع الشمس ، والشمس ما تطلع ، والمطر ما ينقطع .

ووكفت السقوف ، ونزت الجدران ، واستأقظت غرف ، وسالت طرق الجبل أودية ، فامتألت بالخصى والحجارة ، وغدت أباطح ، ووقف^(١) سيلها الدفء السيارات وحافلات الترام ، واختبأ الناس في البيوت ، وما تكاد البيوت تمنع برداً ولا بللاً ، ونال حي المهاجرين (على سفح جبل قاسيوت) ما لم ينل مثله حياً في دمشق ، وحي المهاجرين نصفه قصور من الصخر شائحات ذات طبقات كستور وشرفات ، ونصفه دور لمساكين ، هي أكواخ من اللبن والطين ، وما في بلدنا مكان يلتقي فيه الفقر المدقع المتجمل الصابر ، والغنى السفيف الوقح المبذر ، كما يلتقيان وجهاً لوجه في المهاجرين . أما بيوت الأغنياء

(١) « وقف » يتعدى بنفسه ولم يسمع عن العرب « أوقف » .

فما أحسّت المطر ولا درت به ، وثام من فيها على فخم الأسرة ووثير الفرش ، لا يعنهم من خبر السماء وخبر الأرض إلا أن تشبع بطونهم ، وتمتلىء صناديقهم ويسلم لهم أولادهم وأهلهم ، وأما أكوخ الفقراء ، فقد صبرت على المطر صبر الكريم ، واحتملت ليلة وليلتين ، فلما جاوز الحمل الطاقة ، خرت في المعركة كما ينخر البطل الشهيد ، وخرج من بقي من ساكنها فراراً منها حين لم تعد دوراً وإنما صارت بر كاً ومستنقعات .

سقوف بيوتي صرناً أرضاً أدوسها وحيطان داري ركّع وسجود
وسمعت في الليل رجة ، اهتزت لها الدور ، ورجفت منها القلوب ، فقيت
أستقرىء الخبر ، فإذا دار جيراننا قد هوت .

ومضت ساعة ، وأهل الحمية من الناس يعملون في الوحل والمطر والبرد ، ليواسوا أسرة نزل بها القضاء ، وينقذوا ما يستطيعون إنقاذه ، من فرشها ومواعينها ، وذلك القصر ينظر الينا ثم يعرض عنا ، قد شغلته حفلة أقامها تلك الليلة لا أدري فيم أقامها ، ولا تزال أنواره ساطعة في عيوننا ، ونساؤه الكاشفات يتراءين لنا من وراء الزجاج في الحرير والذهب ، وأصوات الغناء والمرح في آذاننا ، تهزأ بالفقر وأهله ، وتضحك وقحة في مآتمهم ، وترقص فاجرة في مقابرهم ، والسيارات تقف في بابه تنزل منها طاقات الزهر ، وثن كل طاقة يحسي الأسرة من هذه الأسر أياماً ، والهدايا التي تذهب بالمال ولا تأتي بالنفع لوحات مصورة ، وكؤوس منقوشة مذهبة ، وغمائل للناس وللبهائم ، ولو وزعت أثمانها على فقراء الحي لم تدع فيه فقراء ، والفضيلة قد توارت خجلاً في زاوية الطريق ، وابلّس واقف يضحك مسروراً بأن سلب نفراً من أمة محمد فضائل دينها ، ومروءتها ، وأن شئراً من آدم فجرد بعض بنيه من بشريتهم ،

وأحلمهم شياطين في أجسام بشر ، أو ذئابا قد استخفت في الثياب ، ولم اقل
كلابا لئلا أشتم الكلاب !

ونعجب بعد هذا من ابراهيم بن آدم لما أخرجه ليستسقي لهم ، وقالوا له
قد استبطأنا المطر ، فادع الله لنا ، فقال : تستبطئون المطر ؟ أنا والله استبطيء
الحجارة .

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن
يؤخرهم الى أجل مسمى » .

* * *

وما هذا القصر ملك ولا أمير ، ولكنه لتاجر من هؤلاء التجار الذين
يحيون في أيام الحروب التي يموت فيها الناس ، ويغنون حين يفتقرون ،
وينسون أن لهذا الكون إلهاً قادراً عادلاً جباراً ، ما استقال ولا أحيل على
المعاش ، ولا يزال لهم بالمرصاد ، وينسون أن الموت آت لا مفر لهم منه ،
وأن قبل الموت المصائب والرزايا ، الفقر والشكل والمرض ؛ وأن بعد الموت
الحساب ، وبعد الحساب جهنم أو الجنة ، أفبلغ بالتجار أن يعلنوا الحرب
على الله ؟

إننا نعيش بحمد الله في منجاة من القتال وأهواله ، والحرب وبلاياها ،
ومالنا عدو يحاربنا ، وما عدونا إلا هؤلاء المحتكرون أعداء الله وأعداء البشر
الذين حبسوا أوقاتنا وأخفوا أرزاقنا ، وارتضوا لنا أن نجوع وأن نعري
ليكنزوا الذهب والفضة ويطيّفوا بها إطافة الوثني بضمه ، وليريقوا فيض ما لهم
على أرجل بنات إبليس : (الأرستات) الراقصات ، وفي معابد الشهوة
(الملتَهيمات) ونوادي القمار ، وفي كؤوس الخمر التي اسمها الشمبانيا والويسكي

يحارون ماذا يشترون بما لهم من اللذات المحرمة ، وفي أي مطرح من مطارح التبذير يلقونه ، والموظفون والعمال لا يكادون يجدون ثمن الغذاء والكساء إلا موظفًا خان أو عاملاً سرق ، فما حال الأرملة المفردة واليتيم الضائع ، والشيخ الذي لا سند له من مال أو ولد ، وعندنا في دمشق من الأرزاق والبضائع ما لو أخرج لكفانا الحاجة سنين أخرى ، بل إن عندنا كما أكد لي من يوثق به ، بضائع لا تزال في مخازنها منذ الحرب الماضية ، والناس يحتاجون إليها والتجار يخفونها يرتقبون بها يوماً أشد ، وضائقة أحكم ، لا يدرون أن كل من أخفى بضاعة أو حبسها ينتظر بها ارتفاع الأسعار ، وحرمانها من هو في حاجة إليها فهو محتكر قبل ما حبسه أو كثر ، وهو عدو مؤذ ، واصل سارق ، وليس بتاجر ، لان التجارة كما يفهمها عقلي القاصر إنما تكون بنقل البضاعة من بلد تكثر فيه الى بلد هي فيه قليلة ، أو يجمعها في موسمها لبيعها في غير موسمها أو بشرائها جملة وبيعها تفاريق ، ويأخذ التاجر الربح المعقول على ما بذل في ذلك من ماله ومن عمله ، أما ما نراه اليوم من اجتماع النفر من التجار حول مائدة من الرخام في (قهوة الكمال) مثلاً ، وفي أيديهم أقلامهم وفي أفواههم دخائهم أو أنابيب زاجيلهم ، يبيع أحدهم (بالة الخام) أو (كيس السكر) عشرين مرة بأسعار مختلفة ، ويشتريها ، وما باع على التحقيق ولا اشترى ، ولا قام من مكانه ولا أخذ ولا أعطى . ثم ينفض الاجتماع ويلقى الستار على من ربح منهم عشرة آلاف ليرة ، أو من خسر مثلها . أما هذا وأشباهه — وما أكثر أشباهه — فما هو لعمر الحق الا القمار بعينه وأنفه وذنبه .

وإذا كان حقاً^(١) ما اعتمده (رينان) ، من أن الدولة تقوم على (الإرادة المشتركة) ، لا على الارض وحدها ولا اللغة منفردة ، الى آخر ما في « نظريته »

(١) وليس حقاً كله .

المعروفة ، فليس التجار منا ولا نحن من التجار ، لأنهم يريدون غير ما نريد
ولا ارادة مشتركة بيننا وبينهم ، فنحن نرجو الرخص وهم يتمنون الغلاء ، ونحن
نحب أن تنتهي الحرب وهم يحبون أن تدوم ، ونحن نطلب من الحكومة أن
تسعر وتراقب ، وهم يطلبون لانفسهم حرية إجاعتنا وتعريتنا ، ونحن لا نجد
مالاً نشترى به لوازمنا ، وهم لا يجدون لذة جديدة يصرفون فيها أموالهم ،
فأي جامعة بيننا وبينهم ؟

* * *

وإذا كانت الرسالة جردت قبل الحرب ^(١) قلمها البليغ ، لنصرة أكرم
مبدأ ، مبدأ الإحسان ، والدفاع عن الفقراء والمحتاجين ، وإثارة الحمية في نفوس
الاغنياء القادرين ، ذلك والدنيا في رخاء والحياة سهلة ، والسلام قائم ، فأولى
أن تستل هذا القلم العضب اليوم ، حين اشتد الخطب ، واتسعت بين الفريقين
الشقة ، وازداد الاغنياء غنى ، والفقراء فقراً ، ونشأت هذه الطبقة المحدثه النعمة
التي شبت من المال ولا تزال في جوع الى الرفاهية والبلهية واللذائذ : طبقة
« أغنياء الحرب » .

* * *

إن أهل القصر لا يزالون في لهوهم وقصفهم ، وأهل الكوخ لا يزالون في
كدهم وجدهم ، والمطر دائب ما ينقطع ، والبرد قارس ما يخف ، والليل
موحش مخيف ، فمن هؤلاء المساكين ، إن لم تجرد لنصرتهم الاقلام من أغنادها
وتشرع حتى تصدع على هؤلاء الأغنياء حجارة القصر الذي اعتصموا فيه ،

(١) في النصف الأول من سنة ١٩٣٩ .

ليروا ما بالناس ويسمعوا ما خطب المساكين ، من إخوانهم في الوطن واللغة والدين . إنهم في سكرة الذهب ، فاصرخوا فيهم حتى يصحوا منها ، قبل أن يذهب السكر ويأتي « الأمر » ، فيروا أن أمر الله إذا جاء لا يرد . أفهمهم - وكيف السبيل الى إفهامهم - أننا رأينا رأي العين ، ما قرأنا في الكتب ، ولا سمعنا من الناس ، من غني في الحرب الماضية أكثر مما غنوا ، وبذر أضعاف ما بذروا ، ثم ذهب المال والأهل ، وغدا يسأل الناس على أبواب المساجد ولولا أنه يحرم التصريح بعد التلميح ، لصرحت بأسماء اقوام عرفناهم ، وإن جهلهم من قصرت سنه عن اسناننا .

* * *

على أنني ما أعمم القول ، ولا أطلقه إطلاقاً ، وإن في الموسرين لمحسنين ، وفي التجار لمنصفين ، وما تخلو طبقة من خير ولا من شر ، ولكن في الموسرين من يريد الإحسان ولا يعرف المستحق له ، ومن المستحقين من لا يعرف المحسنين ، ومنهم من يعرف ولا يسأل ، أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . وإن من أوجب ما يجب علينا في هذه الحرب أن ننشئ جمعيات موثوق برجالها ، بأمانتهم ودينهم ، تكون في كل حي كالوسيط بين الغني المحسن والفقير المحتاج ، تأخذ من الاول وتعطي « بعد التحقق من حاجته » الثاني ، ومن عرفت أنه اتخذ السؤال حرفة - على مقدرة منه على العمل ، أو على مال له قد خبأه ، فعلاً أكثر هؤلاء المكدين - رفعت أمره الى الحكومة لتعاقبه عقاب المتشردين ، وبأليت هذه الجمعيات الإسلامية الكثيرة في مصر والشام والعراق : الإخوان والشبان والهداية والتمدن وأمثالها ، تجعل ذلك المطلب من بعض مطالبها .

ثم إن من أهم ما ينبغي لهذه الجمعيات أن تصنعه هو أن تختار للاحسان

سلوباً يهون به العطاء على المعطي ، وتجنزل به المنفعة للآخذ . ولقد وجدت أنا واحداً من مائة أسلوب تخطر على البال ، حين كنت « من نحو ثلاث سنوات » قاضياً في القلمون ، وضائق الاقوات وقل الحبز ، فدعوت الى ما سميته « مشروع الرغبة » ، وأعاني عليه القائم بأمر المنطقة يومئذ ففرضنا على أهل كل بيت من القادرين رغبةً واحداً في اليوم وكلنا من يجمعه ، ووزعنا ما جمعناه على المحتاجين ، وتركنا من هم بين ذلك فلم نأخذ منهم ولم نعطيهم ، وهذا الرغبة الذي لا يصعب إعطاؤه على أحد ، ولا تشعر به الأسرة . أحيانا الله به أهل القلمون - وهم أكثر من سبعين ألفاً - في سنة القحط والضيق ، وما ذكرت ذلك لأفخر به ، ولا لأنه الأسلوب البديع الذي لا نظير له ، بل لأمثل به على ما أريد ، والعبرة بالأعمال لا بالأقوال .

نسأل الله أن يوفقنا حتى نعمل ، ويرزقنا الإخلاص في عملنا حتى يقبل ، -
وَأَلَّا يَجْعَلَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ كَانْصِرْخَةٍ فِي الْبِيدَاءِ .

★ ★ ★

إِنْ زِلْنَا

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

ركبت مع زميلي في البعثة القضائية السورية الأستاذ نهاد القاسم^(١)، زورقاً في النيل حملنا من (جسر اسماعيل) الى (مصر العميقة) بأجرة فاحشة قبضها منا صاحب الزورق ، وبعث معنا شاباً في نحو التاسعة عشرة ، قوي الجسم وديع النفس ، فأعمل المجاديف ساعة كاملة ، حتى هبط الليل وغسله العرق ، ونحن لم نصل ، فأشفقنا عليه وجربنا أن نسعده^(٢) فما أفلحنا ، وكدنا نقلب الزورق به وبنا ، فيسبح فينجو ونلقى نحن حتفنا ، فكففنا ، واكتفيننا من الترفيه عنه بعمل بالسنننا ، والمواساة باللسان أقل الإحسان ، حتى دنا الحديث من أجرته ، فسألناه :

- كم تأخذ ؟

- قال : أربعين قرشاً .

- قلنا : في اليوم ؟

(١) وزير العدل اليوم .

(٢) أي نساعده ..

- فصاح مستغرباً : في اليوم ؟ كل ثمانية أيام !
 - قلنا : أوليس لك أسرة ؟
 - قال : أمّ أعولها .
 - قلنا : أو تكفيك ؟
 - قال : تكفيني ؟! أبداً .
 - قلنا : فلماذا لا تطلب زيادة ؟
 - قال : يضربني عمي ^(١) أحمد ويطردي ، ويخبر زملاءه فلا يشغلوني وأنا لا أعرف إلا هذه المهنة .
 - قلنا : وكم يحصل هو ؟
 - قال : هوّ هوّ ... كثير ... كثير ... عنده عشرة زوارق تشي النهار كله ، كل ساعة أجرتها من عشرة الى عشرين قرشاً .
 وتركناه وصعدنا الى البر ، ونحن لا نزال نفكر فيه : شاب طويل عريض ، كيف يعيش مع أمه بخمسة قروش في اليوم ؟ والفرّاش والآذن ؟ كيف يعيشان بثلاثة جنيهات في الشهر ؟ والمؤذن ؟ والإمام ؟ والشرطي ؟ والعسكري ؟ ماذا يصنع هؤلاء ؟ هل فكر فيهم أحد من ولاّهم الله أمر هذه الامة ، واثمنهم على مالها ، وجعل الهم المنع والمنع ، والرفع والوضع ؟
 هل ساءل واحد منهم نفسه وهو يتخير أطايب الطعام من فوق مائدته ماذا يأكل هؤلاء المفلسون ؟
 هل فكر وهو ينتقي بهيّ الحلل من خزانة ثيابه ماذا يلبسون ؟

(١) يريد بقوله « عمي » معلمي وسيدي ولا يقول الخادم لسيده في الحجاز والعراق
 الا « عمي » .

هل خطر على باله وهو يفسد أخلاق أولاده بالترف ، ويتلف صحتهم بالسرف ، أن هؤلاء بنين وبنات لا تكفي رواتبهم لسد جوعهم بالجبن الفقار ، وستر عوراتهم بالحام ؟ رواتبهم لا تكفي للطعام والثياب فكيف إذا ولدت المرأة وجاءت نفقات الولادة ؟ فكيف إذا مرض الصبي وأقبلت مصروفات العيادة ؟ فكيف إذا خطبت البنت وكانت تكاليف الزواج ؟ فكيف إذا دخل الاولاد المدرسة وطالبهم بثمن العلم ؟ فكيف إذا استهوا أن يتشبهوا بأبناء الناس يوماً ، فأرادوا أن يأكلوا الحلوى الحلال أو يطلبوا الملهى المباح ؟ أم قد حرمت هذه المتع على الفقراء ، وكتب عليهم أن تكون حظوظهم من دنياهم كحظوظ البهايم : ملء المعدة بأرخص الطعام ، وستر الجسم بأيسر الثياب ، والاستكنان بشر المساكن ؟ وأن تكون معيشتهم أقل من معيشة كلاب الاغنياء ؟

قرأت في العدد ٦٧٣ من مجلة الاثنين ان (روى) كلب الوجيه الامثل ، فلان بك ، يفطر كل يوم بكيلو من الحليب ورغيفين من خبز (الفينو) و (باكيت) من (الشكولاتة) ثمنه بين ثمانية قروش وخمسة عشر قرشاً ويتغذى برطل ونصف رطل من اللحم المسلوقة مع طبق مترع بالثريد ، وأن له طبيباً خاصاً ؛ وخادماً أجرته عشرة جنيهات في الشهر عمله أن يصحبه في سيارته الخاصة به ؛ في نزته اليومييتين واشياء اخرى من هذه البابة ، يتمتع بها هذا الوجيه الامثل ، كلبه المدلل ، لا يصل الى مثلها واحد في كل عشرة آلاف ممن يقطن هذا الوادي من بني آدم ؛ فلم أجد في العربية على سمعها ، وعلى طول اشتغالي بها ، كلمة تليق بهذا السفه المبذر الكافر بالنعمة وبالإنسانية وبالوطن ، لاقولها له ؛ ولم أدر كيف اخاطب هذا المجتمع الذي بلغ الفساد فيه ، والانتكاس في اوضاعه ان صارت الكلاب تأكل (العيش الفينو)

وكثير من الناس يتمنون الحبز الاسود ؛ وتركب السيارات وهم يمشون
حفاة ؛ وتنام على الحرير وهم يجمعون على التراب ؛ ويقوم عليها طبيب خاص
وهم غرقى في الامراض ؛ لا يجدون الطبيب .

هذه حال لا يرضى بها الله ، ولا العقل ، ولا الشرف ، وأنا اخاف والله
ان تفتح علينا باباً من الشر لا يسد وتأتينا ان لم ننتبه لعلاجها بالداوية الدهياء ،
بالشيوعية المدمرة ، التي تأكل اخضرنا ويابسنا ، وتمحق غنينا وفقيرنا ، فتكون
لنا الراحة التي لا ألم بعدها : راحة الموت .

هذه حال لا يمكن أن يحتملها بشر ، فإن كان من بيدهم الامر لا يمشون
في الطرقات ، ولا يخاطبون الناس ، ولا يعرفون من الدنيا إلا القصر والسيارة
والملاهي والرحلات ، فليسألوا : ما بال الفقراء ؟ ماذا يصنعون ؟ وما شأن
صغار العمال والموظفين وكيف يعيشون ؟ وليعلموا ان عمر بن الخطاب كان
يخاف ان تضع شاة على شاطئ الفرات فيحاسبه الله عليها ، أفلا يخافون ان
يسألهم الله عن أمة بقضها وقضيضها ستضيع على شاطئ النيل ؛ سيقتلها الجوع
في اخصب ارض ، والمرض تحت اصفى سماء ، والجهل في أول دار للعلم
والحضارة ؟

لقد كانت مصر طبقات يستعبد بعضها بعضاً ، فسوى بينها عمرو بن العاص
باسم الاسلام وقطع هذا النظام الذي وصلته يد الدهر من عهد الفراعنة
الاولين ، الى عهد الاسكندر ، الى ايام البطالسة والرومانيين ، وأفاض على
الناس الهدى والعدل والنور ، فأحبوا لفعله هذا الدين ودخلوا فيه وتركوا له
ديناً كان لهم ، واقبلوا عليه علماً وعملاً ، حتى كانت مصر مثابة الاسلام ،
ومشرق انواره ، ومورد علومه افقدها ان تعود القهقري الى عهد الجاهلية
الاولى ؟ ارجع نظام الطبقات الذي مات ؟ أكون فيها سادة وعبيد ؟ ويعلو

بعض اهلها على بعض كأنما لم يفتح مصر عمرو ، ولم يركز فيها راية محمد ، ولم تكن مصر أم دنيا الاسلام ؟

أنا لا ادعو الى المساواة المطلقة بين الناس فذلك مالا يكون ولا يزال في الناس غني وفقير ما دام فيهم عامل خامل ، وذكي وبليد ، لن يكونوا ابدأ سواء في ارزاقهم ومعاشهم الا إذا استوى الجنسان وتحقق حلم المدافعين عن (حقوق) المرأة فانقلب رجالا ، ونبت لها شاربان و ... حية !

ولكن أدعو الى تقريب المسافة بين طبقات الناس ، عاليها ودانها ، وأن تضمن الحكومة لكل إنسان حقه الطبيعي في الطعام واللباس والسكن ، وألا تقرر في موازينها راتباً لموظف مهنا نزلت درجته ، لا يكفل هذا الحق له ولأسرته ، ولو كان كناس الطريق ، او ناطور المراحيض ، وان تسوي بين الناس (المساواة الممكنة) التي حققها الاسلام في أول الدهر في عهد الشيخين والشيوعية في ذَنَب الزمان في أيام ستالين ، وإن اختلف نوعها ، فكانت تلك مساواة في السعادة ، وهذه المساواة في الشقاء !

لقد نشأت في الشام ، وسجنت في البلاد ، فرأيت في كل بلد اغنياء وفقراء ، وسعداء واشقياء ، ولكن لم أر ابداً مثل الذي رأيت في مصر !
فما هذا التفاوت بين البشر في مصر ؟ ماهذا الوضع الذي يجعل من الناس واحداً يملك مليوناً ومليوناً لا يملكون واحداً ؟ وألفاً يشتغلون لرجل ، والرجل لا يعمل عملاً ؟ وإنساناً يظن نفسه من الغنى والكبر إلهاً ، وأناسي تحسب انها من الفقر والضعه بهائم ؟

متى كان هذا في طبع العربي ؟ متى كان في شرع المسلم ؟
متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً ؟
ياناس . راقبوا الله ، فإن هذا ظلم ، والله لا يرضى لعباده الظلم ولا يقرهم

عليه ، ولكنه يد للظالم ثم يأخذه ؛ فائقوا إخدة الله .

يا ناس . اعقلوا ، فإن هذا باب الشيوعية فإن لم تغلقوه دخلت عليكم فأهلكتم .

يا ناس . ارحموا ، فإن هؤلاء ناس مثلكم ، لا تحسبوهم بهائم لئلا يصنعوا فيكم صنيع البهائم ، فيثوروا عليكم رفساً ونطحاً وعضاً ولدغاً ، فلا تملكوا دفعهم ، ولا النجاة منهم .

لا ، لا تحقرهم ، فإن الدجاجة إذا هبت تحمي فراخها استماتت فانقلبت صقراً ، والقطعة إذا ضويقت وغضبت صارت نمرأ والماء إذا اندفع كان سيلأ مدمراً ، والهواء إذا انفجر كان إعصارأ مخربأ ، ولولا الضغط ما ثقب المسبار الحشب ، ولا اطلق المدفع القنبلة ، ولا زلزلت الارض ، ولا انفتحت البراكين ، ولا ثارت الشعوب .

فارحموهم ترحموا انفسكم ! واعدلوا فيهم تدفعوا عنكم يوماً اسود لا تعلمون إذا حلَّ عَمَّ ينجلي سواده ! وقوا مصر إن كنتم تحبون مصر ، جائحة مهلكة يوداهاية مكفهرة ، اولها الشيوعية وآخرها مالا يعلمه إلا الله ! وهذا إنذار !

★ ★ ★

إلى القرية يا شباب

نشرت في بغداد سنة ١٩٣٧

أنا أجلس كل عشية على سطح منزلنا في (الأعظمية) أشرف على الحقول التي تمتد إلى غير ماحد ، أرقب الشمس وهي ترجع إلى خدرها ، والفلاحين وهم يؤوبون إلى منازلهم في خط طويل متسلسل كأنه نهر جار ، نهر يجري منذ عصور مديدة لا يقف ولا ينقطع ولا يبلغ مصبه ، يسوقون دوابهم التي أنكمها العمل ، وأضناها الكد ، كما أضى أصحابها الشغل المتواصل في الحقول ، الشغل السرمدي الذي يبدأ مع الفلاح حين تبدأ حياته ، ولا ينتهي حتى تنتهي ، يشتغلون وهم أطفال ، يشتغلون وهم شباب ، يشتغلون وهم شيوخ ، لا يستريحون ولا ينالون على تعبهم إلا لقمة من خبز الشعير .

فيالروعة الواقع !

هؤلاء الذين يشتغلون هم ونسائهم وأطفالهم ودوابهم ليقدموا للناس القمح لاياً كلون خبز القمح ! هؤلاء الذين يرفعون عماد الدولة لاتدري بهم الدولة ، ولا تهتم بهم ! هؤلاء الذين يملؤون بالذهب صناديق السادة الكسالى يحتقرهم السادة ، ولا يدعون في جيوبهم قرشاً يشترون به ثوباً نظيفاً لطفلهم الذي

يتبع طفل السيد ، كأنه الكلب الجائع يسأله قطعة من (العيش) الأبيض الذي يزرعه أبوه هو ، فلا يعطيه إلا الحجر الذي يرميه به ، إنه يستنكف عن أن يمسه بيده الناعمة الرخصة البنان .

كنت أرى ذلك فيذهب بي الفكر إلى عشرات من المشاهد رأيته في قرى الشام وفيما زرت من قرى مصر .

يذهب بي الفكر إلى حوران يوم زرت رقيقاً لي كان معلماً في إحدى قرأها ، فرأيت يسكن عند الفلاح في داره المبنية من الأحجار السود المكسرات ، بعضها فوق بعض ، لا يسكنها سمكت ولا طين ، ولا يدري الساكن تحتها متى تهبط عليه فتريه قتيلاً . وفي هذه الدار غرف متعددة ، في الأولى البقر ، وفي الثانية الحمير ، وفي الثالثة الحرفان ، وفي الرابعة الفلاح وأسرته ، يعيشون كما تعيش تلك البهائم . ولقد أمسكت بأنفي لما دخلت الغرفة ... لأن الرائحة كادت تقتلني : رائحة الدواب التي تأتي من هناك ، ورائحة (الجلّة ...) التي يوقدون في وسط الغرفة ، في حفرة حفروها فيها ، لانهم لا يملكون ثمن الحطب ولا الموقد ، ولكنني صبرت وولجت متوكلاً على الله . ولما صافحني الفلاح بيده المتشققة الحشنة شعرت كأني ألمس مبرداً ، ولكنني صبرت (أيضاً) لعلمي بأن هذه اليد الحشنة هي التي تقدم إليّ الخبز الذي أعيش به ، والمال الذي آخذ منه راتبي ، وأشتري منه هذه الثياب التي أفتخر بها على الفلاح ، وأخشى أن يدنسها بيته . ثم رأيت أطفاله وأردت نفسي على مداعبتهم ، فإذا هم يحملون الأقدار على ثيابهم ، والذباب على أفواههم ، والقذى في عيونهم ، والمرض في أجسامهم ، وليس في القرية طبيب ، وليس فيها دائرة صحة ، وليس عند الفلاح مال ، وليس عنده علم . إن السادة الذين أخذوا

ماله وثمره كدّه لم يعلموه ، ولم يعطوه أجره الطيب ... ثم جاء الفلاح بالاكل
وأعقبه بالشاي ، وإني أعفي القاريء من وصف هذا الاكل وهذا الشاي ...
أخشى ان يصيبه الغثيان !

ويعود بي الفكر إلى حوران ، وقد زرت تلك القرية مرة ثانية ، وكان
ذلك في الحصاد ، يوم حق لهذا الفلاح أن يتمتع بتعبه بعد سعي موسم كامل ،
يوم نال مكافأته على هذا التعب الطويل ، والشغل المضي ، فإذا الدائنون
المرابون والجاني ، ينتظرون على باب المنزل . فلما رجع الفلاح إلى منزله هاشاً
باشاً مبتسماً ، يحمل المال الذي حصل عليه بجهد يمينه وعرق جبينه ، اعترضوا
طريقه قبل أن يصل إلى أولاده ، فأخذوا المال كله فلم يف بالذي يطلبونه
وبقي عليه للحكومة أربع وثلاثون ليرة ...

بالقانون ! يالحق الخزينة ...

يأيتها الجاني شدّ ركابك ! يأيتها الجندي اعدّ سوطك وسلاحك ! يا أيها الناس
اقموا القيامة على هذا اللص الذي اكل اموال الدولة ...

حلّ البلاء بساحة الفلاح المسكين ، ونزل عليه جنود الدرك يقيمون حتى
يؤدي المال ، يتشبهون عليه المآكل ، ولا يرضون بغير الدجاج والخرفان ،
وهم في بيوتهم لا يأكلون إلا الزيتون والجبن ، يأخذون شعيره ليطعموه
دوابهم ويضربون وجهه وظهره ... إنهم يطلبون بقية الضريبة ...

ولكن لم يبق عنده شيء .

إذن فلتبع امتعته .

ولم يجدوا عنده إلا الفراش القذر ، واللحاف الخلق ، والبساط المحرق ،
والقدر الاسود ، فباعوها بالمزاد العلني وتركوه على الارض .

ولما رجع الجبابة كلهم الى العاصمة ؛ وجمعوا ماملاً الحزاة تبسم ولي الامر ،
وقال لأعرانه :

— لقد اجتمع مال يكفي السنة كلها ، وإننا لا نستطيع أن نرد هاتيك
الوسائط كلها والشفاعات ، فأعدوا مرسوماً بإعفاء فلان بك من الضرائب
المتراكمة عليه من سبع سنين ، وهي تسعة وعشرون ألف ليرة وسبعة وخمسون
قرشاً .

أعفوه ، ولكن تسعة عشر ألف فلاح صاروا ينامون على الارض ، لم
يبق لهم فراش !

* * *

كنت أذكر ذلك وأنا أنظر الى خط الفلاحين الذين يعودون الى دورهم ،
وقد غاب أوله خلال الظلام ، فأفكر في هؤلاء الفلاحين الى متى يمشون ؟ أما
لمشاهم نهاية ؟ أما لطريقهم آخر ؟ أكتب عليهم أن يشاركوا البقر والحمير في
عملهم وطعامهم وسكناتهم ؟ أكان لزاماً عليهم أن يعملوا أبداً ليستريح ال (بك)
أو (الباشا) ؟ ويجوعوا لياكل ؟ ويفنوا جسومهم ونفوسهم ليأخذ هو الذهب
فينفقه على موائد الخمر ؟

أبقى هؤلاء الناس جاهلين ، يعيشون بمعزل عن الحياة ، يترفع الشاب
المتعلم عن الجلوس إليهم ومصافحتهم والسلام عليهم ، وإذا بعثوه ليكونوا معلماً
لهم ، أو موظفاً فيهم ، أقام الارض وأقعدتها ولم يدع وسيلة للتخلص من هذا
(النفي) إلا توسل بها ؟

إن الفلاحين في بلاد العرب ، هم جمهرة السكان ، هم حياة البلاد ، هم الشعب

فإلى متى يبقون محرومين من العلم والصحة والنظافة والإنصاف والمدنية ؟

فكروا في هذا أيها الشباب .

يا أيها الشباب الذين يعرفون القرية ومعيشتها وحالة أهلها .

يا أيها الشباب الذين يحبون بلادهم ، ويريدون صلاحها .

إن الشاب النافع هو الذي يخدم ويعمل ويدع أثراً صالحاً ، أما صاحب الجمعية والكلام الفارغ فلا ينفع أحداً ، إن ميدان القرية أحوج الميادين إلى همم الشباب ، وذكائهم ، ومعرفتهم ونشاطهم ، لا أريد أن يترك الطلاب مدارسهم ليزرعوا الأرض ، ويعيشوا في الحقل ، ولكن أريد أن يفكروا بمثل (مشروع إنعاش القرى) الذي قام به في صيف سنة ١٩٣٣ نفر من طلاب الكلية الأميركية في بيروت ، فانتخبوا من المتطوعين للعمل في القرية فريقاً بحثوا اسبوعاً في (مؤتمر) عقدوه ، ودرسوا أحوال القرية اللبنانية ، وعرفوا دواعيها ، وقشوا عن دوائها ، وكان يعاينهم بعض الاساتذة والخبراء الفنين ، ثم الفوا اربع بعثات وأرسلوها إلى القرى ، فدرست الحال عن كثب ، ورأت أن العمل في قرية واحدة يقيمون فيها الصيف كله أسهل وانفع ، وأنه يجب على أعضاء البعثة أن يحملوا خياماً يبيتون فيها ، وطعاماً لهم وشرباً ، ليخففوا عن الفلاح ولا يرزؤوه شيئاً ، وليروه لونا من الحياة جديداً ويحبوه إليه ، وكان من أهم أغراض أصحاب ذلك المشروع :

١ - الصحة ، فيكون في البعثة الصحية قسم للدرس والإحصاء والتعليم ، وقسم للتطبيب .

٢ - النظافة ، بتعليم الناس ومحاضرتهم ، والعمل على إصلاح مجاري الماء الطيب والحديث وتنظيف الطرق وتخفيف البرك .

٣ - الزراعة ، بإرشاد الفلاح إلى طرقها الجديدة ، وآلاتها الحديثة ، وأصول مكافحة الحشرات والأمراض .

٤ - تعليم الاميين من الفلاحين ، والعمل على إنشاء المدارس لأولادهم (١) .

* * *

إننا اليوم على أبواب العطلة الصيفية ، وسيبقى أكثر الطلاب في المدن ، يرتادون القهوات ، ويؤمنون السينات ، ولا ينفعون خلالها ولا ينتفعون . فهل يعمل فريق من الطلاب في كل بلد على (إنعاش القرى) على نحو ما ذكرنا ، فيكون لهم من ذلك صحة في أجسامهم ، وقوة في نفوسهم ، وخبرة ببلادهم ، وخدمة لإخوانهم ، ومأثرة باقية عند الناس وعند الله ، ونجاة من ملل الصيف وحرّه ، ويكون لهم من هذه الإقامة في القرية تحت الحيام ، وهذا التعاون مع إخوانهم على هذا العمل الصالح سعادة تمر الايام ويذهب الشباب ، ولا تمحي من النفس ذكراها ، ويكون ذلك هو الدواء الشافي لهذا الداء المثلث الذي استعصى على الاساة ، داء الفقر والجهل والضعف ؟

وهل يعمل هؤلاء الشباب على إنشاء (أدب القرية) ؟ ذلك بأن يدعوا الكتاب والشعراء الى وصف حياة القرية ، وأن يكتبوا فيها القصص ، والمباحث ويختلطوا بالفلاحين ، ويترجموا لنا آمالهم وآلامهم . وهذا اللون من ألوان الادب موجود في كل اللسنة واللغات إلا اللسان العربي ، فانه قليل فيه أو هو نادر ، وعلة ذلك احتقارنا الفلاح ، وإهمالنا شأنه ، ونسياننا أن الفلاحين ناس مثلنا ، يبذلون في سبيلنا كل شيء دون أن تصل إليهم مكافأة ، أو ينالوا ربحاً ، أو يسمعوا شكراً ؛ بل إنهم ليريدون أن ينظر إليهم الـ (بك) كما ينظر الى كلبه العزيز عليه ، الاثير لديه .
فيا هؤلاء المساكين !

(١) من اقوال الصحف يومئذ .

إن المروءة والشرف والواجب الوطني ، والمدن والإنسانية ، وكل مبدأ
مقدس يدعوكم الى مساعدة الفلاح ، يا أيها الشباب .
فيا أيها الشباب : الى القرية ... الى القرية !

* * *

لا . لست شيوعياً ، ولا اشتراكياً ، ولكني إنسان ، وإني مسلم !

★ ★ ★

في منظار الخفيف

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

لم يعلم أحد لِمَ لَمْ يكتب الصديق النبيل الاستاذ محمود الخفيف في العدد الماضي من « الرسالة » ، ولم يعلم هو من الأمر الا أنه فقد منظاره فجأة ، ثم وجده كما فقدته فجأة ، لم يدرك أين ذهب ولا كيف أتى ، ولم يعرف سرّ المسألة إلا أنا ، لأنني سرقت « المنظار » من جيبه لما زاوني في « الرسالة » في الاسبوع الماضي ، ورددته الى جيبه لما مرّ بي أمس ، وقد كان عرض عليّ أن يعيرنيه لما رأى رغبتى فيه ، ولكنني خشيت (وسوء الظن عصمة) أن يفسده أو يصنع به شيئاً يمنعني من الاستمتاع به ، كيلا أعود الى طلبه منه ، فأثرت أن آخذه على حين غفلة منه لأستعمله صحيحاً غير فاسد ، ثم إن السرقة أخت الاغتصاب ، وقد نصّ (الشاعر) على أن :

من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

والشعراء أئمة الادب ، ولا يستطيع « مقلد » مثلي مخالفة نصوص « الائمة » ؛ لذلك سرقت « المنظار » ، ولكنني لم أرَ به مثل تلك الصور الفنية الكاملة التي كان يراها الاستاذ محمود ، وإنما رأيت ... اسمعوا ماذا رأيت ..

* * *

وضعت « المنظار » على عيني، وخرجت به من الدار ، وكنت على موعد مع صديق أزور معه جامع محمد علي ، وسرت أنظر الى بعيد ، فلم أخط خطوات حتى أحسست برجة في جسدي ، وألم في ركبتي وقدمي ، وإذا أنا قد سقطت في حفرة لم أنتبه لها في هذا الطريق المليء بالحفر عند جسر الملك الصالح .

وأقبل المارة يخرجونني ويسألونني كيف وقعت ؟!

قلت : كما وقع الفلكي الذي كان ينظر في النجوم ومسالكتها ، ويدقق في حركاتها وسكناتها ، ويعمى عما تحت قدميه ، وكما (يسقط) السكاتب الذي يتسكك في الفلسفات العليا ، ويغفل عن أدواء أمته وأمراضها ، والشاعر الذي يخلق في سموات الخيال ، ويدع أمته تتمرغ في حضيض الشقاء .

وتركتهم يعجبون من هذا الكلام الذي حسبه كلام مجنون ؛ وسرت حذراً ؛ أنظر حولي كيلا ألدغ مرتين من جحر واحد ، فأكون شراً من الحمار ، لان الحمار إن سقط في حفرة مرة ، يجتنبها فلا يسقط فيها أخرى ، والإنسان (الذي يؤمن به أخونا الاستاذ) خلاف ^(١) يسقط في الحفرة الواحدة خمسين مرة ، ثم لا يجتنبها ولا يبتعد عنها .

ونظرت في « المنظار » فلم أرى ؛ إلا سوءات مكشوفة و « أوساخاً » ظاهرة ، وبلايا من هذه البلايا ؛ فكدت من غضي أكسر هذا « المنظار » المسحور الذي ينظر فيه الاستاذ محمود فيرى كل جميل وعظيم ؛ وأنظر أنا فلا أرى إلا الأوساخ والسوءات ، ورفعته عن عيني ، وأنعمت النظر ؛ فإذا الذي أراه حقيقة كنت أمر بها فلا أنتبه لها ، لتعودي عليها ، وتنهت لها الآن لما

(٢) صاحب كتاب « تؤمن بالانسان »

ركبت على عيني « المنظار » ، وهي أن الطريق الذي أسلكه كل يوم من دارى
في آخر الروضة الى جسر الملك الصالح وأحسبه نزهاً جميلاً ، قد فاض بالاقذار
من الجانبين ، فمن هنا هؤلاء الناس من الرجال : الشيب والشبان ، والأولاد :
البنات والصبيان ، والنساء أحياناً ؛ (حتى النساء !) يدعون جميعاً بيوت
الطهارة وهي أمامهم : فيها الماء ، وعليها الحارس ، وفيها الستر والنظافة ،
و « يقضون حاجاتهم » على طول « الشط » أمام الناس ، ومن هناك البنات
المصريات في آخر الشارع ، والأولاد المصريون في أوله ، يدعون جميعاً المدارس
المصرية الطاهرة النظيفة ، ويقصدون هاتين المدرستين الانكليزيتين ، يفتحون
ادمعتهم للانكليز وصنائعهم من اصحاب الاغراض والحاجات ، ليحققوا فيها
أغراضهم ، و « يقضوا حاجاتهم » ويجعلوها عشاً لكل وباء وكل مرض ، فلن
يضعف الوطنية ، ويؤذي الدين . واذا طهر الشط من أقداره الكناس ، فلن
يطهر البلد من أقدار هذه المدارس ، إلا أن تكنسها الحكومة من أرض مصر
وتلقيا وأهلها في البحر .

وركبت التوام وأنا مغيط بما رأيت محقق ، فرأيت و « المنظار » على عيني
ما سلاتني وسرّني عني ، رأيت أمامي وجهاً حلواً ، دقيق القسمة ، نظيفاً لم
تنزل ساحته الأصباغ ، ولا مسته يد التجميل ، ولكن جملة ربه ، وصبغه بصبغته
ومن أحسن من الله صبغة ؟ فيه عيان زرقاوان ، وفم متجمع مستدير ناضج
الشفقتين ، فوقه شعر أشقر ، لا هو بالطويل المسترسل ، ولا هو بالقصير المخلوق
وسوالف ليست مقطوعة كسوالف الرجال ، ولا مطلقة كسوالف النساء ، على
جسم قد غطته سراويل سابعة ، ورداء له أكام طويلة ، تبرز منها يد بضعة
ملفوفة ، ما تعرف أهى يد بنت مدلثة ، أم يد غلام مترف ، والعمر في نحو
الخامسة عشرة ، فجعلت أساءل حائراً : هل هذا شاب أم فتاة ؟ وحاولت أن

أجد علامة دالة ، أو أماره ظاهرة ، فعدمت العلامات ، وخفيت عني الامارات .
وطالت حيرتي حتى لقد هممت أن أمدي يدي فألتمس ؛ ومنعني أن أفعل أني استحييت .
وخفت العواقب ، وأن الشاب قام ، أو أن الفتاة قامت ، فنزل ، أو نزلت ،
وكل راكب في الترام يتساءل مثل تساؤلي ، وبحار مثل حيرتي !

وركب مكانها (أو مكانه) ، امرأة افرنجية كأنها من لطافتها ؛ (سيد
قشطه ^(١)) تجر وراءها ثلاثة : (ولدين) كالحنزيرين السمينين ، لا يعرف
طولها من عرضها إلا بالقياس ، (وعجيزة) مثل كيس التبن ؛ ثم جلست بين
الرجلين على طرف المقعد ، وهي تلهث كأنها قاطرة حلوان ؛ ثم اندفعت في
المقعد فضغطت الرجلين ، فأدخلت واحداً في الزاوية من هنا ، وواحداً من
هناك ، وأقعدت الحنزيرين (أي الولدين) على الركبتين ، وتنفست الصعداء
بعد هذا الجهد ، فكانت نفخة مفاجئة أطارت جريدة كانت في يد الراكب
أمامها .

وأقبل الجاني (الكمساري) وهو رجل أسمر طويل ، عبوس الوجه ،
متين البناء ، له شاربان كساريتي مراكب ، فقال لها :

- فلوس !

فمدت اليه يدها بثمانية مليات ، كأنها تمدها الى سائل ، فقال لها :

- هنا بريمو ، خمسة عشر مليا .

فرفعت اليه هذه الكرة المفلطحة التي تسمى في جغرافية جسمها (رأساً) ،
ووصعرت خدها ، ومدت سفتها ، حتى صار وجهها مثل القرعة اليابسة ، وقالت :
- أنا ما بياطي ، أنا مش آهد كويس .

(١) هو فرس البحر ، بعامية مصر ، وهو اغلظ حيوان في الدنيا .

— خمسة عشر ملياً يا مدام .

فغضبت ، وصاحت :

— اننى مسيرين ما يسير لستيف أبداً ، بيسم متوهش !

فأسرعت أنزع « المنظار » لألعن أباه ، ومن جاء بها الى مصر ، ولكني وجدت (الكهساري) قد سبقني الى هذه المكرمة ، ورأيت قد انقلبت عيناه في أم رأسه ، واصفر وجهه حتى صار كقشرة الليمونة ، وارتجفت شواربه ، ولكنه تماسك وثبت ، وصقر فوقف ^(١) الترام وقال لها :

— لو كنت رجلاً لرأيت ، ولكنك امرأة ، ونحن لانمد أيدينا الى النساء فقومى انزلى .

وأكبرت فعله ، وقمت أنهته وأصافحه ، ولولا خشونة خدّه ، وأنها لا تطيب قبلته ، لو ثبت عليه فقبلته ، وتمنيت أن يكون كل مصرى مثله ، وحمّدت للمنظار ما أرائيه ، ولكن الفرصة لم تطل ، فقد فتح الباب ودخل منه سائل ^(٢) كأنه في جسمه وفي عينيه بشار بن برد ، عليه ثياب لو أن للقذارة (جائزة) عالمية ، لنال بها الجائزة ، يعنى بصوت بخاله - والعياذ بالله - صوت ثلاثة حمير تنهق معاً ، على نعمة (الجازبند) نهيقاً مقلوباً ، كأنه صراخ الجن في الأودية المسحورة ، أو نواح المرّدة في قعر الجحيم ، أو هو شيء افطع من ذلك كله : هو الغناء الافرنجي ! وهو ينشد شعراً لا تفهم له وزناً ولا قافية ولا معنى ولا تجد فيه طرباً ولا متعة ولا لذة ، فكأنه شعر بشر فارس .

فلما اقترب مني لم أجد أحسن من الفرار ، فنزلت من الترام عند الشارع الذي كان اسمه أيام الاحتلال « شارع مستشفى اللاذقي كرومر » ، وكنت

(١) وقفه ولا يقال أوقفه .

(٢) ولا يتلو الترام في مصر لحظة من سائل .

انا المصري الأصل ، الدمشقي المولد والبلد ، أنألم وأقول ماذا يكون لهذه التسمية من ألم في نفوس المصريين أصلاً ومولداً وبلداً ، وهي تذكرهم بأعدى عدو لهم ، وتمنّ عليهم بمستشفى أنشأته زوجته ببعض ما سرقت من مال مصر ، مع ما أصيبت به مصر على يد زوجها وقومه ، من ذهاب الأنفس والاموال ، ومن ضياع الحرية وهي أغز على الأبي من النفس والمال ، وأنا أؤثر أن اموت في العراق (إن لم يكن الا هذا المستشفى) ، على أن اسقى فيه ، لأن شفاء أجسامنا فيه ، يمرض وطنيتنا ، بحجة هذه (اللادي) وذكرها بالخير ، وعرفان الجليل لها . فلما تتيهت مصر ، وذهبت تخطب أهل الارض من فوق منبر مجلس الامن ، تعرفهم ظلم الانكليز إياها ، وعدوانهم عليها ، رفع الشباب هذه اللوحة ووضعوا مكانها لوحة سموه فيها « شارع دنشواي » ، وأشهد لقد كانت تسمية عبقرية ، وكان ردّاً بارعاً ، وكان جواباً لا يصدر الا عن إلهام .

ووجهت « المنظار » الى هذه اللوحة الجديدة ، أمتع بها روحي ، وأنعش نفسي ، فلم أجدها ، ووجدت اللوحة القديمة قد جددت ، فمسحت « المنظار » ونظرت فلم أر غيرها ، فرفعته عن عيني ونظرت ، فإذا أنا أجد اللوحة القديمة قد جددت حقاً .

لماذا ؟ هل عادت أيام الاحتلال ؟!

ورفعت « المنظار » عن عيني لثلاث أسقط في حفرة ، أو أضدم أحداً ، حتى دخلنا المسجد ، فقلت اضعه لحظة ، على أرى في المسجد ما يسر ويفرح بعد تلك الحزنات ، وكانت الصلاة قد اقتربت ، والمسجد لبعده ، ولازدحام المساجد من حوله ، كأنه خالٍ فما فيه إلا أربعة صفوف ، ونظرت فرأيت ثلاث فتيات سوافر كسائر نساء مصر ، شعرهن يموج على اكتافهن ، وأذرعهن بارزات كلها من الكم الياباني (الجابونيز) الذي يبدى ما تحت الإبط لكل ذي عنين ،

والسيقان مكشوفات لا جوارب تصعد لسترها ، ولا ثوب ينزل لتغطيتها ،
ومعهم أمهات ترتدي هذه الملاة ذات البرقع الذي لا يستر على الوجه الا
مداخل النفس من الأنف فقط ، ويظهر الباقي كله ؛ وأسرعت الأم وبناتها الى
حوض الماء يتوضآن ، ويمددن أرجلهن لغسلها ، فلا يبقى مستوراً إلا ... الذي
لم يكشف ^(١) ... ثم يقفن هكذا للصلاة ... وفي المسجد مشايخ ، وأوهن فلم
يكلمهن أحد منهم ، والخطيب رآهن فلم يعرض لهن ، فنزعت « المنظار »
وأنغمضت عيني ، وحاولت أن أنساهن وأتوجه الى الصلاة ، فلم استطع ، لأن
صورتهم لا تزال (أقول الحق) أمام عيني . فاذا كن يلحقنا حتى الى المسجد
فكيف نفرُّ يا قوم منهن ؟ وكيف يصنع الشاب العزب ليمتقي إغراءهن ؟
ألم يخطر على بال أحد من العلماء والآباء ، هذا السؤال !

ورجعنا و « المنظار » على عيني ، ولكنه أخذ يكذب ويشوّه الحقائق ،
فيريني خياماً من القماش في أول شارع الخديوي اسماعيل ، وعليها لوحة تقول :
إن هذه الخيام (إدارة تنظيم عمارة المدن) .

فأقول : ينظمون عمارة المدن ، ولا يستطيعون عمارة حجرتين من اللبن
والخشب ؟ هذا لا يمكن ؛ وأهم بطرح المنظار ، ثم أذكر أن هذا يمكن جداً
في الشرق !

أليس يأمر الناس بالتقوى من ليس تقياً ، ويدرس البلاغة من ليس بليغاً ،
ويقود الأمة من يحتاج الى من يقوده ، يعطي الاشياء فاقدتها ، ويولي الامور
غير أهلها ؟!

وتابع « المنظار » الكذب ، حتى اذا وصل الى دار المفوضية السورية ،

(١) اقسم اني رأيت ذلك بعيني لم تخيله تخيلاً !

وهي أفخم من زميلتها الأمريكية والروسية ! زاغ « المنظار » عن كل ما في الدار واستقر على « عقد الأيجار » ، فأراني فيه رقم (٣٠٠) جنيه في الشهر ، ثم ذهب بي الى دمشق ؛ فبصّرني بآلاف التلاميذ يزدهجون كل سنة على أبواب المدارس ؛ ثم يرتدون عنها لأنها لا تتسع لهم ، وليس عند الوزارة ما تستأجر به دوراً جديدة ، لأن اجرة الدار (١٥٠) جنيهاً في السنة ! ثم دار بي على المفوضيات السورية في آفاق الارض ليريبي ...

ولكنني أغمضت عيني فلم أنظر ، لأن هذا كذب ظاهر ، ونحن أعقل من أن نؤثر المظاهر على الجواهر ، والتراويق على الحقائق ، والخارجية على المعارف وثوب العرس على العروس ! ونحن أعقل من أن نشترى (كرافقة) بخمسة جنيهات ، ونمشي بلا سراويل !

* * *

وصحت بالاستاذ محمود الحفيف ، أن تعال خذ « منظارك » يا استاذ محمود حسب ما رأيت !

★ ★ ★

دفع عن الأدب

نشرت في سنة ١٩٤٥

لقد كانت معركة (عين جالوت) أجل خطراً ، وأعظم أثراً ، وأبرك على الحضارة ، وأجدى على الإنسانية ، من موقعة (الحدث) ، ولكنها لم نجد الشاعر العبقري الذي ينهض بها ، ويرفعها بيمينه يلوح بها في طريق التاريخ ، ليراها الناس أبداً ، أمة بعد أمة ، وجيلاً عقب جيل ، كما صنع المتنبي بموقعة (الحدث) حين فتح لها في الشعر فتحاً لم يفتح مثله (سيف الدولة) في بلاد الروم ، وبني لها في الأدب قلعة باقية ، على حين قد خرب الدهر تلك القلعة التي بناها سيف الدولة ، فكان من معجزات الشعر (وإن في الشعر لإعجازاً) أن خلدت هذه الموقعة ، وجلت وملأت الأسماع والأفواه والقلوب ، ونسيت مواقع أعظم منها ، ولولا قصيدة ابن الحسين ما عرفت طريق الخلود .

ولقد كان فتح عمورية عظيماً في الفتوح ، ولكن فتح خيبر في بائته أعظم منه . ومن قبل خلدت بلاغة هوميروس بطولة القوم في طروادة ، ولولاه لاضاعت في ظلام ما قبل التاريخ . وإني لأكرم القراء أن أسيء بهم ظني فأرى بهم حاجة إلى سرد الأمثلة ، وإقامة البينات ، على أمر ما بهم جهله ولا

نكرائه ، فلولاً الأدب ما خلدت المكرمات ، ولا ذكرت البطولات . ورب
قصيدة تجيش بها نفس شاعر منكر مجهول ، قد شغل الناس عنه سناء الأمير
ورواؤه ، أبقى على الدهر من هذا السناء وهذا الرواء . وربما جاء زمان نسى
الناس فيه الأمير نفسه ، فغاص في هذا النهر البشري الذي يجري أبداً من المهد
إلى اللحد ، يولد أهله ويعيشون ويموتون ولا يدري بهم أحد ولا يذكرهم إنسان
ولم يمسه من الخلود إلا النفخة التي ينفخه بها الشاعر .

هذا حق لا يجبهه أحد إلا ذوو السلطان منا ، وكانوا هم أولى بمعرفته
والاستفادة منه ، والأحداث تدعوهم إلى ذلك ولكنهم لا يجيبون . وها هو ذا
حادث العدوان ^(١) ، أحبوا أن يدونوا تاريخه ، ويعرضوا صورته ، ويعرفوا به
البعيد النائي ، ويذكروا به القريب الرائي ، فأجمعوا أمرهم على إخراج (الكتاب
الأسود) في وصف هذا الحادث ، وسموا له رجالاً ، طيبين بمنازين ، غير أنهم
ليسوا من ذوي الأقلام ، ولا من الأدباء ، وإن في دمشق (لو كانوا يعلمون)
أقلاماً حداداً ، إذا انتضتها الحكومة قطعت بها وقدرت وفرت ، فإلام تدخر
هذه الأقلام إن لم تستل في هذا اليوم الأسود ؟ ومن يعرض على الدنيا كلها
حديث (الحادث) إذا أهملت هذه الأقلام ، ونسيت وتركت تصداً في
أعمادها ؟ أيعرضه صحفي بمقالة تعيش ما عاش (العدد) الذي تنشر فيه ، أم
موظف بتقرير أسلوبه لعنة للبلاغة في عليائها ؟

ثم استلمنا الجليش وعرضه رئيسنا فكان يوماً أغر بحجلًا في عمر الشام ، فمن
يمسك هذا اليوم ألا هو في وادي النسيان ؟ من يحفظ له جلاله وجماله وعظمته
غير الأدباء ؟ فما لأولي الأمر دعواه كل قاص ودان إلا أهل الأدب الحق ؟

« ١ » العدوان الفرنسي المعروف

أهل البلاغة ، ما دعوهم ولا سألوا عن مكانهم ولا ذكروهم ، ولو دعوا أديباً لصنع لهم بمقالة واحدة شيئاً يبقى إذا ذهب كل هذا الذي أعده .

وفي كل يوم تنبت أقلام غضة فلا يتعهدا أحد بسقى ولا رعاية فتجف وتموت . ونحطم عواصف الأيام وأرزاؤها أقلاماً متينة كأشجار السديان طالما أظلت وبسقت فلا يبكي عليها أحد . وتزهر أقلام ثم توذي أكلها ثمراً ناضجاً حلواً نافعاً فلا يستبشر بها أحد ، ويقولون بعد ذلك : لماذا لا ينتج الادباء ؟ لماذا لا يخلدون أيام الوطن ؟ يا ويحكم ! إننا والله لا نعرف أيام الوطن الا على السماع والفضل لنا إذا استطعنا أن نكتب عنها سطرأ واحداً .

لقد أردت أن أدخل القلعة غداة يوم الحادث ، وأن أجول خلال الحرائق وألج البرلمان ، فمنعني جنود لا يعرفونني ولا يفهمون عني بلساني ، ولو تركت ألج ورأيت بعيني ما وصفته على السماع لكتبت لكم شيئاً يبكي المحب ساعة الوصال ، والعروس ليلة الزفاف ، ويرقق قلب الموتور يوم الانتقام ولو أشهدت هذا العرض لكتبت لكم قصيدة مجد تكون للأعصاب ناراً تشعلها حماسة ، وللقلوب خمرأ تميلها طرباً ، ولهذا الجيش جيشاً آخر . ولو أحضرت حفلة رفع العلم على الثكنة الحميدية لكتبت غير ما كان نشر في الرسالة (١) ، لأن الذي يتخيل ويكتب بارد الدم هادي الأعصاب ، غير الذي تمشي الكهرباء في أعصابه فتزهاهزاً ، فيمسك قلمه ويدع روحه تملي عليه .

ولست - علم الله - أريد مالا من أولى الامر أو عطاء ، ولا أبتغي من مجالسهم شرفاً ، فعندي من المال ما يسد حاجتي ، ومن الشرف ما يكفيني ، وإنما آسف على قوة في ، وفي أمثالي من حملة الأقلام ، تذهب هدرأ ، وتضمحل

(١) بعنوان « دموع ودموع » العدد ٦٣٤ .

والوطن يحتاج اليها ، وهي تستطيع أن تكسبه مجدآ لا ينال بغيرها .

* * *

فيا أيها الحاكمون ! اذكروا أنكم تحتاجون الى الادباء ليكتبوكم الخلود
وليفيضوا على أجدادكم الحياة ، أما هم فلا يحتاجون اليكم ، لأنهم يستطيعون أن يخلقوا
بأديهم ملوكا وأبطالاً ، وينشؤوا عالماً ، وقيموا لأنفسهم وللناس دنيا ، إن
تكن من الوهم ، فرب وهم أفعل في نفس صاحبه من الحقيقة ، وأثبت من
الواقع . ورب شخص (روائي) خرج من خيال أديب ، أحيا حياة ، وأظهر
وجوداً من اشخاص اللحم والدم ، أسمعتم بعطيل ودون جوان وآرباجون ؟
والخارث بن همام وعيسى بن هشام .

وبعد فهذا دفاع عن الادب ، لا عن الادباء ، فاقبلوه أو لا تقبلوه ، إنما
علينا أن نقول ، وقد قلنا .

* * *

الى علماء الازهر

نشرت في مصر سنة ١٩٤٧

ما عرفنا من عرفنا من علماء الازهر الا ملوكا، لا أمر فوق أمرهم، ولا كلمة بعد كلمتهم، إذا قال واحد من لبت الأمة، وإذا دعا هب الشعب، وإذا أنكر على الحكومة منكر أزال الحكومة المنكر، وإذا أمرها بمعروف أطاعت بالمعروف، فكانوا هم السادة وهم القادة، وهم أولو الأمر: هذي حكومة مصطفى فهمي باشا تستجيب سنة ١٨٩٩ لرغبة الانكليز في إضعاف القضاء الشرعي، فتضع مشروعاتها المشهور، لتعديل اللائحة الشرعية، وضم اثنين من أعضاء الاستئناف الأهلي الى المحكمة الشرعية العليا، ويبلغ من ثقها بقوتها، وتأيد مجلس الشورى لها أن لا تبالي باحتجاج الحكومة العثمانية على المشروع، وتعرضه على المجلس، وكان من أعضائه الشيخ حسونة النواوي (الذي جمعت له مشيخة الازهر وفتوى الديار المصرية) فيقول كلمة موجزة في إنكار المشروع، وينسحب من المجلس ويتبعه القاضي التركي، فتكون هذه الكلمة كافية لقتل المشروع، فيردّه المجلس كله، وتحاول الحكومة إنقاذه على رغمه فلا تجد عضواً استثنائياً واحداً يقبل الانضمام الى المحكمة العليا، عرضت ذلك على الشيخ محمد عبده وكان من أعضاء الاستئناف الأهلي وسعد زغلول

وأحمد عفيفي ويوسف شوقي ويحيى إبراهيم . فأبوا جميعاً . وتمشي كلمة الشيخ
في الناس مشي النار في يابس الحطب ، فتهبّ الأمة كلها وتؤيده حتى ترضى
الحكومة بالهزيمة وتسترد مشروعها ^(١) .

ولم يكونوا يخشون في الحق لومة لائم ، ولا يخافون غضبة ملك جبار :
هذا حسين باشا الجزائري ، يصل مصر فيقر منه أمراؤها الى الوجه القبلي ،
فيأخذ أموالهم كلها ولا يرضيه في عتوه وجبروته أن يستولى على عروضهم حتى
يسطو على أعراضهم ، فيقبض على نسائهم وأولادهم ، ويسوقهم الى السوق
ليبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، وكانت الاحكام عرفية ، وسيوف الظلم
مصلته ، ولواء البغي مرفوعاً ، ولكن ذلك لم يمنع علماء الازهر من إنكار هذا
المنكر ، ولم يرهبوا بطش الباشا وهم يرون أن أفضل الشهداء رجل قال كلمة
حق عند إمام جائر فقتله بها ، فمضوا اليه وتكلم الشيخ محمد أبو الانوار فقال
له : « أنت أتيت الى هذه البلدة وأرسلت السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم
كما تقول ، أو لبيع الاحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ » فقال : « هؤلاء
أرقاء لبيت المال » . قال : « هذا لا يجوز ولم يقل به أحد » فغضب أشد الغضب
وطلب كاتب ديوانه ، وقال : « اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم
لأوامره » فقال له الشيخ محمود البنوفري : « اكتب ما تريد بل نحن نكتب
أسماءنا بخطنا ^(٢) » ، وكانت النصرة لهم عليه ، فأحقوا الحق وأبطلوا الباطل ،
 ووضع الله في قلبه هيبتهم ، لأن من خاف الله خافه كل شيء . فكانوا بذلك
(أجل من الملوك جلالة ^(٣)) ، وكانت إشارتهم للحكام أمراً ، وطاعتهم عليهم

(١) عن كتاب الاستاذ محمد فرج السنهوري .

(٢) القصة في الجبرتي ٣-٢٠١

(٣) شوقي .

فرضاً ، حدث الشيخ محمد سليمان ^(١) أن أباه قدم لطلب العلم في الأزهر ،
أو آخر أيام الشيخ إبراهيم البيجوري ، فشكا إليه ظلم تلك الأيام ، وما كان فيها
من السخرة والمعونة فكتب له ورقة بمساحة إصبعين هذا نص ما كان فيها :
« ولدنا مدير الدقهلية . رافعه من طلبه العلم يجب إكرامه خادماً العلم والفقراء
الخاتم (إبراهيم البيجوري) » فدفعها إلى المدير ، فقبلها ووضعها على رأسه ،
ودفعت عنه هذه الورقة كل مظلمة ، وأنالته كل مكرومة ، ورفعت قدره عند
المدير وعند الناس .

وكان الشيخ الأزهرى موقراً في الجامع وفي البيت وفي السوق ، ومبجلاً
عند الطلبة والعامة والحكام ، وكان أقصى أمل الطالب أن يخدم الشيخ وأن
يحمل له نعله ، وإذا سبه عدّ سبه إكراماً ، وتحمله مسروراً ، ورآه من
أسباب الفتوح .

وكان الطالب الأزهرى المجاور ، يذهب إلى بلده في العيد أو في الإجازة ،
فيقبل البلد كله عليه يقبل يده ، ويتبرك به ، ويشم فيه عبق الأزهر ،
ويكون المرجع لأهله في الجليل من شؤونهم والحقير ، ويكون فقيهم والحاكم
بينهم ، لا مردّ لحكمه ولا اعتراض عليه ، لأنه يحكم بشرع الله ، ويبين حكمه
في فتواه .

هذا ما عرفناه . فما الذي جرى حتى تبدلت الحال ، ووقع حادث الشيخ
أبي العيون ^(٢) ؟

ما الذي نزع هيبة المشايخ من القلوب وأنزلهم من مكانتهم عند الحكام ؟
أقول ؟ أنتم أيها الأزهريون فعلتم هذا كله ! أنتم تنكبتم سبيل أسلافكم ،

(١) في كتابه الجليل « من أخلاق العلماء » .

(٢) وهو حادث مشهور كان هو سبب كتابة هذا الفصل في الرسالة .

فما الشيخ اليوم شيخ مسلّك ولكنه موظف محاضر ، وما التلميذ مريد طيع ولكنه مشاكس مشاغب ، وما يطلب علماً ولكن يبتغي شهادة . أنتم ثرتم على مشايخكم وعلمتم الناس الثورة عليهم . أنتم أيها الطلاب . أنتم مددتم أيديكم الى مدرسيكم ، فجزأتم هؤلاء أن يمدوا أيديهم الى أبي العيوت . أنتم اطلقتم ألسنتكم فيهم فشجعتهم هذه الصحف أن تتناول حزبية الى الكلام على شيخ الازهر . أنتم أيها الازهريون جميعاً جعلتموها جامعة فكان فيها ما يكون في الجامعات ، وقد كانت جامعاً لا يكون فيه إلا ما يكون في الجامع . لقد كان الازهر لله فصار للناس ، وكان للآخرة فعدا للدنيا ، وكان يحييه الطالب يبتغي العلم وحده ، يتبلغ بحزب الجراية ، وينام على حصير الرواق ، ويقرأ على سراج الزيت ، ولكنه لا ينقطع عن الدرس والتحصيل من مطلع الفجر الى ما بعد العشاء ، ينتقل من شيخ الى شيخ ، ففي كل ساعة درس ، ولكل درس كتاب ، ولكل كتاب ساعة للتحضير والمراجعة ، لا يدع الدرس الا للصلاة في المسجد صلاة خشوع وتبتل ، أو للأكل فيه أكل قناعة وتقشف ، أو لشرب العرقسوس أو الحرنوب . هذه ملذاتهم من دنياهم ، لا يخرجون من المسجد الا عصر الخميس ، يؤمون الرياض والحياض ، للاستحمام والاستجمام ، لا يأملون من العلم مالا وقد كان أقصى مرتب الشيخ الازهري الى عهد قريب ثلاثة جنيهات في الشهر ، ولا يبلغها الا نفر قليل ، فراضوا نفوسهم على القناعة ، وعودوها الصبر وألزموها الرضا . هذا المرصفي يحدث عنه الاستاذ محمود حسن زناقي أنه كان في دار بالية في حي قديم وقد جلس على حصير ألقى عليه كتبه وأوراقه ، ومن حوله خيط من عسل القصب مرشوش على البلاط يدرأ عنه هجوم البق ^(١) لم يمنعه هذا الحصر الخلق في هذه الدار البالية من أن يشرح عليه السكامل . وأورثهم هذا الفقر عزة في نفوسهم : أورثهم كبر العلم ، وكل كبر

مذموم إلا كبر العلم ، فلم يكونوا يحفلون أحداً من أبناء الدنيا ، لأنهم لم يتذوقوا لذتها حتى يداجوا فيها ، ولم يميلوا اليها حتى يتزلفوا اليهم من أجلها . كسروا قيودها وتخلصوا من رقها ، وهانت عليهم وهان أهلها . هذا هو اللورد كرومر ، وما أدراك ما اللورد كرومر ؟! يدخل على الشيخ محمد الأنباري شيخ الازهر ، ويسلم عليه ؛ فيرد الشيخ التحية وهو قاعد ، فيعظم اللورد قعوده ويقعد الى جنبه فيقول له مغضباً : « يا سيدنا الشيخ ألسنت تقوم للخدو؟ » قال : « نعم » . قال : « فلم لم تقم لي ؟ » قال : « إن الخديو ولي الأمر وأما أنت فلست منا » . فيزيد ذلك اللورد إجلالا له ، ويكتبه في أحد تقريراته حكومته ^(١) .

وهذا هو رياض باشا وكان رئيس الحكومة وناظر المالية يزور مدرسة دار العلوم ، وكان الشيخ حسن الطويل مدرساً فيها ، فلا يسلم الرئيس ويدخل حتى يبتدره الشيخ من آخر القاعة ، فيقول له : « يا باشا أما آن لكم أن تجعلوني معكم ناظرأ ؟ » . فيدهش الباشا ويقول : « ما هذا يا شيخ حسن ؟ » فيقول : « ما تسمع يا باشا ؟ » قال : « فأني نظارة تريد ؟ » قال : « المالية » قال : « لماذا ؟ » قال : « لأستبيح أموالها ! » ^(٢) فذعر الباشا وخرج يرتجف ، وقال لعلي مبارك باشا ناظر المعارف : « لا بد أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة » قال : « كيف ؟ وماذا أصنع مع علماء الارض ، وهو عالم عالمي ؟ » ^(٣) .

كذلك كانوا . زهدوا في الدنيا فجاءتهم الدنيا ، وأعرضوا عنها فأقبلت

(١) من اخلاق العلماء .

(٢) تعريفاً برياض باشا .

(٣) من اخلاق العلماء .

عليهم ، وهابوا الله فهابهم الناس ، فكيف حالكم اليوم يا إخواننا الأزهريين ؟

* * *

يا إخواننا ، إن هذا الأزهر المعمور ، لبث خمسمائة سنة من عمره ، وهو منار العلم المفرد في الدنيا لولاه لتاهت في ظلمات الجهل ، وهو حارس الدين واللغة ، فأدر كوه لا ينطفئ المنار ، ويهجع الحارس ، وتترك الدنيا للظلام والاصوص .

يا إخواننا ، ما عاش الأزهر ولا عز بالعلم وحده ، وما العلم بلا عمل ؟ ولكن عز بالتقوى والعمل الخلق المتين . لقد كانت لعلماء الأزهر أخلاق لا أقول ضاعت ولكن اختفت عن الناس تلك الأخلاق ، كانوا يجثون مشايخهم فيجعلهم الناس كاهم . هذا هو الشيخ الباجوري شيخ الجامع كان يجلس بعد المغرب في الصحن فيقبل عليه العلماء والطلبة يقبلون يده ، وكان الشيخ مصطفى المبلط وهو أكبر منه ، ناظره في طلب المشيخة ولم ينلها ، يندس فيهم ويقبل يد الشيخ ، فانتبه اليه مرة فأمسك به وبكى وقال : « حتى أنت يا شيخ مصطفى ؟ لا . لا » فقال الشيخ مصطفى : « نعم . وأنا ! لقد خصك الله بفضل وجب أن نقره . وصرت شيخنا فعلمنا أن نوقرك »^(١) ، وكانوا يقدمون العلم على المنصب ، ويعرفون لأهله حقهم . هذا هو الشيخ الشربيني شيخ الجامع الأزهر يدخل مع الطلبة على الشيخ الاشموني حتى يلثم يده . وكان الاشموني ربما قال له : « إزيك يا عبد الرحمن ؟ » فيكون الشيخ كأنما حيته من فرحته بذلك الملائكة^(٢) ، ولم يكونوا يدعون للعدو ثغرة يدخل منها اليهم ، ويجعلون خلافهم إذا اختلفوا ، بينهم . هذا هو الشيخ الأمير كانت بينه وبين الشيخ القويسني جفوة بلغت الحاكم ، وزاره الأمير

« ١ » من أخلاق العلماء .

فسأله عنها ، وأوممه أن القويسي أخبره بها وكان يريد معرفة حقيقتها ليزيلها .
فقال الشيخ الامير : « ليس بيننا إلا الخير ، وما أظن الشيخ القويسي حدثك
بشيء من هذا » وأثنى عليه ومدحه ونزل من عند الحاكم فمر به على ما كان بينهما
وأنبأه بما كان ، فقال القويسي : « صدقت في ظنك ما قلت للحاكم شيئاً » قال
الشيخ الامير : « هكذا أهل العلم يسوون أمورهم بينهم ، أما مظهرهم فيجب
أن يكون قدوة في التألف وإمساكاً على عروة الاسلام ، وحفظاً لكرامة العلم
وزال بذلك ما كان بينها ^(١) » .

* * *

فيا إخواننا الازهرين ، سألتكم بالله ، ارجعوا بالازهر الى سبيله التي درج
عليها . أعيدوه سنته الاولى . أفيضوا عليه الدين والتقوى . والتقوى روح العلم ،
فإن فارقه كان جسماً بلا روح . أحيوا فيه أخلاق الاسلاف ليكون لكم تقاهم
وزهدهم ، فتكون لكم عزتهم ومكانتهم . يا إخواننا ، لم نجد والله خيراً في
الجامعة الازهرية ، فردوا علينا الجامع الازهر !

« ١ » من اخلاق العلماء .

للأمانة

نشرت سنة ١٩٤٦

جعل النبي ﷺ للمنافق آية يعرف بها بين الناس ، ومن آياته أنه اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أوتمن خان . وهذه الثلاث (الصدق والوفاء والأمانة) أركان الحياة الخلقية الاجتماعية ، وقد تضافرت الآثار على ذم الكذب وأهله ، ومدح الصدق وأهله ، وبيان خطر الامانة وأنها عرضت على السموات والارض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وهنّ كنّ أقوى عليها ، وحملها على ضعفه الانسان ؛ وان المسلم ربما ألمّ ببعض الذنوب ولكنه لا يكذب أبداً كما جاء في الحديث .

ثم إنك مع ذلك كله تجد المنتسبين الى الاسلام اليوم ، من أرباب الصناعات وأهل السوق ، أكذب لهجة ، وأخلف وعداً ، وأضيع لأمانة من كثير ممن ليسوا مسلمين ، حتى صار المثل يضرب بالوعد الشرقي في خلفه وإضاعته والتأخر عنه ، وصار من يريد أن يؤكد وعداً يصفه بأنه (وعد أوروبي) !

اللهم إن هذا لمن العجب العجيب !!

* * *

إن الله بيّن خطر الامانة ، وانزلها هذه المنزلة ، وخوف من حملها لانها
 جماع الاخلاق ، وسلوكه ^(١) عقد الفضائل ، وعمادها ، فما من شعبة من شعب
 الاخلاق والخير الاجتماعي الا اليها مردّها ، وما خصلة من خصال الشر إلا
 والحيانة أساسها وحقيقتها ، وليست الامانة هي أن تحفظ الوديعة حتى تؤديها الى
 اصحابها (فقط) ، فان هذه صورة من صورها ، وشكل من اشكالها ، وإن
 السلطان في يد الموظف أمانة ، فان وضعه في غير موضعه ، أو اتخذه وسيلة
 الى جلب منفعة له أو لأسرته أو لاصحابه فقد خان أمانته ، والدرجات أمانة في
 في يد الاستاذ الممتحن يوم الامتحان ، فان أعطى منها واحدة لغير مستحقها
 أو منع واحدة من يستحقها أو راعى في منحها شفاعاة أو صداقة أو بغضاً أو
 مودة فقد خان أمانته ، والقدرة على الحكم أمانة في يد القاضي فان زاغ عن
 الحق شعرة فقد خان ، والعمل أمانة في يد الاجير المستنصع ، فان قصر في
 تجويده أو افسد فيه شيئاً ولو كان الفساد خفياً لا يظهر فقد خان ، واعتقاد
 الناس بك الصلاح والتقى أمانة في يدك ، فان اتخذت هذا الاعتقاد سبباً الى
 جمع المال ، وعملت من لحيتك العريضة وعمامتك المنيفة شبكة لاصطياد الدنيا ،
 أو كتمت الحق ابتغاء الحظوة عند العامة أو الزلفى الى الحاكم فهي خيانة ،
 الى غير ذلك من الصور والاشكال .

بل إنك اذا دقت وتلطفت وجدت هذه الجوارح التي أعطاها الله أمانة
 في يدك ، فإذا نظرت بعينيك الى حرام أو حرمت به لسانك أو خطوت
 اليه برجلك ، أو مددت اليه يدك ، فقد خنت أمانتك ، بل إن عمرك كله
 أمانة لديك ، فلا تنفق ساعة منه الا فيما يرضى (صاحب الأمانة) !

« ١ » السلوك الخيط وجمعها سلك واسلاك .

فأين المسلمون اليوم من هذا ؟

لقد رأيت من قلة الامانة ، عند الصناع والتجار والعلماء والجهلاء ومن يظنّ به المغفلون الولاية ويرونه قطب الوقت ^(١) مالا ينتهي حديثه ولا العجب منه ، وما خوفني الناس أن اعاملهم ، حتى جعلني أحمل هما كالجبل ثقلاً كلما عرضت لي حاجة لا بد فيها من معاملة الناس ، ولا والله لا أتألم من اللص يتسور على الجدار ويسرق الدار ، كما أتألم من الرجل يظهر لي المودة ويعلن التقى ، فإذا كانت بيني وبينه معاملة ، وتمكن مني أكلني بغير ملح وتعرق عظامي !

تذهب الى الحياط الحاذق الذي ألفته وألفك واستمرت على معاملته عمرك والحياط من شرور المدنية لا يستغنى اليوم عنه ، وقد انقضى زمان كان الرجل فيه يخطط لنفسه أو يخطط له أهله ، وكان الثوب يتخذ فيه لمجرد الستر والدفع ، ولم يبق لك منجى ان تؤم الحياط تحمل اليه (الجوخ) الثمين ، وتسأله أن يضرب موعداً لا يخلفه ينجز لك فيه ثوبك الذي تريده للعيد أو الزفاف أو للسفر ، ولكل واحد من أولئك وقت لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فالعيد لا ينسأ لك في أيامه ، والزفاف ان اعلنته لا يؤجل ، فيعدك ويؤكد الوعد ، فاذا جئت في اليوم الموعد وجدته لم يمس بعد قماشك ، فاذا زجرته أو أنبته أخذك باللين وراغ منك وحلف لك مائة بين غموس أنه نسي أو مرض ، أو أنه لم يعدك في هذا اليوم ولكن كان (سوء تفاهم) ، وأنك راجع في يوم كذا فراجع ثوبك معداً ، وتعود ويعود الى كذبه ، حتى يمضي العيد أو الزفاف ولا يبقى للثوب فائدة ، وربما جعله قصيراً أو ضيقاً أو (معتلاً) أو (مضاعفاً)

«١» حكاية القطب والاولاد لا أصل لها في نقل ولا عقل ، ولم يرو في ذلك الا حديث ضعيف في « الابدال » لا يثبت بثله حكم ، وهي من بقايا الوثنية الاولى .

او (مجوفا) ... او على خلاف ما استصنعت عليه ولا حيلة لك فيه ، ولا
سبيل الى اصلاح ما فسد ، فتلبسه مكرهاً او تلقيه في دارك حتى تأكله (العثة)
والأرّخة .

وهذه الحال من اخلاف المواعيد ، واختلاق الاكاذيب ، عامة في ارباب
الصناعات في بلادنا لم ينبج منها الا الأقل الأقل من عصم ربك . ولقد وقع لي
أني كنت على جناح سفر الى العراق ، وقد أعددت له كل شيء ، واتخذت له
مكثاً في السيارة ولم يبق الا يوم واحد فخطر لي أن ابعث الى الكواء^(١) بجلي
الجديدة لكيها حتى اذا نزلت بغداد لبستها صالحة ، ويمننت له استعجالي ونفقت
اليه قصة حالي ، ونهيتة أشد النهي عن غسلها ، لأنه يفسدها ويؤخرني عن غايتي
فما كان منه الا ان غسلها ، طمعاً بفضل اجرة ينالها ، فأفسدها وجعلني اسافر
وأدعها .

وآخر من الكوائن غسل معظفي بصابون له مثل رائحة الخنازير الوحشية ؛
فلم استطع لبسه وحملته اليه ووبخته ، فما كان منه الا ان أنكر ان يكون له تلك
الرائحة (وإنما لتشم من مسافة فرسخ) ، وقلت : شتمها أليس لك أنف ؟ فشمها بمثل
خرطوم فيل . وقال : ما بها شيء ! فكدت أنشق من غيظي وقلت للجماة
عنده : شموا بالله عليكم . فدوا أنوفهم اليها وعيونهم اليه ، وقالوا بلسان واحد
مثل مقالته ؛ فاضطرت الى ان اخرج فأدفع الثوب الى فقير وإني لفقير الى مثله !
واحتجت مرة الى عامل يصلح لي طائفة من المقاعد ، استقبل عليها ضيفي
واكرم بها زواري ، وهي وحدها التي أخشى اللصوص عليها ، لأنها خير ما في
الدار ، حاشا الكتب ، فدلوني على رجل له دكان ظاهر في شارع كبير ،
وفوقه لوحة كتب عليها اسمه وصناعته ووصف براعته وأمانته ، فأنست به

« ١ » أي المكوجي .

وكان كهلا مشقشق اللسان ، وأخذته فأريته المقاعد واستأجرته لإصلاحها ،
ودفعت اليه أكثر الاجرة مقدماً ، وتركته ووكلت أخاً لي صغيراً به ،
وذهبت الى عملي لم أرجع الا المساء ، فوجدت الرجل قد بيع بطون الكراسي
واخرج احشائها وكسر عظامها وأرجلها ، ولم يقدر على اعادتها سيرتها الاولى
لأنه جاهل بالصناعة ، فهرب وذهبت أفتش عنه حتى قبضت عليه ، وأعدته الى
الدار ، فاجتهد جهده ، فكانت غاية ما استطاعه أنه جعل من مقاعدي المريحة
آلات التعذيب ، ومقاعد الأذى ، إن لم يشق ثوب القاعد عليه مسمار ظاهر
منها ، ثقت ظهره خشبة بارزة ، أو كان يجلسه على أحد من شوك القتاد ،
وقبض الاجرة كاملة غير منقوصة .

ولو شئت او لو شاء القراء لسردت ثلاثين واقعة ، ما هذا الذي ذكرت
بأشد منها ولا اعجب ، فأين تقع الامانة من نفوس هؤلاء الذين يدعون انهم
من المسلمين .

* * *

وكيف اصنع اذا كان هؤلاء (المسلمون) لا يوثق بهم ، ولا يطمأن اليهم
أعمال الفرنسي والرومي والصهيوني واقاطع بني ديني ووطني ؟
أما إنه لم يخطب جسيم ؛ فماذا تصنع المدارس ومعالمها والمساجد وواعظوها
والصحف وكاتبوها ، اذا لم يعلنوا على الحيانة حرباً لا هوادة فيها ولا مسالمة
حتى يكون النصر عليها ؟ وكيف لعمى الحق يكمل لنا استقلال ، او تتم سيادة
او نجاري شعوب المدينة ونسابقها ، اذا لم تسد الامانة فينا ، واذا كان الواحد
منا لا يستطيع ان يطمئن الى أخيه ولا يعتمد على أمانته ؟ واذا كنا نقلد
الغربيين في الشرور فلماذا لا نقلدهم في الصدق في المعاملة والوفاء بالوعد والاستقامة
في العمل ؟

أما إن من أشكال الأمانة وصورها ، أن القلم المتين ، واللسان البليغ ،
أمانة في يد الكاتب والخطيب ، فإذا لم يستعملهما في إنكار المنكر ، والامر
بالمعروف ، والدعوة الى الإصلاح ، كانا بمن خان أمانته ، واضاعها ، وفرط
فيها ؛ فليُنظر لنفسه كل كاتب وشاعر وصحفي وخطيب !



دفع عن الفضيلة

نشرت في مصر سنة ١٩٤٦

هال بعض المصلحين منذ سنتين مارأوا من فشوّ التبّرج والاختلاط في دمشق البلد العربي المسلم ، فقاموا يدافعون عن الفضيلة المغلوبة ويردّون الرذيلة الغالبة ، وانقاد إليهم الناس ، لأن الكثرة الكاثرة من أهل دمشق لاتزال متمسكة بدينها ، ولا تزال نساؤها في الحجاب الساتر ، ومشت الأمور في طريقها وكادت تصل إلى غايتها ، ودعاة الفجور ينظرون ويتحرقون ... لولا أن دفعت الغيرة على الأخلاق الإسلامية والسلائق العربية بعض العامة إلى الدخول على النساء في السينما وإخراجهن منها وترويعهن ، وإلى التجوال في البلد ونصح كل متبرّجة ووعظها وزجرها ... وقد أنكر العلماء وعقلاء البلد ذلك عليهم فكفوا عنه وأقلعوا ، ولكن دعاة الفجور لم يرضهم أن تنتصر دمشق للفضيلة وأن تهدم عليهم عملهم على رفع الحجاب وإباحة الاختلاط ، فاستغلوا عمل هؤلاء العوام وأعلنوا إنكاره وكثروه وبالغوا في روايته ، وذهبوا يقيمون الدنيا ويبرقون البرقيات ويُرعدون بالخطب ، وما أهون الإبراق والإرعاد ، وما أسهل إثارة الشبان الفاسقين على الستر والحجاب ، باسم (الحرية

الشخصية) التي تمتع عيونهم بما وراء الحجاب من جمال ، وتنبيلهم ما بعد حدود الفضيلة من لذائذ !

أخرجون النساء من السينا ؟ أيعرضون بالنصح للمتبرجات الكاشفات ؟ يا للحدث الأكبر ، يا للعدوان على الحرية الشخصية التي ضمنها الدستور ! أليست المرأة حرة ولو خرجت عارية ؟ أليس الناس أحراراً ولو فسقوا وفجروا ؟ أليس كل امرئ حراً ولو نقب مكانه في السفينة ^(١) فأدخل إليها الماء فأغرقها وأهلها ؟ !

كذلك فهم الحرية هؤلاء الجاهلون ... أو كذلك أراد لهم هواهم ، وشاءت لهم رغباتهم الجنسية وميولهم النفسية أن يفهموها ، ودفعوا الصحفيين فلبثوا أياماً طويلاً لا كلام لهم إلا في الدفاع عن (الحرية ...) ، وهاجوا ^(٢) بعض النواب ، فجرب كل واحد منهم أن يتعلم الخطابة في تقديسها ، ثم عمدوا إلى فئة من خطباء المساجد حاموا عن الفضيلة ، فساقوهم إلى المحاكم سوق الجرمين ، وأدخلوهم السجون ، وجرعوهم كؤوس المهانة ، حتى صار من يذكر السفور بسوء ، أو يدعو إلى الفضيلة والستر كمن يدعو إلى الخيانة العظمى ، وصار النساء إذا رأين شيئاً في الطريق شتمته وسخرن منه ، وتوارى أنصار الفضيلة من وجه هذه العاصفة الفاجرة الهوجاء ، وهم جمهرة أهل الشام وعلمائهم وأفاضلهم وعقلاؤهم ، وحسب أولئك أن الظفر قد تم لهم ، وأن أهل الدين قد انكسروا كسرة لا تجبر ، فكشفوا القناع وانطلقوا يسرحون وخدامهم في الساحة ويمرحون ... وكانت النتيجة أن انحطمت السد فطغى سيل الرذيلة

(١) إشارة الى الحديث المشهور

(٢) اي هيجوا

وعم ، وامتد في هاتين السنتين أضعاف ما امتد أيام حكم الفرنسيين الذين هم أفسق الناس ، وهذه حقيقة تثبتها بأسف وخجل ... وكانت النتيجة أن ازدادت جرائم التعدي على العفاف واستفحلت حتى رأت المحاكم من يتعدى على عفاف بنته وأخته ، ومن يفجرُ بطفل رضيع ، وماذا يصنع هذا الوحش الذي أثار (الحرية الشخصية) غرائزه فلم يجد إلا البنت والأخت أو الطفل الرضيع ؟ وكانت النتيجة أن دمشق التي تستر بالملاءة البنت من سنتها العاشرة شهدت في يوم عيد من أعياد الوطن ، بنات في السادسة عشرة وما فوقها يمشن في العرض بادية أفخاذهن ، ترتج نهودهن في صدورهن ، تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة .. وشهدت بنتاً جميلة زينت بأبهى الحلل ، وألبست لباس عروس ، وركبت السيارة وسط الشباب - قالوا إنها رمز الوحدة العربية ... ولم يدرك الذين رمزوا هذا الرمز أن العروبة إنما هي في تقديس الأعراض لا في امتنانها ، ومشى الموكب أمام الناس وفيهم والده هذه البنت لا يستحي ولا يخجل ، وأخرى قالوا إنها رمز سورية الأسيرة قد فكت قيودها ... وأمثال هذا الهذيان الذي لا معنى له إلا استغلال العيد الوطني في هدم أركان الفضيلة وتمزيق حجابها ... وأخذت صور هذا كله فنشرت في الجرائد وعرضت في السينات ، ثم ازدادت جرأة الناس على نقض عرى الأخلاق حتى رأينا صور رجال منامع نسائهم على (بلاج) الاسكندرية منشورة في مجلة من المجلات التي لا تدع فرصة فيها تشهير بنا وفضح لنقائصنا إلا استغلتها ، ثم ازدادت الجرأة حتى صارت مجلات دمشق تنشر صور العرايا فيشتريا الشباب لهذه الصور ، لأنه ليس فيها ما تشتري له .

ثم ... ثم ماذا ؟ الله وحده الذي يعلم ماذا يكون أيضاً ، وإلى أين يبلغ بنا المسير ...

وقد نزلت هذه الضربات على وجه الفضيلة متلاحقة متتابعة لاتصحو من واحدة حتى تحس بالأخرى ، وهم يريدون منا مع ذلك أن نسكت وألا نقول شيئاً ، لئلا نشوّه (زعموا) جمال العهد الوطني

كلا . إن العهد الوطني هو الذي تنتصر فيه الفضيلة ويسود الحق ويحفظ العفاف ... كلا ، ولا كرامة ، إنها أعراض بناتنا وأخواتنا ، ولو غير الاعراض لهاوَدْنَاكم عليها ، ولكن لاهوادة في العِرْض !

إنها حياة هذه الامة : لانجيامة بلا اخلاق ، افئذ قامت فئة من العامة بما لا نرضى عنه ، وانتهكت حرمة هذا الحرم الاقدس : السينا ، وتجاوزت على حريات الفاضلات المطهرات : النساء المتبرجات ... نسكت كلنا عن نصره الفضيلة إلى يوم القيامة ؟

إن من الامور مايتفق عليه أبناء الملل كلها ، وما يلتقي فيه أتباع الاديان جميعاً كما يلتقي سالكو شوارع مختلفة في ساحة من الساحات ، ومن ذلك الدعوة إلى العفاف ، إنها دعوة لا بد منها ، فإذا لم يريدوها عن طريق الجمعية الغراء والمشايخ ، فلتكن عن طريق غيرهم ، المهم أن يجهر بها جاهر ونحن معه مؤيدون له ومحاربون لمن يحاربه ، ونحن نريد الجوهر لا المظهر

ثم ما هذه الحرية التي طبّلت لها وزهرتم ، وهوّأتم وعظمت ، وجعلتم الاعتداء عليها ككفرآ بدين الحضارة والديمقراطية ، أهي حرية المرأة أن تكشف ما تريد من جسمها متى أرادت وأين شاءت ؟ أهي حرية ناظر المدرسة في أن

يحول مدرسته إلى مرقص ؟ أهى حرية الفسوق والعصيان ؟

أهذه هى الحرية المقدسة ؟

إنكم - أيها السادة - بين امرين : إما أنكم تقولون مالا تفهمون ، وإما أنكم تسترون بهذه الاسماء الحلوة اغراض نفوسكم ورغبات اجسادكم ؟ وإلا فخبروني أي امة فى الدنيا تصنع هذا الصنيع :

العرب ؟ إن العرب اغير الناس على الاعراض ، وإن كلمة العرض فى لسانهم لا يقابلها كلمة فى ألسنة الأمم تترجم بها !

المسلمون ؟ إن الاسلام امر بغض البصر وستر العورة ، ولعن الناظر اليها والمنظور !

الفرنسيون ؟ إن الفرنسيين يكشفون افخاذ الشباب فى الملعب فعلام تكشفونها اثم فى سوق الحميدية وهو للبيع والشراء ، وفيه الرجال والنساء وهو كاللوسكى فى مصر والشورجة فى بغداد ، ما كان قط ملعباً ولا ميدان كرة ، وإن الفرنسيين ينشؤون بيوتاً للهو واللذة ، وبيوتاً للعلم ، وانتم جعلتم بيوت العلم بيوت لذة وهو ، وإن الفرنسيين كانوا يسترون سيقان الجنود ، فلما استلمتم انتم أمرهم كشفتم عن افخاذهم^(١) .

الروس ؟ إن الروس فصلوا بين الجنسين فى المدارس لما رأوا بالتجربة ان الاختلاط لا يأتي بخير ، وأنتم تسعون الآث بكل طريق لجمع الجنسين فى المدارس .

العفاريث ؟ الجن ؟ فن إذن ؟ أنكون نحن بدعاً فى الأمم نأخذ من كل واحدة شر ما عندها ، ونريد ان نبدأ حياتنا الاستقلالية بهذا الخليط من الشرور مركباً تركيباً مزجياً ، كحضر موت ... إنه والله طريق الموت الحاضر

(١) وما استحسن عمل الفرنسيين ، ولكن اقيم الحجة على المخالفين .

لا طريق الحياة !

لا . لم أرد ان أنحو في هذا الحديث نحو الخطابيـات ، ولم أنشئه لأخاطب به العواطف وحدها ، ولكن نحوت فيه نحو التـدليل والتعليل ، وقررت حقائق بادلتها ، وأنا ادعو الى مناظرتي فيه كل مخالف في رأسه عقل ، وفي يـده قلم ، وفي فـمه لسان ...

ولم أوجهه للمسلم وحده ، بل لكل من قال أنا عربي ، لأخص مسلماً ولا مسيحياً ، لان من صفات العربي التي تقوم عليها عروبه الشهامة والغيرة على الاعراض ، ومن ادعى العربية ولم تكن له على العرض غيرة ، ولم يغضب لحرمة فهو كذاب دعي ليس بعربي

وسيقول ناس من القراء : هذا رجل معروف بالدعوة إلى الرجعية فلا تسمعوا له إنه يريد أن يعود بنا إلى الـوراء ، ونحن نريد أن نتقدم

وهذا كلام لا يناقش ولا يرد عليه ، إنما يناقش كلام مؤيد بحجة ، إنما يدفع اعتراض قائم على منطق ، إنما يقرع الدليل ، فهل في هذا الكلام حجة أو منطق أو دليل ؟

إنهم حفظوا كلمات فهم يرددونها لا يحاولون فهم معناها ، يقولون : رجعية . وما الرجعية ؟ هي الرجوع إلى الماضي ، أي إلى اخلاقه وعاداته ، فما يمكن ان يرجع إلى زمان مضى ، فهل الرجوع إلى مثل اخلاق المسلمين الاولين نفع او ضرر ؟ وهل يكون الداعي إلى تلك الاخلاق مصلحاً او مفسداً ؟

هذه هي الرجعية !

هي رجوع الى الدين ، افترجع فرنسا الى دينها ، اي الى كاثوليكيـتها ،

ويظفر الحزب الديني فيها بأكثر مقاعد المجلس النيابي ، فلا ينكر عليها أحد ،
ولا يهتمها بالتأخر ، ولا يصمها بالجمود . ونطلب نحن العودة إلى ديننا الحق ،
فيقول السفهاء أنا متأخرون جامدون ؟

لا . هذا كثير ! هذا كفر بالمنطق ، وتعطيل للفكر ، وإلحاد في المدينة .
هذا شيء نستحي من الأمم أن يكون فينا من يقوله !

ونحن إذ نتقّد شيئاً نبين أضراره ، فيبنوا أنتم منافعهم ، حتى إذا وجدنا
المنافع أكثر أخذنا به ، ولو حملنا معه شيئاً من الضرر ، ونحن نعلم أنه ليس في
الدنيا خير محض ولا شر محض ، وإن الخمر والميسر فيها إثم كبير ومنافع
للناس ، ولكن إثمها أكبر من نفعها ، فلذلك حرّمها

فتعالوا نقناظر !

إنه لا بد في كل مناظرة من مبادئ يتفق عليها الطرفان ليعودا إليها ،
ويرتكزا عليها ، وما المنطق إلا رد الفروع إلى هذه الأصول ، فإذا كان
المتناظران مختلفين في كل شيء ، يرى هذا أن العفاف نافع فيقول الآخر بل
هو ضار ، ويدعي هذا أن اتباع الدين واجب فينكر الآخر هذه الدعوى ،
ويرى هذا العمل على منع الفجور ، ويرى ذاك العمل على نشره ... فلا يمكن أن
يكون بينهما كلام ؟

فلنتفق أولاً على الأصول :

هل العفاف وقصر الاتصال الجنسي على المشروع منه خير أم شر ؟

هل قيام المرأة على تربية أولادها بنفسها وإخلاصها لزوجها وبيتها

خير أم شر ؟

هل مراقبة الله وخوفه وتمسك كل امرئ بفضائل دينه خير أم شر ؟
هذه ثلاث مسائل اطلب الجواب عليها .

وانه ليكون غروراً مبني وازدراء للخصوم وللقرءاء ، إذا افترض أنهم يرون هذه الأمور شرّاً ، وحاولت إقامة البراهين على أنها خير وأتعبت نفسي والقرءاء في إثبات هذا الأمر الذي أظنه ثابتاً عند العقلاء جميعاً ، وإني أؤجل هذا الإثبات إلى حين الحاجة إليه وأبني المناظرة على هذه الأسس الثلاثة

فتفضلوا قولوا ، هل هذا الذي نحن فيه يحفظ علينا عفافنا أم هو يضيعه علينا ؟ هل يعمر بيوتنا أم يقوضها على رؤوسنا ؟ هل يرضي ربنا أم يسخطه علينا ؟ هل يجعلنا أمة قوية أم هو يذهب بقوتنا ؟

وإذا سلمنا جدلاً بأن من الخير مشاركة الطالبات الطلاب في أفراح الجلاء ، فهل يشترط في هذه المشاركة أن يكشفن سيقانهن وأفخاذهن ، وأن ينتخب لها الجميلات منهن لا النابتغات ولا المجذبات ولو كن قبيحات . وإذا لبسن الجوارب الساترة والثياب الطويلة أيبطل رواء العيد وتذهب بهجته ؟ أم أنتم تريدون النظر إلى أفخاذهن بحجة المشاركة في أعياد الجلاء ؟

وإذا حسن أن نقوي بالرياضة أجساد الطالبات ، فهل يشترط في هذه التقوية أن يختلطن بالرجال ؟

لا والله ، أحلفها ميمناً غوساً وأضعها في عنقي ... إنكم لا تريدون الصحة ولا الرياضة ولا المشاركة بالعيد إنما تريدون التلذذ برأى بناتنا بامم العيد والرياضة والصحة ، إنكم لصوص أعراض ... ولكن ليس الحق عليكم ، الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب ، فنحن عريان لا نبصر ، خرسان

لا ننطق ، حمير لا نقار ، وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا إلا اللعنة التي
نزلت على بني اسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم .
اللهم لقد بلغت ، اللهم لقد أنكرت المنكر .
اللهم لا تنزل علينا لعنتك ، ولا تحلل بنا غضبك .

* * *

من أخلاق

نشرت سنة ١٩٤٧

أعرف رجلاً انعم الله عليه بسعة المال ، وفطره على صدق الود وبسط اليد فأباح إخوانه ماله ، يعترفون منه اغترافاً ، ويأخذون منه علاً ونهلاً ، قرضاً حسناً لا يطالبون برده ، وهديّة لا يسألون المقابلة بمثلها ، وهبة لا يرتقب منهم عوض عنها ، ولا يسعون كلمة منّ أو تذكير بها . وفتح هؤلاء (الإخوان) - وما كان أكثرهم - داره ، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمة أهله ، وأقام عليهم خادماً وطاهياً ، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب ، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم ، وتوديعهم راحلين مشيعاً إياهم بالكرامة ، شاكرهم على (تفضلهم) بالزيارة ، سائلهم (التكرم) بالعودة .

ولبت هذا الرجل على ذلك حتى أضع ماله كله ، فباع الدار وأثاثها ، وغدا فقيراً محتاج إلى (الورقة السورية) ، فلا يجد في كل أولئك (الإخوان) من يدفعها إليه ، لا وفاء دين ، ولا مقابل هدية ، ولا عوضاً من هبة ، ولا قرضاً حسناً إلى أيام السعة ، اللهم إلا قرضاً برباً ، ولا يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً .

* * *

ولعل الرجل أخطأ حين عمد الى هذا (الكرم الجاهلي) فأخذ به ، وترك
 التأدب بأدب القرآن الذي يقول : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا
 تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً) ؛ والذي جعل المبذرين إخوان
 الشياطين . ولعله لقي جزاءه ... فما سقت القصة للحكم عليه ، وإنما قصصتها لأنها
 ذكرتني بطائفة « من أخلاقنا » ، هي كالداء في جسم الأمة ، لا يجمل بالكتاب
 وحملة الاقلام السكوت عنها والرضا بها ، وهم أطباؤها وأساتها ، وعندهم دواؤها .
 ذكرتني بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارىء
 شبيهاً ومثيلاً ، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متواضعاً ،
 مظهراً للتقى والامانة ، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت في حاجة اليه
 في يومك أو غدك ويذكرك الكرم والثواب ؛ وربما استعان عليك بمن لا يرد
 طلبه عندك فتعطيه ما يريد ، تضعه في كفه خالياً به ، تستحيي أن تشهد عليه
 شاهداً ، أو تأخذ به كتاباً ، مع أن الله أمر بكتابة الدين الى الأجل المسمى
 أمر ندب واستحباب ، لا أمر إيجاب واقتراض ، فيأخذك منك ويذهب شاكراً
 فضلك ، مثنياً عليك ثناء ينجلك ويضايقك ؛ ثم لا تراه بعد ذلك ولا تبصر له
 وجهاً فتفتش عنه لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدين ، وتجددت حاجتك
 اليه ، فيروغ منك ، وينأى عنك ... فتطرق بابه ، فيقال لك هو غائب عن
 الدار ، فتعود اليه في الصباح فيقال هو نائم ، فتراجع بعد ساعة فيقال خرج ...
 فتبتغي اليه الوسائل وتتشفع اليه بالاصدقاء ... فيلقاك شامخ الانف مصعراً
 سخده ، يقول : (يا أخي ، أزعجتنا بهذا الدين ... ما هذا اللحاح الغريب ؟
 اتخاف أن آكله ... !) وينتهرك وأنت تداريه ... ثم إن كان (رجلاً طيباً)
 دفع اليك الدين ، ولكن قرشاً بعد قرش ، و (ورقة) بعد (ورقة) فتريق
 في استيفاء دينك ماء وجهك ، وتنفق فيه الثمين من وقتك ، ثم لا تنتفع منه

بشيء . وإن لم يكن (صاحب ذمة) أكل الدين كله ، وصرخ فيك حيناً
لقيك : (ما لك عندي شيء . اشتك للمحاكم !) ، وهو يعلم أنه لا سند في
يدك ، ولا بينة لك عليه ... وهبك أخذت منه كتاباً بدينك ، أفتصبر على
طول المحاكمة ومتابعتها وتأجيلها وتسويقها ، و (رسومها ومصارفها) . . . إن
ضياح المال أهون من إقامة الدعوى به ^(١) .

ومثل هؤلاء المقترضين (الأفاضل) مستعيرو الكتب ، أولئك الذين
تركوا في قلبي غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أني لا أعير أحداً كتاباً .
ولم انج مع ذلك منهم ، ولم يردّ لي الى الآن كتاب (كشف الظنون) الذي
نسيت من استعاره مني منذ إحدى عشرة سنة ...

وهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب ، منها أن استاذاً محترماً في
قومه جاءني مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الحازن من خزانة كتيبي ،
ليراجع فيه مسألة ويرده إلى عاجلاً ، ففعلت ؛ وانتظرت أربع ... أربع
سنوات والله ثم ذكرته به ؛ فغضب وقال : « لإيش العجلة يا أستاذ ، لم أراجع
المسألة بعد ... » !

والذي يذكر منهم صاحب الكتاب ويتنازل فيرده اليه ، يرده مخلوع الجلد
بمزق الاوصال . وأنكى منه المستعير المحقق المدقق الذي يرى في الكتاب
موطناً يحتاج الى تعليق ، فيكتب التعليقة التي يفتح الله بها عليه ، على هامش
كتابك بالخط الصيني الذي لا يمحي ولا يكشط ، ويذيلها باسمه الكريم !!
وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذي يتظرف ويشخف ، فيرى أن من الظرف
سرقة الكتب ، فاذا زارك وتركته في المكتبة وخرجت لتأتيه بالقهوة أو الشاي

« ١ » ولو سألتني دليلاً لنباتك أنها كانت لأسرتنا قضية بقيت في المحاكم ثلاثاً وثمانين سنة .

أخذ كتاباً فدفسه تحت إبطه ، أو وضعه في جيبه ثم ذهب به وأنت لاتدري ..

* * *

وربما كان هذا المدين المماطل ، وذلك الذي يأكل الدين وينكره ، والذي يستعير الكتاب ويمسكه ، ربما كانوا عند العامة من اقطاب الوقت وأولياء الله الكبار ؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى وبدلوا معناه ، فكانت التقى في صدر الاسلام هو الذي يتقي المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن ، ولا يدخل جوفه ولا جيبه الا طيباً حلالاً ، ويفر من مواطن الشبهات ، ولا يطلب المال الا لإمساك الرmq ونيل القوام ، والعيش عيش القناعة والرضا ، ولا يأخذه الا من حله . ولم يكن الرجل ليشهد للرجل بالتقوى الا إن صحبه في سفر ، أو عامله في مال ؛ فصار التقى اليوم من يكبر عمامته ، ويطول لحيته ، وبوسع كفه ، ولا تفارق يده سبجته ، ولا يقف لسانه عن ذكر ؛ ومن يتوقر وبطيل المكث في المساجد . وهذا كله حسن لا اعتراض عليه ، غير أن حسنه ينقلب قبحاً أبشع القبح اذا اتخذته صاحبه أعبولة يصطاد بها الدنيا ، كذلك الذي كان وصياً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة ، اغتر أبوهم بلحيته وسبجته فوصى بهم اليه ، فجرعهم كؤوس المذلة والجوع ، ونشأهم في الازفة نشأة اللصوص ، وأكل اموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجميل : (إن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) ، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها ، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة ... وينكر أشد الانكار على من يهمل السنن فيشرب بشماله أو يحلق لحيته ، والناس يتبركون بلثم يده . فكيف السبيل الى إفهام هؤلاء الناس ماهي حقيقة التقى كيلا يعظموا اللص ويجعلوه ولياً مباركاً ، ولا يغتروا بالصلاح المجاني الذي لا يكف صاحبه مالاً بل يجمع

به المال ، ويعلموا أن الله الذي وضع في نفوس الشباب شهوة الجسد وضع في نفوس (هؤلاء) المشايخ (لست أعني المشايخ كلهم) شهوة المال ، وأنه لا فضل لأحدهما على صاحبه ؛ وأن الشيخ التقى هو الذي لا يقيم للمال وزناً ، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف ؛ وأن الشاب الصالح هو الذي لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة ببذله المال ...

* * *

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب مناحين يخوض خضم الحياة ، ويرى الاختلاف بين ما علموه من الاخلاق في المدرسة ، وما تواضع عليه الناس في الحياة ، يقف حائراً مدهوشاً لا يدري ما يأخذ وما يدع ؛ فلا هو يرتضى لنفسه التفريط في أخلاقه : صدقه وأمانته وعزة نفسه ، ولا هو يرتضي الحرمان من المتع واللذائذ والمناصب العالية والمرتبات الكبيرة يناله جزاء تمسكه بما علموه من الاخلاق. حدثني صديق لي أنه انتسب في شبابه الى الشرطة ، فجعلوه رئيس مصلحة السير في بلدة من بلاد الشام ، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة أو أوفى من ذلك ، وكان مقره في (مخفر) في ظاهر البلد ، فمر عليه رتل من السيارات فيه حجاج آيبون ، وكان نظام تلك الايام أن سيارة لا تجتاز على مخفره الا بوثيقة وإذن ، لا أدري ما صفتها فقد نسيت دقائق حديثه ، ولم يكن معهم ذلك (الإذن) فوقفهم ومنعهم من المرور إلا به . (قال) فغاب السائق هنية ثم عاد وفي يده صرة وضعها على مكتي فيها أربعون ريالاً مجديداً ، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول ... وهذه الصرة ثمن (فنجان قهوة) رجاء السماح لهم الخ ... قال : فلما سمعت ذلك قف شعري وصحت به : أتريد أن ترشوني يا كذا وكذا ، وأمرت به فوقف ، واستلمت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع اليه الامر وأنا أرى أنه سينزل به

أشد الجزاء ، فإذا به يأمر بإطلاقه ، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام ، وأن يبعث اليه بالمال ليجري التحقيق . (قال صديقي) وذهب المال ولم يعد ، وتركت العمل . ولو أني بقيت لطرحت عن عاتقي ثقل الاخلاق التي تجعلني غريباً بين زملائي ، وتحرمني الغنى ، وتكسبني غضب الرؤساء فلا يصيبني ترفيع ، ولا يصل الي خير . وليست هذه القصة فريدة في بابها ، ولا هي نادرة من النوادر ، بل هي قصة كل يوم ، وهي الداء الذي يزداد ويسيطر والأساة عنه غافلون . وأن أساتة وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسي الحكم ، هي الدنيا لهم وهي الاخرى ، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهي الاحلام ، ومستيقظ قد ألهاه هواه ، فهو يملأ الدنيا بكاء ونحيباً لأن صاحبه أسهرته بعد النجوم ولم تأته ... أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه أو أفسق فأعطته إياها . وأهل العلم يعيش أكثرهم على هامش الحياة لا هم له الا مرتبه يقبضه من (دائرة الأوقاف) في مطلع كل شهر ، ثم لا تراه ولا يراه أحد الى الشهر الذي بعده ، أو (حاشية) يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه قراءة تبرك لا قراءة تحقيق ، فلا يرجح ولا ينتقد ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية ، ولا ينظر مشكلة من مشا كل العصر ليرى حكمها . ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم في الدين ولا يؤخر ، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر . والشباب الناشئون لجهلهم حقائق الاسلام ، وبعد ما بينهم وبين المشايخ ، وقصر أيديهم وأفهامهم عن نيل الكتب (ذات الشروح والحواشي) قد زهدوا في كل ما هو شرقي واستهانوا به ، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعياً ، وكل سفسطة سميت فلسفة ، وكل كفر بالدين والعرض دعي أدباً ، وأعانهم على ذلك أن أكثر المدرسين من الذين لم يقدر لهم فهم علوم الاسلام والغوص على كنوز كتبه ، ولست أطلق القول واجنح الى

التعميم ، فإن في كل فئة من هؤلاء الطيبين والمصلحين ، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت . فمن أين يرجى إصلاح أخلاقنا وأوضاعنا ؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح ، ولم تتفق بعد على (الأخلاق) التي ينبغي أن نتخلق بها ، فمن أين يرى المثل الأعلى في أخلاق الجاهلية : كرم إلى حد التبذير ، وشجاعة إلى حد التهور ، كصاحبنا الذي استهللت بحديثه هذا المقال ، وعامة طائفة (الزكركت) في الشام ، (وهي أشبه بالفتوة في مصر) واكثر البدو ، ومننا من يميل إلى التخلق بأخلاق اجدادنا في القرن الماضي على ما كانت عليه بلا زيادة عليها ولا نقصان منها ، ومن يخالفهم مخالفة الضد للضد فيرى أن نقتبس الأخلاق الغربية برمتها . ويتشعب هؤلاء الرأي فيميل كل إلى الأمة التي تعلم في مدارسها أو رحل إلى أرضها ؛ ومن يرى اقتباس الجيد النافع من كل أمة من غير أن يحدد أو يعين . ولا دواء لهذه الفوضى في رأيي ، ولا صلاح لأخلاقنا ، الا بالرجوع إلى الاسلام الصحيح الذي جاء به سيدنا وسيد العالم محمد ﷺ ، لا الاسلام الذي يفهمه الحشويون والمتاجرون بالدين ، ولا الذي تفهمه العامة . فاذا فعلنا فثمّة كل خير ، ولا يكون ذلك الا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل ، ودرسوا المشكلات ، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس ، واستمدوا الاحكام من موردها ثم ترجعوا هذه الكتب القديمة إلى لغة العصر .

داء الشباب

نشرت سنة ١٩٣٨

... وهل داء الشباب الا الميل الجنسي الذي يملأ نفوسهم ، ويسيطر على ارواحهم ، ويتراءى لهم في كل جميل في الكون ، شيطاناً لعيناً يقود الى الهاوية وإبليساً^(١) من أبالسة الرذيلة ، يدعو الى دين الهوى ، وشرع الشهوات ، ويحدر عقل من يستجيب له فينزل به من مكانه في الرأس الى غير مكانه ، ويجعل صاحبه عبداً للجسم ، مؤثماً بالشيطان ؟

وهل يأتي ممن كان إمامه إبليس ، وشرعه هواه ، إلا قط في شهر شباط ؟ بل ما يبلغ والله أن يكونه ، فان القط تشغله الشهوة شهراً في العام وسائر أيامه للصيد والوثب والسعي للرزق وما خلق الله له القطط ، وعبد الشهوة من الناس تتعبده الشهوة في كل حين ... وللقط طريق واحد الى بلوغ شهوته هو (الطريق) الذي (سقه) الله لبقاء الجنس ، تبعاً للسنة التي منها ، أما عبيد الشهوة من البشر فلهم مائة طريق ، تسعة وتسعون منها تخالف سنة الله ، وقوانين الحياة ، وتأبأها العجاويز ، ويتوقع عنها الخير ، ولا يرتضها لنفسه (صاحب اللعنات) إبليس ... والقط في شهر الشهوة ، لا ينسى قطيئته^(٢)

(١) نونت الكلمة تنوين التنكير .

(٢) القطية للقط (مصدر صناعي) على وزن الانسانية للانسان ..

ولا يدع صيد الفار ، ولا السعي للعيش ، والرجل اذا تعبدته الشهوة ينسى انسانيته ، ويهمل الواجب عليه ، ويقعد عن المشي في مناكب الارض في طلب الرزق ، بل لقد تبلغ به السفاهة والجهالة أن يفرّ من الحياة منتحراً جباناً ذليلاً لأن ... لأن امرأة لم تعطه من نفسها الذي يريد ، ولو عقل عقل القط لتروكها الى غيرها ، وليس يبالي القط ما دام قد قام بقسطه من حفظ النسل ، أكانت صاحبتة بيضاء مبرقشة أو سوداء حالكة ، ولم نعهد قطاً قطع نفسه بأسنانه ، أو ألقى بها في البركة ، حزناً على حبيبته (القطّة) ... والقط (بعد ذلك) يبقى عزيزاً يطارد القطّة مرفوع الرأس ، مشدود العضل ، بادي القوة ، والرجل اذا استعبدته الشهوة يصبح ذليلاً حقيراً ، كافراً بالرجولة ، فيهمل درسه اذا كان طالباً لأن صاحبتة (أو شيطانتة) لم تدع له وقتاً ولا عقلاً للدرس ؛ واذا كان موظفاً أنسته عينها أمانة العمل ، وحرمة المصلحة ، وواجب الشرف ، ووقدية العدل ؛ واذا كانت صاحبة سره (سكربتوته) في تجارته نسي التجارة ، وأضاع الامانة والربح ، وأهمل السعي والعمل ... فلا يكون من وراء الشهوة الا ذل النفس ، وموت الشرف ، والضعف والتسفل : المعلم سيد تلميذته ، والمدير أمير سكربتوته ، والطالب عزيز حيال رفيقته ، فاذا جاءت الشهوة ، ذل المعلم فكان هو التلميذ وهي السيدة ، وذل المدير فكان هو الأجير وهي الآمرة ، وذل الطالب فكان من رفيقته بمثابة كلبها ... يتبعها ويبصص لها !

أوليس من الذل أن تكون حياتك معلقة بغيرك ، وسعادتك بيد سواك ، فأنت مضطر اليه ، وأنت لعبة في يديه ، إن أقبل عليك سعدت ، وإن أعرض شقيت ، وإن مال الى غيرك اسودت أيامك ، وتمتد الموت ؟

هذا والله الذل الذي لا ينفع معه المال الكثير ، ولا الجاه العريض ،

ولا ... « ملك انكثرا وتوابعا »^(١) ، وهذه هي حقيقة الحب ، الحب
الذي آله الشعراء !

* * *

على أن الحب في الاصل جميل مقدس ، وعلى الحب قام الوجود كله وائتلف
وسار الى غايته ، والشهوة نافعة لازمة لم تخلق عبثاً ، ولا أداة للشر ، بل
خلقت حياة للجنس وعصمة من أن يمحي أو ينقرض ، ولسنا نحقر الحب ولا
نذم الشهوة ، وإنما نذم الغلو فيها ، ولوجهها من غير بابها ، وأخذها على غير
الوجه الذي خلقه الله لها ... نذم منطق الشهوة ، وللشهوة منطقها الذي يسلب
الدين دينه والحكيم لبه ، ويريه أن له الحق في كل النساء ، وأنه لم تخلق امرأة
الا لذته (هو) ومتعته ، ويضع له إبليس أدلة هذه الدعوى فيقبلها بعقله الذي
انحدر من رأسه ، ويتلقاها بأعصابه الهاشجة المجنونة ، ثم يدهل إبليس على سبل
تحقيقها ، فيسلكها لا يبالي الدين ولا العرف ولا المروءة ولا شيئاً مما تواضع
على إجلاله الناس ويتم إبليس عمله ، فيدخل في رؤوس نفر من الادباء ، ثم ينطق
بلسانهم ، ويخط بأقلامهم ، هذا الأدب الوقع البذئ ، أدب أبي نواس من
الاولين ، وآباء نواس من العصرين ، الادب الذي يستقر في أدمغة الشباب
استقرار صناديق البارود في اصول البيوت ، فلا يلبث أن يتفجر عند الشرارة
الاولى ، تخرج من عين امرأة ، فينسف عقل صاحبه ودينه ، واخلاق الامة
وصيانتها ، ولا نعدم مع ذلك من الناس من يعجب بهذا الادب ويكبره
ويسمي صاحبه بأسماء الجهابذة الاعلام من أرباب البيان وحمله الاقلام ...

(١) الذي لم يمنع ادوار الثامن من تركه كله ليلحق ارملة اسمها سبسون - والقصة مشهورة.

وهل في الادب المكشوف، الاكشف سوأة من سوءات الفكر ، وعورة من عورات الضمائر ، يحرص العقلاء على سترها كما يسترون عورات الجسم ؟
أستغفر الله ماذا أقول ؟ إن الناس قد كشفوا عورات الجسم على السواحل وفي المصايف ، وأبدوا كل سوأة ، وافترخوا بها ؛ وسموها جمالاً وكالاً ، وصوروها وملأوا بها جرائدهم ومجلاتهم ، أفلام الشباب إن جن جنونه ، واشتعلت في اعصابه النيران ؟

أخطبوا أيها المدرسون ما وسعكم الجهد ، واهرؤوا ما انفسح لكم سبيل الهراء ؛ وقلوا للشباب كن صيناً عفيفاً . إنها لن تجدي عليه خطبكم ، ولا يستقر في نفسه هراؤكم ؛ إنه يخرج فيسمع إبليس يخطب بلغة الطبيعة الثائرة في السوق على لسان (حال) المرأة المتبرجة ، وفي الساحل على لسان الاجساد العارية المغربية ، وفي السينما على لسان المناظر المنتهكة المثيرة ، وفي المكتبة على لسان الجرائد المصورة والروايات الخليعة الماخنة ، وفي المدرسة على لسان اصحابه الفساق المستهترين ... ولسان المدرسين حين يدرسون شعر أبي نواس المقرر رسمياً في المنهج !

إن الشاب تتعبده الشهوة فيخضع لها ، لأن سهامها تنصب عليه من كل جانب ، فلا يطيق أن يتقيا ، فيصورها له خياله عالماً مسحوراً عجيباً ، وجنة فينانة غريبة ، فيتمنى دخولها ، فلا يجد من دونها حجاباً ، بل يجد من يسوقه اليها ويحفزه عليها ، فلا يخرج منها أبداً ، ولا عليه إن ماتت الامة أو عاشت ، فهل فكر أحد من اطباء الاخلاق في هذا الداء ؟

بناء الاخلاق ينهار ، وسوق الزواج يبور ، ونسل الامة ينقطع ، والمخازي والردائل تعم وتنتشر ، والقادة والمصلحون وأرباب الامر يرون ذلك كله ، فلا يباليونه ولا يفكرون فيه ، ولا يفتشون له عن علاج ... مع أن العلاج

هين ميسور والعقاير دانية قريبة ، لا ينقصها الا يد تمتد اليها فتأخذها لتجرعها
المريض ؛ وأين تلك اليد ؟

* * *

إن الله الذي وضع الشهوة في النفوس جعل دواءها الزواج ، فاذا تعذر
الزواج فهناك طرق للوقاية من الفاحشة ، وهنالك السدود من دونها والحجب :
هنالك الدين ، فاذا علمت الشاب دينه ، وعرفتموه بربه ، ونشأتموه على التوحيد
الخالص ، والايان الصحيح حتى يعلم أن الله مطلع عليه ، لاستحياء من الله أن
يأتي الفاحشة بسمعه وبصره ، كما يستحي أن يأتيها على مشهد من أبيه الذي يجله ،
أو استاذه الذي يحترمه ، ويعلم أن من حق الله عليه ، وقد أعطاه هذه الاعضاء
وأنعم بها عليه ألا يستعملها إلا في طاعته ... هذا أول سلاح تدرأ به المعصية ،
وهذا معنى قوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » أي لا يستطيع
أن يزني وهو مؤمن أن الله مطلع عليه ، ناظر اليه ، ولمنعه الحياء من الله أن
لم يمنعه الخوف من العقاب .

وهنالك الشرف ، فاذا رببتم الشاب عليه ، وجعلتموه يحس به ويقدره
قدره ، وأفهمتموه معنى المروءة وقيمة العرض ، لمنعه من الفاحشة ما كان يمنع
الجاهلي الشريف ، من أن ينظر الى جارته حتى يوارى جارته مأواها .

وهنالك الصحة ، فلو عودتموه الرياضة ، وعرفتموه قيمتها ، وأنبأتموه أن
الله جعل مع العفاف الصحة والسلامة ، ومع الفاحشة الضعف والمرض والمصائب
السود لاقتصد في اتباع الشهوة ، إن لم يكف عنها ، ولم ينظر اليها إلا من
سبيلها ، وسبيلها الزواج .

وهنالك طيب السمعة ، وحسن الذكر في الناس ، وهنالك الكثير من

* * *

والعلاج كله في يد وزارة المعارف وآباء الفتيات .

أما وزارة المعارف ، فستطيع أن تعنى بالاخلاق العامة ، فتبذل جهدها في مراقبة الجرائد والمجلات والروايات ، وتبث الوعاظ ينشرون في الناس الفضيلة ويرغبونهم عن التهلك والعري .

وتستطيع قبل ذلك كله أن تهتم بأخلاق التلاميذ ، فتوكل بهم من يفهمهم (قبل سن البلوغ) حقائق الحياة الجنسية بأسلوب علمي يضرب فيه المدرس المثل بتلاقح الازهار ، واجتماع الحشرات والطيور ، ويبين لهم بشاعة الفاحشة على مقدار ما يتسع له القول واضرار (العادات السرية السيئة ^(١)) ويكون حكيماً في بيانه ، فلرب بيان مثل هذا ، يخلو من الحكمة ، فيقود الى الرذيلة بدلا من ان يصرف عنها .

وتستطيع وزارة المعارف أن تعلى من شأن درس الدين ، وتختار له من المدرسين من يكون قدوة في سمته وخلقه وسيرته ، فان المدرس يفعل بسيرته في نفوس الطلاب ما لا يفعل بمحاضراته وتدخل هذا الدرس في الفحوص والامتحانات العامة ، وتجعل الطلاب (يرسبون) اذا قصروا فيه ، لأن الطلاب لا يمكن أن يعنوا بدرس لا (يرسبون) إن قصروا فيه .

وتستطيع وزارة المعارف أن تلزم المدرسين بأن يكونوا مثلاً كاملاً

(١) من الناس من ينفر الشباب من العادة السرية (أي الاستمناء) بتهوين أمر الزنا، وأنه لا يضر ضررها ، مع ان ذلك كذب والحكم الشرعي فيها انها مكروهة كراهة تحريم الا اذا كانت عن اضطرار او للخلاص من الوقوع في الزنا ولم يكن فيها ضرر جسدي محقق [راجع حكمها في حاشية ابن عابدين في باب الصيام] .

الاستقامة والعفة والمروءة ، وأن يكونوا قدوة للطلاب صالحة ، فإننا قد رأينا
من ليس كذلك ، رأينا من يصحب طلابه الى دور اللهو والفسوق !
وتستطيع وزارة المعارف أن تضع القوانين الصارمة لحماية عفاف الطلاب
والطالبات من انفسهم ومن غيرهم .
أما آباء الفتيات الذين لا يزوجهن الا بيعاً ، فهم رأس البلاء ، ولكنه
لا ينفع معهم الكلام .

* * *

أما أنتم يا إخوتي الذين يقرؤون هذا الفصل من الشباب ، فإني انصح لكم
(وأنا شاب مثلك^(١)) ، بأن تصرفوا ميولكم الى جهة علوية ، فان الميل كالبحار
المتصّدة من القدر قد يجد سبيله فيدير الآلة ، ويسير القاطرة ، وقد يحتبس
فينفجر به القدر ، وقد يسيل على الأرض هدرأ ، فأنا لا أحب أن تسيل ميولكم
هدراً ، ولا أن تضيق بها نفوسكم حتى تنفجر ، بل أحب ان (تتساموا) بها
فتسوقوها في طريق الفن والإبداع .

إن من يفكر في المرأة ، ويزداد به الشوق اليها ، ولا يجدها زوجة لأن
الآباء يضمنون بيناتهم حليلات ويبدلونهن للناس خليلات ، يستطيع أن يصب شوقه
في القطعة من الشعر او القصة من القصص ، او أن يصور شوقه نغمة جديدة ،
او صورة بارعة يشعر اذا صنعها بمثل ما يشعر به من بلغ ما كان يريد ، ويجد
الاطمئنان ، ويمشي في طريق النبوغ .

وإن الشاب اذا دأب على المطالعة والبحث ، ورغب في التفوق على رفاقه
في المدرسة ، او الفوز على خصومه في الجري او الملاكمة ، او استغرق في تجارة
فشغلته ، او صناعة فملأت حياته لا يجد في نفسه بقية للشهوة ، إنما تستعبد الشهوة
من كان فارغ الرأس واليد والوقت .

(١) نشر هذا المقال من اكثر من عشرين سنة !

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة !

* * *

وبعد فهذا داء عضال فتاك ، فأين أطباؤه ، وأين من يتنبه إليه ؟ أين
الكتاب الباحثون فيه ؟ أين أولو الأمر المعنيون به ؟ أين الغيور على الدين
والاخلاق ؟ ألم يبق منهم أحد ؟ !

★ ★ ★

الأخلاق

نشرت سنة ١٩٣٨

نحن اليوم (في أكثر بلدان الشرق الإسلامي) في دور يقظة ، ومطلع نهضة ، ولكل نهضة جسم وروح ؛ أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها ، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها ، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها ؛ وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والمثل العليا . فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس ، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب ، وروح الديمقراطية الإرادة المشتركة وضمأن المصلحة العامة ، وروح المدرسة تنشئة جيل المستقبل على المثل العليا ، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير ... فهل امتدت نهضتنا إلى الروح ، أم هي قد اقتصرت على الجسم وحده ، لم نعن إلا به ، شأننا في كل أمر من أمورنا حين نهم بالقشور . وتقف عند الظواهر ؟

الجواب عند القراء ، لا حاجة إلى إثباته في هذا المقال . ولكن الحاجة ماسة إلى كتاب ومربين وعلماء ، يستقرون أخلاقنا التي نحن عليها ، ويصنّفونها ويقوّمونها ، ويرون ما يجب أن يبقى فيعملون على تثبيته ونشره ،

وينظرون ما ينبغي أن يبدل أو يعدل ، فيسخرّون المدرسة والصحافة والقوانين لتبديله وتعديله ، لتنشأ أمة المستقبل على الأخلاق الصالحة التي تستطيع أن تبلغ بها ما تريد من مجد وعلاء ، وتنبؤاً المكان اللائق بها بين الأمم ، وتلقي هذه الأخلاق التي ورثناها من الحكم التركي الطويل ، وبلغت بنا قعر الهاوية التي نحاول اليوم النجاة منها ، ونعود إلى أخلاقنا الإسلامية التي قبسها منا الغربيون فأفلحوا بها ونجحوا ...

* * *

من هذه الأخلاق التي يجب أن نتخلص منها اننا لانعرف التعاون ولا نقدر أن نعمل مجتمعين . فالفرد منا عامل منتج ، ولكن الجماعة عاجزة عقيمة ، ومن نظر إلى انتشار الشركات في الغرب على اختلاف أنواعها ، والجمعيات على تنوع غاياتها ، والأحزاب والنوادي ، ورأى ما عندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل ... وعلّة ذلك (الأنايية) المفرطة ، والأثرة الجاحدة ، وحب الذات الطاغى ، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شيء في الجمعية أو الشركة ، رئيسها إن كان لها رئيس ، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس ، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة ، وأن يكون له الرأي ان أخذت الآراء ... بل انا نرى كلا منا يعطل أعمال الآخرين ويبطلها ، ويعمل على هدمها ، بينما نراه مؤمناً بلزومها ، معتقداً بالحاجة اليها ، ساعياً الى القيام بمثلها ، فهو يعرف الحاجة الى ناد أدبي ولكنه يحارب النادي لأنك أنشأته أنت ؛ وهو يعلم الحاجة الى مدرسة دينية ويدعو اليها ، ولكنه اذا رآها قد فتحت ونالت قسماً من النجاح أصلاها حرباً حامية ، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها . ذلك

أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة ، ولكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة ، فلما رآك أنت السابق إليها والذاهب بفخرها ، خان المصلحة وعصى الله ليؤذي أثرته ويستجيب لآثانيته ... وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسعى إلى تأليفها بحماسة وجد ودأب قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لا يتحدث إلا بجديتها ، ولا يشتغل إلا لتأسيسها ، فإذا تم له الفلاح بعد التعب والكفاح وقامت الجمعية ولم يكن هو الرئيس أو هو الناموس انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسعى إلى هدم ما بناه بيده ...

هذا داء من أشد أدوائنا الخلقية ، إن لم نعالجه فشت جرثومته في جسم الأمة ، فسلّت أعضائها وعطلت أعمالها :

متى يبلغ البنيان يوماً إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟
وأن هو الاخلاص ، وأن هو الصدق ، فيمن يدعو إلى الخير أو الدين أو الفضيلة ، وغايته استغلال الدين والخير والفضيلة لمصلحة نفسه وإطاعة هواه ؟

* * *

ومن هذه الأخلاق أننا لا نعرف قيمة الوقت ، وأنا نضيع أوقاتنا سدى ، ونذهب أعمارنا عبثاً لا نعرف لها قيمة وهي أثمن ما نملك . وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته ، وينفقه في علم أو أدب أو شيء مما ينفع الناس ، لم يعدم من الثقل من يضيع عليه وقته ، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء ، وما أظن أن في القراء من لا يذكر حادثة في هذا الباب ... كنت ذاهباً إلى المدرسة ذات مرة ، وكان عليّ محاضرة لم يبق دون مواعدها إلا مسافة الطريق ، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريقي فاعترضني رجل كبير كان

ناظر المدرسة الثانوية التي كنت فيها وله في البلد حرمة ومقام ، فأقبلت عليه
أحييه وأفهمته برفق أن عليّ محاضرة قد حان موعدُها فقال : طيب ... لحظة .
وانطلق يتكلم ، فلا والله ما سكت إلا بعد ما مضت نصف ساعة ألقى هو فيها
المحاضرة عليّ ، وأنا أتململ وأتحرك ويربّد وجهي وأحس النار تشتعل في عروقي .
فلما انتهى قال :

— أظن أننا وقفناك ... عدم المؤاخذه !

* * *

هذه علة أخرى من عللنا الأخلاقية ... لاشك في أنها من أشدها وأدواها
لأن حفظ الوقت آكد وسيلة الى النجاح ، وخير طريقة لرفعة الفرد والمجموع .
أذكر أن الدكتور غر تحدث الى قراء المقتطف في العدد الخاص بعيد المقتطف
بين لهم أن أثمن ما استفاده من الأمريكان في كليتهم هو تقدير الوقت ، وأن
ذلك هو الذي أعانه وزميلة الدكتور صروف على النجاح وأتاح لهما تحقيق
هذا المشروع العظيم ، والأمريكان خاصة والغربيون على التعميم يعرفون
كيف يستفيدون من أوقاتهم ، فيقوم أحدهم في اليوم بأعمال لا تقوم بمثلها
الجماعة منا في أسبوع . وكذلك كان أجدادنا الذين تركوا هذه الآثار العلمية
الضخمة ، وكان فيهم من بلغت تصانيفه الثلاثئة فما فوقها .. كانوا يحسنون
الاستفادة من أوقاتهم ، ولا يدعون دقيقة واحدة تمرّ إلا في عمل مفيد ، أو
راحة واجبة ، أو قضاء حق لله أو للجسم أو للعيال .. والوقت لا يضيع بعمل
إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به . ولو أحصى الواحد منا ما يذهب من
عمره هدرآ في (المقاهي) أو دور اللهو ، وفي الأحاديث الفارغة ، ومطالعة
الصحف الجوفاء ، والمجلات المؤذية ، وقدر ما يمكن أن يعمل في مثل هذا

الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الامر ورأى شيئاً عظيماً
وانظر الى التلميذ إذا دهمه الامتحان كيف يقرأ الكتاب في ليل ويحفظه
كله ، والموظف إذا اضطر الى العمل ، أو الصحفي إذا كان موسم من مواسم
الصحافة ، والمؤلف إذا طمع في الجائزة الكبرى ؛ انظر الى هؤلاء كلهم ،
وانظر الى هؤلاء الأفراد الممتازين الذين يشتغلون بالسياسة ويبرزون فيها ،
ويؤلفون في الأدب وينبغون فيه ، ويطالعون كثيراً من الكتب ، ولا
يقصرون في حقوق أنفسهم وأهلهم ، وحقوق الناس ، تعلم أن الوقت واسع
جداً ، ولكن الجاهل المهمل يضيعه على نفسه

* * *

ومن الأخلاق التي يجب أن تعلمها تقدير المصلحة العامة وإهمالنا هذه
المصلحة باب آخر من أبواب الأثرة (الأنانية) منشؤه أن أكثر الحكومات
التي تتالت على بلدان الشرق الإسلامي في هذه القرون الأخيرة لم تكن من
الشعب ولا إلى الشعب ، ولم تكن تحرص على مصلحته ، فزالت ثقته بها ،
ونظر اليها نظره الى عدو مقاتل ، وغدا يرى كل أذى يلحقه بها ، أو مال
يستلها إياه ، أو حق لها يضيعه ، يرى كل ذلك بطولة وفخراً ، وغدا كل
واحد منا يسعى جهده ليفرّ من الخدمة العسكرية أو يحتال بحيلة تنجيه من
دفع الضرائب ، أو يتوسل بوسيلة الى اختلاس مال الخزينة . ولعل له في ذلك
عذراً ، هو أن الخدمة العسكرية كانت لحماية الحكومة دون الشعب ،
والضرائب لحياتها هي ؛ وكان مال الخزينة مالهما ينفق على أفرادها . ولا تزال
الموازنة عندنا الى الآن مصروفاً ثلثها على الموظفين رواتب لهم وأجوراً ،
والثلث أو مادونه على المصلحة التي أنشئت من أجلها الحكومة

ونحن في حاجة الى التخلص من هذا المرض . نحن في حاجة الى الإيمان بأن مصلحة الفرد في مصلحة المجموع وأن رفعة في رفعة الأمة ... يجب أن تسأل الأم ابنها كل ليلة : ماذا عملت لأمتك ؟ بماذا خدمت اليوم دينك ؟ هل راقبت ربك في عملك ؟ هل امرت بمعروف أو نهيت عن منكر ؟ هل أحسنت الى سائل ؟ هل تبرعت بقرش لجمعية خيرية ؟ هل تعلمت مسألة نافعة ؟ هل كنت مهذباً مع رفاقك ؟ ويجب أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال عند ما يضع رأسه على الوسادة قبل أن يستسلم الى النوم

* * *

ومن هذا الباب اطاعة القوانين واحترام النظام ، ذلك الذي لم تتعلمه بعد ولا نعرفه أبداً لأن زماناً غير (ولم يتبدل بعد) كانت القوانين والأنظمة توضع فيه لغير مصلحتنا وتفرض علينا فرضاً فتعودنا ألا نطيعها وألا نخترمها ، ولكننا دخلنا اليوم في طريق الاستقلال (أو كأن قد) وصرنا نضع قوانيننا (الى حد ما) بأنفسنا فيجب أن يتبدل ذلك كله وأن يرسخ في نفوسنا احترام القوانين وإطاعتها مادام فيها طاعة الله ومصلحة الناس

ومن هذا الباب أو ما هو شبيه به احترام الراحة العامة . نمت ليلة في فندق كبير في بيروت ، فنزل في الغرفة اللاصقة بغرفتي جماعة من أكابر حلب حلّوا بعد نصف الليل فبعثوا أحدهم بحاجة لهم إلى السوق ، فلما بلغ الشارع ذكروا حاجة أخرى يأمرونه بقضائها فأطل أحدهم من شرفة الطبقة الخامسة وناداه وكله بصوت يوقظ الموتى ، فلم يبق حي في الفندق إلا قام . ولما عاتبوه ولا موه لم يستطع أبداً أن يفهم أو يتصور أنه أتى أمراً نكراً

وانحدرت مرة من الأعظمية الى بغداد في سيارة عامة من هذه السيارات التي يسمونها هناك (الباص) فركب معنا جزار معه خروف مسلوخ وضعه

على ركبته وألقى برقبته على ثيابه ، ورأيت الناس ينظرون اليه نظر المقرّ
الموافق فاضطرت الى النزول من غير أن استبكت معه بقتال .

وكثيراً ما نسمع رجلاً أو جماعة يملكون في الشارع قبيل الصبح فيأخذهم
الطرب فيغنون بمثل الصوت الذي ذكره ربنا في الكتاب ، ولا يقدرون أو
يتصورون أنهم سيثبون الى أحد .

ولا يخفى على الواحد منا يوم لا يرى فيه ما يسوء ويزعج من بصاق في
الترام أو المقهى ، أو حديث في المكتبة العامة ، أو خصومة في المسجد ، أو
غير ذلك من المزعجات المنغصات التي لا يزيلها الا عناية المدرسة بتعليم الطلاب
احترام الراحة العامة ، وحث الصحف الشعب على ذلك .

* * *

ومن الاخلاق التي يجب أن نسرع الى تعلمها احترام الواجب والاستقامة
والاصغاء الى صوت الضمير . إن المعلم لا يتورع اذا أمره رئيس أو رجاء
صديق أو نالته منفعة ، ان ينجح التلميذ الذي يستحق السقوط في الامتحان
وأن يزيد في الدرجات وان يفعل كل شيء ؛ والقاضي لا يمتنع عن تبرئة الظالم
وعقاب المظلوم ؛ والوزير لا يتقاعس عن إثارة الشفاعات والوساطات على
الكفايات والشهادات ؛ والطبيب لا يبالي بأن يجهض أو يأتي كل أمر يستطيعه
ما دام في ذلك لذة له أو فائدة ؛ والموظفون يقبلون الرشوة والناس يعطونها
ولا تكاد تجد من عرف الواجب عليه وأكبره إكباراً ، وضحي في سبيل
القيام به بكل شيء ولا أعني ان كل المعلمين أو القضاة أو الوزراء أو
الاطباء متنكبون سبيل الشرف مضيعون للواجب ، ولكن الذي
أعنيه أن فيهم من هذا شأنه ، وان احترام الواجب لم يذع فينا ولم يصبح شعاراً
دائماً لنا ، وأن المدرسة والصحافة والقانون وواضعه ، كل أولئك مقصرون

لا يولون هذا الامر ما يستحق من العناية والاهتمام في حين أنه من الأسس الثابتة والدعائم الكبرى في بناء الأمم .

ونحن في حاجة الى تعلم الصدق ، لأن الكذب قد فشا فينا وعم وأصبح أسهل شيء علينا ، فنحن نكذب في الامور الهينة ونكذب في الجلية ، ونعلم أولادنا الكذب . من منا لا يقرع بابه فيقول لابنه : قل له إن أبى ليس هنا ! ومن منا يلقي رفيقاً له أو رجلاً يعرفه فيقول له : كيف حالك أو زيك ؟ فلا يقول له : بغاية الشوق ، وهو لا يشاققه ولا يفكر فيه ، وقد يكون مبغضاً له يرى البعد عنه غنيمه ... فمجاملاتنا وحياتنا الاجتماعية كلها قائمة على الكذب . ومن جرب ان يصدق يوماً كاملاً رأى العجائب ، وقد أدرك ذلك العامة فجاء في أمثالهم (الصادقة) : الكذب ملح الرجال ، والعيب على الذي يصدق .

* * *

هذا وشبهه (وما أكثر أشباهه) روح النهضة وقوامها ، فإذا لم تعتن به به الحكومات والاحزاب والجمعيات والمدارس ، ومن يشتغل بالوطنية ، ويبث في نفوس الاطفال ، ويوضع في نظم التربية والتعليم ، كانت نهضتنا جسماً لا روح فيه !

ولمّا الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يا أيها الأغنياء

نشرت سنة ١٩٣٩

ألم بأن لكم أن تحشع قلوبكم ، وتلين أفئدتكم أفقُدت من حجر ؟ ألا تكلفون نفوسكم تحريك اجفانكم وفتح عيونكم لتروا صرعى البؤس ، وضحايا الغافة ، ماثين لكم في كل سبيل . فتأخذكم بهم رحمة الانسان ، وتعرف قلوبكم لهم رقّة المؤمن ؟ إني لأحاول ان افهم كيف تزينون لأنفسكم حالكم ، وتبررون إهمالكم ، فلا تستطيع ... لا تستطيع ان التخيّل كيف يهنأ صاحب القصر بطعامه وشرابه ، وكيف يدلل صبيته ، ويضاحك عياله وعلى عتبة قصره وتحت شبايبكه صيبة مثلهم براء ما جنوا ذنباً ، اطهار ما كسبت ايديهم جريرة ، ، ييكون من الجوع ويشتهون قطعة من الرغيف الذي يلقيه الغني لكلبه السمين ، يتمنون ويتمنى آباؤهم قرشاً من الجنيه الذي يرميه الغني في الهاوية الخضراء التي يسمونها (مائدة القمار) او يذبيبه في كأس السم التي يدعوها (الشمبانيا) ثم يخرج جنبهاً غيره بعد لحظة ليتبعه الاول ، ويتبع به عشرات ... يتمنون هذا القرش الواحد ليعيشوا به يوماً ، ويلبؤوا به بطونهم خبزاً ، فكيف تضنون على الانسان المسكين بالقرش ، وتنفقون الالوف على الشيطان ، وعلى خراب الابدان والاطوان والاديان ؟

إننا نقرأ في الصحف من أنباء أوربة واميركة ان لأغنياء القوم مآثر وعطايا

ولهم في كل مكرمة السهم الراجح والقدح المعلى، ونسمع فيهم من يعطي العطية وهو مستتر مستح لا يجب ان يدعى باسمه، وإنما يتسمى من التواضع والحياء بـ (فاعل الخير) ... فما لأغنيائنا الذين يقلدوهم في عيوبهم ومثالبهم، لا يتشبهون بهم في مزاياهم وفعالهم؟ وما لأغنيائنا^(١) دون أهل الأرض قد اختصوا (بفضيلة ...) الترفع عن الفقراء، والتعالي على أبناء هذه الأمة التي منها انحدروا وبفضلها عاشوا، وإنكارها إنكاراً ظنوا معه انهم من طينة غير طينتها، وأنهم أبناء ماء السماء والناس بنو (ماء الأرض ...) ؟

أكانت علّة ذلك أنهم شريكون، وكان السبب هذا الشرق المظلوم، المتهم بكل نقیصة؟

قد يقول ذلك المفتونون بالغرب من ضعاف الاحلام ومرضى العقول، في حين ان الكرم والإيثار بضاعة شرقية، من الشرق قد صدرت ... ولقد بلغ بالعرب حبّ الكرم مبلغ الافراط، وزاد حتى كاد ينقلب مذمة يؤخذون بها، فكيف يستقيم في المنطق (مع هذا) ان يكون هؤلاء الاغنياء بخلاء لأنهم شريكون، او لأنهم عرب؟ وهذه عادات العرب، وهذا دينهم وهو القانون الأوحد الذي يحلّ مشكلة الغنى والفقير، والذي يردّ عن العالم هذا الوحش الكاسر الذي جاء يحتويه بين فكيه اللذين هما الشيوعية و (الرأسمالية) ويدعه أثراً من الآثار، فكيف تظهر مشكلة الغنى والفقير في البلد الذي يدين أهله بهذا الدين؟

* * *

لا . ليست الشرقية علّة هذه المشكلة، ولكن العلّة كفر هؤلاء القوم

«١» لا اعنيهم جميعا . واني لا اقر ان في الاغنياء كرماء، وفي الثرين محسنين .

بالشرقية ودينها وعاداتها كقرآ لا يصلح معه تنبيه ولا بيان ، وإنما يصلحه ان ينشأ أبناء هؤلاء الاغنياء الاسحة على الخير ، الاسخياء على الشر ، نشأة اخرى ينقلبون معها ناساً آخرين ، ولا يكون ذلك الا بالمدارس والأدب . ولقد كان عندي في إحدى مدارس دمشق فصل (صف) فيه أبناء افقر الفقراء ، وأبناء اغني الاغنياء ، وكانوا في الفصل منفصلين كأنهم في معسكرين ، وكان هؤلاء يأتون الى المدرسة بالسيارات ويوصلهم الى بابها الخدم يحملون لهم كتبهم كيلا تتعب بها أيديهم الناعمة ، ويدخلون الفصل مزهوين بشياهم الجديدة ، وأولئك ينظرون محسورين . فما زلت (والله) بهم أبيّن لهم ان الفضل بالعلم والخلق والجد لا بالمال والثياب والمظاهر ، واضرب لهم الامثلة بعمر وعلي وابن عبيد العزيز ولنكولن والشيخ طاهر ، وأنزل بالاغنياء لأعلمهم فضيلة التواضع ، وارتفع بأولئك لألقنهم فضيلة العزة ، حتى صار بنو الاغنياء يستحيون ان يأتوا بالسيارات ويتوارون حياء وخجلاً اذا جاءتهم عند منصرف التلاميذ لتحملهم الى دورهم وقد كانوا لا يستحيون ولا يخجلون . وكانت النتيجة ان المعسكرين قد انقلبا إخواناً متصافين وظهر في كليهما تلاميذ نابغون ما كانوا لينبغوا أبداً لولا أن القوا من نفوسهم مذلة الفقر وكبرياء الغنى واستبدلوا بعزة الكرامة وعظمة التواضع !

فيا ليت ان المدرسين ينتبهون جميعاً الى هذا الامر فيسدون الى الامة يداً ويكسبون من الله أجراً ، فإنه لا شيء أشد على نفس الفقير من ان يتحكم فيه أو يسمو عليه ابن الغني . وأنا (قد) احمل ما أرى من صلف الغني وأوهم نفسي أنه قد كسب ماله بيده وجده فحق له أن يستمتع بثمرته ، أما ان أرى الصلف من ابنه فلا ... فيا أيها الاغنياء لا تحملوا أبناءكم على رقاب الناس ، فإنكم لا تدرون كم عدواً تكسبون لهم ، وماذا تفقدون من طبايعهم حين

تأبون الا أن تدللوهم هذا الدلال ، وتترفعوا بهم الى حيث تبلغ أيديكم وأموالكم ، وحين تمكنونهم من أولئك الذين ساقهم الفقر اليكم ، واضطربهم فكانوا لكم خولاً أو أجراء ، فيشمخون عليهم بأنافهم الصغيرة ويزيدونهم ألوان الأذى ، والطفل (في الطبع) لا يعرف الرحمة ، ولا يدري ما العقل فكيف وهو ابن الغني قد ورث القسوة وتطبع عليها وقد فيها أباه ؟ وإنا لنرى نحن المدرسين من ذلك العجب ... هذا تلميذ يأخذ كل يوم من أبيه ما يقيم أود أسرة من هذه الأسر الجائعة فلا ينفقه الا في الشر ، والمال يذهب من حيث أتى ... رأيت يرضع على رفيق له فقير بقرش يقرضه إياه قرضاً ليشتري به رغيفاً يتغدى به ، ويشترى بسبعة عشر قرشاً فرنية (كاتو) يطعمها على مرأى منه لئلا يذهب مدلل يسوقه معه الى باب المدرسة ثم يعود به الخادم في السيارة . وأبوه الغني يسمع بهذا فلا ينكره ولا ياباه ، كأن الله قد خلق الناس بقلوب ، وخلق هؤلاء بجيوب ، فأبدلهم بالعواطف المال ، فهم لا يحسون ولا يشعرون ولا يدركون ان الله ما نقص من مال الفقير إلا ليتخذ له في الآخرة إن صبر ذخراً ، ولا زاد في مال الغني الا لينظر أعطى وشكر ، أم يخل واستكبر ، ثم لا يكون الغني الا خازناً لهذا المال يحاسب به يوم القيامة فيشدد عليه الحساب . أفرأيت خازناً في مصرف أو شركة يظن أن المال ماله فيخالف فيه أمر أصحابه ، ويمتنع عن حق لهم ؟

المال أيها الأغنياء مال الله فإن زاد لم يمكن إنفاقه الا على الخلق (عيال الله) ، فأروني كيف تأكلون الذهب ، وتلبسون (البنكنوت) ، وتسكنون صناديق الحديد ؟ إن هي الا معدة تمتلئ بما يقذف فيها والجوع يحسن لصاحبها كل أدام ، وجسد يستقر بما يلقي عليه والنظافة له أحسن حلية ، ويبت يكتن من الحر والقر ولذا تذلل ميسورة ، وما وراء هذا الا أكل يفسد الهضم ، أو زنا يهد الجسم

وخر تحرق الاحشاء ، وبلايا معها بلايا اخرى من عذاب الضمير والغفلة وضياع
الايمان ، أو مآثر تنفع الناس وترضي الله ، ويجد صاحبها مكافأته الاطمئنان
والمجد في الدنيا ، والثواب من الله في الآخرة ، وهذه حكمة واحدة من حكم
الله في الغنى والفقر لو تدبرتموها لفتحت آذانكم فسمعتم كلمة الحق ، وكشفت
الغشاوة عن عيونكم فقرأتم في خلق الله وفي كتابه آيات الهدى ، ولكن
اللاذات قد شغلتكم يا أيها الاغنياء الاغنياء !

* * *

على أنه ليس أشدّ على الفقراء من منع الغني المتترف صاحب الاطيات
والمتاجر وبخله وصلفه وتبذيره ... الا الموظف الكبير الذي ينال وهو قاعد
على كرسيه لا عمل له الا تشريف أوراق الدولة بتوقيعه الكريم ينال الثمرة
التي يتعب فيها الفلاحون ، يجدون ويشغلون في وقدة الضحى تحت الشمس
المتسعة ، وفي زمهرير الليل تحت النجوم التي ترتجف اشعتها من البود ، ليقدموا
لهذا الموظف الكبير ثمن سيارته التي يسوقها ابنه خلال الحقول تياهاً مستكبراً
وقصره الذي يلوح بين بيوت القرية كالجبار العابس الباسر ، وثن كأسه المحرّمة
ولذاته المنكرة ، ويذهبون فيأكلون خبز الشعير وينامون على الحصى . هذا
الموظف الذي لا يكفيه وحده ما يدفعه أربعون من صغار (المكلفين) تباع
فرشهم من تحتهم وقدورهم وثيابهم لتؤدي من ثمنها الضريبة . هذا الموظف
يستعلى ويستكبر ويقبض يده عن الاحسان ويبسطها في سبل السوء ، ويتشبه
بأولئك الاغنياء الاغنياء وقد يسبقهم في ذلك اسواطاً ، ومن كان في شك بما
اقول فليذهب الى القرى والساكن .

ولسنا والله شيوعيين ولا يرانا الله ندعو الى هذه اللعنة (الحمراء) ولا

نؤلب الناس بعضهم على بعض ، ولكننا ندعو الى (الشعور) الذي لا يكون
الانسان الا به إنساناً ، والاحسان هو شعبة من شعب الدين الاسلامي ...
فمن اختار من الاغنياء وأرباب المراتب الضخام ألا يكون إنساناً ولا
مسلماً فليفعل !



حق الضيافة

نشرت سنة ١٩٤١

قد أكون على موعد يفوتني بفواته خير عظيم ، ولا يبقى بيني وبينه الا مقدار ما ألبس ثيابي وأمشي اليه ، فيجئني ضيف لا حاجة له عندي ، ولا خير له في زيارتي ، ولا يتنغى مني الا ان يدفع الملل عن نفسه بالبقاء ساعتين او ثلاثاً عندي ، فيسقط في يدي ، واحار في امري : إن استقبلته ضيقت موعدي وان رددته اذعت « حق الضيافة » وتعرضت لسوء الاحدوثه ؛ ثم اختار اهون الشرين فأرحب به وأدعوه ، وآمل ان افهمه حقيقة حالي واعجل له بالقهوة فينصرف... واجلس بين يديه متملاً متضايقا ، واتلطف في إفهامه والاعتذار اليه ، فلا يحفل بي ولا بموعدي ، ولا ينظر الا الى نفسه ورغبته في قطع الوقت بهذه الزيادة ، فيقعد آمناً مطمئناً ، يحديثني حديث السياسة ، ويسألني عن الروس واليابان ، والصين وتركستان ، ويعرض علي رأيه في الانظمة التي ستعم العالم بعد الحرب ... ويفيض ويسهب ، وأنا اتقاسم على النار ، ويبقى على ذلك حتى لا يبقى لي منفعة من الذهاب ، ولا يمكن تدارك ما فات ، فينصرف ليتحدث عني بأني لقيته بحفاء وخشونة ، وكلمته باقتضاب وإيجاز ، ولم أوفته « حقوق الضيافة » !

وقد اكون مستغرقاً في مطالعة ، او منصرفاً الى كتابة قد جمعت لها ذهني ... فيجئني ضيف ، فأنزل اليه لأسمع منه لغو الحديث ، فيتفرق ما اجتمع من ذهني ، وتفسد على مطالعتي ، وإن أنا بعثت من يقول له : « ليس هنا اكون قد كذبت ، واذا اعتذرت اليه بمطالعتي او كتابتي اكون قد قصرت في « حقوق الضيافة » !

وقد يأتي الضيف ومعه ولده ، فيعبت بالكراسي والمناضد ويكسر الكأس ، وربما امره أبوه بأن يتسلى باللعب مع اولاد الدار ، فينطلق كالجن فيفسد كل ما يمر عليه ويزعج الاهل ويأتي كل كريمة ، فاذا زجرته او كلفته او افهمت أباه انه ليس من الذوق ولا من التهذيب ان يحمل ابنه - اعني عفريته - الى بيوت الناس ، اكون قد فرطت في « حقوق الضيافة » !

وإن كانت وليمة او عقد ودعوت عشرين رجلاً ، جاؤوك ومعهم عشرون ولداً ، فتقلب الدار الى مدرسة او الى مارستان ويتحول المضيف الى معلم او قاضي اولاد ، وقديماً قال المثل العامي : « قاضي الاولاد شق نفسه » ... فإذا وقفت على الباب خادماً يمنع دخول الاولاد ، غضب الآباء المدعوون ، وانصرفوا ساخطين على هذا الذي لا يعرف « حقوق الضيافة » ! وقد يكون لك عدو تعرض لك بأنواع الاذى ، وأراك فنون العدوان ثم نشأت له حاجة عندك ، فزارك في دارك ، وأبى أن يشرب قهوتك حتى تقضي حاجته ، وربما كانت حاجته أن تنجح ابنه في الامتحان ... فإذا قضيتها خنت أمانتك وعاد الى مضارتك ... وإن أبيت عليه وأعرضت عنه ، وأفهمته أن الامتحان أمانة ، وان ابنه ضعيف كسلان لا يجوز نجاحه ، كنت الملووم المعاتب ، لأنك لم تحفل « بحقوق الضيافة » !

* * *

والضيف يزورك حينما يحلو له لا حين يحلو لك ، ويبقى ما طاب له البقاء
عندك ، ولا شأن له بفراغك ولا بشغلك ، ولا بضيق وقتك ولا بتعب أهلـك
وفي الغداة تجوز الزيارة ، وفي الضحى وعند الزوال ساعة الغداء وفي الظل
وقت الراحة ، وفي الاصيل وفي الليل . وقد يصل الزائر هذه الاوقات كلها
بعضها ببعض ، فيشرفك بزيارته من الصباح ويلبث (يؤنسك) الى وقت
المنام ، وقت منامه هو لا منامك أنت ، وربما زارك أقرباؤك ، او أقرباء
أقربائك بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ؛ وأقاموا عندك (صلة الرحم) أياماً
وليايلى ، ونعصوا عليك عيشك ، وافسدوا نظام دارك ، وأنت مضطر الى
السكوت لا تستطيع أن تقول شيئاً يمسّ (حق الضيافة) . وربما زارك
الزائرون في محل عملك ، فشغلوك عنه وأكسبوك غضب رؤسائك ، وسخط
زملائك .

* * *

ولقد كان الكرم والشجاعة عماد الاخلاق عند العرب وشعارها وجماع
امرها ، لمكان البداوة من حياتهم ، فقد كانوا يعيشون في قفار قاحلة وقرى
كالقفار ، لا فندق فيها ولا مطعم ولا خان ، وما للنازح فيها عن داره الا أن
ينزل ضيفاً على كريم يؤويه ويقربه ، ولم يكن في بلادهم شرطة ولا نيابة ولا
سجن فلم يكن الرجل الا سيفه يعتصم به ، فتعودوا الشجاعة والكرم حتى
صار ذلك طبعاً لهم وخلقاً ، وبالغوا فيها وجانبوا القصد ، فبلغوا التبذير
وقاربوا التهور ، وكان عذرهم في ذلك ان الرجل منهم يطعم حتى يطعم ،
ويقري الطارق الغريب كي 'يقرى' هو طارقاً غريباً ، واستمر ذلك الى الاسلام
بل لقد بولغ فيه بعده حتى أتى القوم بهذه العجائب التي نقرأ أخبارها في الكتب

وانتهى ذلك الينا فنشأنا على تقديس (حق الضيافة) وتقديمه على سائر الحقوق ، ورفعه مكاناً عالياً لا يناله النقد ولا التقويم ، واتهام من يقول فيه مثل مقالتي باللؤم والبخل . لذلك أقدمت عليها متريداً يدفعني إليها أننا في مطلع حياة جديدة يجب في مثلها تجميع الاخلاق والعادات وتقويمها والإبقاء على النافع منها وطرح مالا فائدة منه بعد ما تغير الزمان ، ولا يكون ذلك الا بالخروج من ربة التقليد الذي لا يفيد . ومنه تقليد أجدادنا الاولين في هذا الكرم القبيح الذي ذمه الله وسماه تبذيراً ، وجعل أهله إخوان الشياطين ، والقصد في الامر والتوسط فيه ، ووضع الامور في مطارحها ولو أن حاسباً مستقرباً نظر فيما ينفق عندنا في كل سنة على الولاثم والاعراس والمآثم من الاموال لهاله الحساب ، ولرأى ان هذه الاموال التي تنفق فيما لا طائل تحته ، ولا موجب له الا التقليد الضار ، يمكن ان ينشأ بها من المدارس والمصانع ما يرفع أمتنا درجات في سلم الارتقاء في آن قريب ، فضلاً عما يكون فيه من راحة البال ، واضطراد الاعمال ، ودفع المكاره التي ذكرت أمثلة عليها في مطلع هذه المقالة .

واذا كانت هذه الحاجة هي التي علمت اجدادنا هذا الكرم ، فأني حاجة تدفعنا الى الاستمرار عليه ؟ وما هو الضرر الذي ينال الضيف إن قلت له : أنا الآن مشغول فزرنى إن شئت في وقت آخر ؟ ولهم تحاف من ذلك وهو من آداب ديننا ، وقد كان من خلائقنا قبل أن يتخلق به الافرنج ؟ وماذا يضر الاهل والاقربين أن يهنؤوا بالمولود فلا يشربوا (الكراوية) ، وأن يحضروا (العرس) فلا يأكلوا الرز واللحم والبقلاوة ، وما هم في صحراء كصحراء العرب يحتاج فيها الى القرى ، ولا هم جياع قد حضروا للطعام ، وليس المقصد الا الاجتماع وقد حصل ؟ لقد خبرني صديق صادق مطلع أن نفقات عشر ولاثم فقط من أوسط ما يكون في الاعراس أو المآثم تكفي لفتح مدرسة ابتدائية .

تقتسع لمائتي تلميذ ، فما قولك بتفقات الولاثم كلها وسكاكر الاعياد وهدايا
الولادة والعرس ؟

* * *

أنا لا أرتقب من الامة أن تقرأ هذه المقالة وتنام ليلتها فتصبح وقد نبذت
هذه العادات وحددت آداب الزيارة ، وتنكبت سبيل التبذير ، فإن هذا
مألا يكون ، وإنما ارتقب أن أجد من القراء من وهبه الله الجرأة في الحق ،
والرغبة في الإصلاح فيسن للناس سنة (في هذا الباب) حسنة يكون له أجرها
وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، كما صنع في دمشق شيخها الشيخ طاهر
الجزائري رحمه الله . وعادات الافرنج في الزيارات والولاثم أصلح في الجملة بما
نحن عليه اليوم ، وتقديرهم للوقت أشد ، وهذا كله من آداب الاسلام ،
والسلف كلهم كانوا على مثله ، فلنقتبسه عن الافرنج اذا كنا لا نتبع فيه سلفنا
الصالح ، ولنجعل الزيارة آداباً وأوقافاً ، ولنعلم أن (حق الضيافة) لا يقدم
على حق المواعيد ، ولا حق العمل ، ولا حق الاهل ؛ وأن ردّ الضيف أهون
من احتمال الاذى ، وإخلاف الوعد ، وترك العلم ، وإضاعة الاشغال ولنجعل
إمامنا قول الله جل وعز « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم
حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لعلكم تذكرون
فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لعلكم
الرجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم . صدق الله العظيم .

العربية والإسلامية

نشرت سنة ١٩٤٦

سيقول القراء من المصريين : ما العربية وما الإسلامية ، وهما شيء واحد؟ ومن قال بالعربية قال بالإسلام ؛ لأن العربية لم تكن شيئاً مذكوراً لولا الإسلام . ومن قال بالإسلام قال بالعربية ؛ لأن الإسلام دين ، نبهه عربي ، وقرآنه عربي ، وقبلته في بلاد العرب . والنداء الى التوجه اليها بلسان العرب؟! لا يدري القراء من المصريين أن هذا حديث المجالس في الشام والأنسية والمدارس ، لا يمر يوم دون مناظرة فيه بين الشباب المسلمين الذين يحسبون أن من الإسلام محاربة الفكرة العربية وترك قيادها لغيرهم ، والشباب القوميين الذين يظنون أنهم يستطيعون تجريد العربية من الإسلام والدعوة اليها على أنها قومية من القوميات .

وكذلك كانت الحال لما كنا ندرس في مدارس العراق حين اشتدت الدعوة القومية على عهد سامي شوكت (في وكالة وزارة المعارف) واستجاب لها المدرسون خوفاً وطمعاً . ومنهم من استجاب لها عن إيمان بها ، ولم يبق ثابتاً على إسلاميته الا ثلاثة : عبد المنعم خلاف ، ومظهر العظمة ، وعلي الطنطاوي ، نقلوا جميعاً الى شمال العراق ، الى مناطق الاكراد . فاستقال الأول وعاد الى

مصر ؛ وعاد الثالث الى الشام بعد شهر ؛ وثبت الثاني الى نهاية حركة رشيد عالي الكيلاني .

غير أن الفرق بيننا وبين العراق ، أن الدعوة القومية هي الغالبة على شبابه والقوميون الملمحدون قلة في الشام . واكثر أهل الشام يقولون بالاسلام والعربية . والكلمتان على لساني أنا وكتاباتي من اكثر من ربع قرن ، كالمترادفتين ؛ أقول الاسلام وأريد العربية ، وأكتب العربية وأقصد الاسلام لذلك أجهدت ذهني ، وكددت فكري ، حتى استطعت إدراك جوهر الخلاف بين الفريقين . وما ذاك عن جهل مني بحجج الطرفين وأقوالهما ، فلقد حفظتها من كثرة ما سمعتها ؛ بل لغموض صورة الدعوة العربية حتى في أذهان أصحابها ، وأنهم حين يكتبون فيها ، أو يجادلون عنها ، يأتون بشيء هو الى الفلسفة الغامضة ، والخطايبات الفارغة ، أدنى منه الى التعريف العلمي الواضح وجوهر الخلاف إنما كان على بناء الدولة . هل تكون إسلامية ، ويكون الاسلام هو الرابطة بين افرادها فيدخل فيها المسلمون جميعاً ويكونون أمة واحدة ، أم تكون عربية ، وتكون الرابطة رابطة الجنس ، فكل عربي هو منا ولو لم يكن مسلماً ، وكل أعجمي ليس منا ولو كان مسلماً ؟

أي أن ثمة الخلاف كما يقول الفقهاء ، في العربي غير المسلم ، والمسلم غير العربي ، أيها الذي يجب أن نتولاه نحن العرب المسلمين ؟

وأنا سأحاول أن أثبت في هذا الفصل ، أنه ليس بين الاسلام والعربية تناف ولا تباین ، وأن المسلمين أمة واحدة وأنها اشد تماسكاً ، وأدنى الى الوحدة من مجموع العرب ، وأن هذا الخلاف ليس له ثمة ، لأن إخواننا العرب غير المسلمين ، عاشوا معنا ، وسيعيشون معنا ، ما ضقنا بهم ولا ضاقوا بنا ، وما ظلمناهم ولا شكوا من ظلمنا ، وأن الشباب المسلمين هم أحق الناس بحمل لواء

العربية المسلمة ، والدفاع عنها ، والعمل على تجديدها وفيما يلي تفصيل هذا الاجمال :

من الوجوه النظرية

إن في (نظرية الدولة) آراء كثيرة يدرسها طلاب كليات الحقوق أشهرها رأي رينان . ونحن نطبقه على هذا البحث ، لا لأننا نجد لزاماً علينا أن نتبع الغربيين حتماً في مذاهبهم ، ونفكر بروؤوسهم ، بل مجازاة لمن يقول بذلك من الشباب وقلباً لدليلهم عليهم ، وإلا فنحن نعلم أن لدينا من رأي الاسلام في إقامة الدولة ما هو أصح من رأي رينان صحة ، وأكثر نفعاً لنا ، وتحقيقاً لمصلحتنا ، وإن كان رأي رينان هذا لا يبعد كثيراً ، ولعله أخذه من رأي الاسلام الذي كان على إمام بأحكامه .

الدولة عند رينان لا تبنى على الارض وحدها ، فرب دولة معترف بها تكون أرضها محتلة فيها أعداؤها . ولقد شاهدنا في الحرب الاخيرة دولاً كثيرة بلا أرض ، وكان في مصر طائفة منها ، كل دولة في جناح من فندق شبرد . ونشاهد الآن دولة عموم فلسطين . ولا تبنى على اللسان فإن أماننا دولاً فيها أكثر من اسان كسويسرة ، ودولاً لها لسان واحد كان ككتروا وأمريكا ؛ ولا على الدين (من حيث هو صلة بين العبد وربّه)^(١) فقد تعدد الأديان في الدولة وتعدد الدول في الدين ، بل على ما سماه (الارادة المشتركة) فكل كتلة جمع بين أفرادها تاريخ واحد وأمل واحد ، وكانت موحيات تاريخها ، وكانت مطامحها في مستقبلها ، متشابهة في نفوس أفرادها ، كانت هذه الكتلة أمة وحق لها أن تنشئ دولة . وشرح هذا المتن الموجز معروف مشهور

فلنبحث عن هذه الادارة المشتركة في الكتلة العربية وفي الكتلة الاسلامية ؟ هل للعرب إرادة مشتركة ؟ هل تتحد موحيات الماضي ومطامح المستقبل في

(١) والاسلام منه ما هو دين بهذا المعنى ومنه ما هو تشريع وما هو اخلاق .

نفوس العرب جميعا؟ اذا قرأت أنا وعربي من جبل لبنان الماروني تاريخ الغزوات الصليبية . فهل يكون أثر هذا التاريخ في نفسي مثل أثره في نفسه ؟ هل يطمح مثلي الى الوحدة ، ويشاركني في المثل الأعلى الذي أتمثل المستقبل عليه ؟

من الوجهة الواقعية

بل تعالوا ننظر الى الواقع ، هل استطاعت جامعة الدول العربية بعد هذه السنين الطويلة والمحاولات الكثيرة ، أن تجد لها هذه (الارادة المشتركة) ؟ ألم تبد هذه الارادة في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في كراتشي بصورة اوضح واطهر على رغم أنه مؤتمر وليس جامعة دول ، وأنه جديد مرتجل لم تعد له العدة ولم يبذل في سبيله جهد ؟

من وجهة المصلحة

وقد مضى عهد القوميات واصبح تاريخياً يدرس في المدارس ، وانقسم العالم اليوم الى قسمين كبيرين مختلفين : قسم في شرق الأرض وقسم في غربها . وما اختلفا في الحقيقة على عقيدة ولا مبدأ ! وما اختلفا الا علينا نحن الامم الضعيفة . وما استعدا الا للحرب في سبيلنا أيها يفوز غنيمة باردة أو سخنة بنا . فهل من المصلحة أن نبقي متفرقين منقسمين أو أن نتحد ونتقارب ونقيم من انفسنا قسماً ثالثاً محايداً ، لا يقاتل على غنيمة ولا يدع أحداً يجعل منه غنيمة؟^(١) وإذا ثبت أن المصلحة في الاتحاد (وذلك ثابت قطعاً) فهل تؤلف كتلة من ثمانين مليوناً مشكوكاً في اتحاد ابنائها في الذكريات والآمال والارادة

(١) وهذا ما نحاول ان نكون عليه الآن .

«العامّة؟ أم كتلة من خمسة مليون؟»^(١)

هذا ومن المفهوم المعلوم من الدين ومن العقل ومن الماضي بالضرورة اننا لا نتخلى عن هؤلاء العرب غير المسلمين ولا نعدم غرباء عنا ، بل هم إخواننا في العيش ما أحبوا اخوتنا ، لهم مالنا وعليهم ما علينا . وهذي نصوص ديننا وهذي وقائع تاريخنا ، شاهدة على دعوانا . فلا مجال لإثارة العصبية ، والافساد بين الاخوان من هذه الناحية ، فلا يطمع في ذلك المفرقون المفسدون ..
وبعد فما هي حدود الاتصال بين العربية والاسلامية ؟

من الوجوه المبرئة

أما الاسلامية معروفة واضحة ، وللمسلم تعريف شامل وحدّ منطقي ، فما هو حد العربي الذي يشمل الافراد ويخرج الأضداد ؟
إني لم أجد لدعاة العربية الى اليوم هذا التعريف الجامع المانع للعربي . من هو العربي ؟ أما من عرفنا من قومي العراق ، فان العربي عندهم هو عربي النسب ، أي أنهم على مذهب العنصرية (Racisme) ومقتضى ذلك أن يكون بشار مثلاً شاعراً فارسياً ، وابن الرومي شاعراً يونانياً ، بل إننا لو ذهبنا هذا المذهب لكان ملك الانكليز غير إنكليزي . ولكن من الواجب الحجب عليه خلال الحرب الماضية لأنه من رعايا الألمان ؟
ومن منا اليوم يستطيع أن يرتفع بنسبه الى ربيعة أو الى مضر ، أو الى أي فرع من فروع الشجرة العربية ، الا أن يكون نسباً ملفقاً كأكثر أنساب الاشراف الذين منحو الشهادة بأنه منهم الملك الصالح ... فاروق !

(١) يبلغ المسلمون اليوم بالاحصاء نحو خمسة مليون .

وأما من عرفنا من قومي الشام فإن لهم أقوالاً أشهرها أن العربي هو من يتكلم العربية لغة أصلية له ، ويعيش في بلاد العرب ، ويشترك العرب آلامهم وآلامهم . وهذا التعريف كالنحاس المطلي بالذهب ، إن مسسته يرفق كان ذهباً له وميضه ولمعانه ، ولكنك إن وضعته على المحك خرج نحاساً ! لأنت من غير العرب الذين عاشوا في بلاد العرب ، كالأرمن في الشام والأروام في مصر من ينشئ أولاده على الكلام بالعربية كأهل البلاد من العرب ، ثم إنه يعيش بينهم ! أما المشاركة في الآمال والآلام فشيء خفي لا يعلمه إلا الله ، ولا تظهره إلا التجربة ، ولا يصح أن يكون مقياساً منطقياً . وإذا أردنا أن نحصى سكان بلدة ما من العرب ، فكيف نقيم الامتحان العام لمعرفة آلامهم وآلامهم وما يشاركون فيه وما يخالفون ؟

ثم إن من العرب من يتكلم في بيته نظرفاً أو تقليداً بالفرنسية ، ويقم في غير بلاد العرب ، وليس في نفسه أمل لأمة ، ولا ألم عليها . لا يهتم إلا بخاصة أمره وجوالب لذته وراحته . فهل نعد هذا من غير العرب ؟ وماذا يكون : فرنسياً أو إنكليزياً أو ماذا ؟

أما الاسلام فعقيدة يعبر عنها قول معين ، وعبادة وخلق ، فمن نطق بالكلمة المعبرة عن العقيدة ، وأدى فروض هذه العبادة ، وتخلق بهذه الاخلاق ، فهو واحد من المسلمين ، مهما كان لونه وجنسه ولسانه .

من الوجهة الاسلامية

والاسلام لم يكتف بإسقاط الجنسية من حساب ، بل لقد حاربها ، ومنع كل دعوة الى عصبية جنسية أو قبلية ، وسماها دعوة الجاهلية . وجاء منذ أربعة عشر قرناً بما انتهى اليه العالم اليوم ، حين أسقط حواجز القوميات وأقام كلاً من

كتلتيه على عقيدة ومبدأ ، فقسم الاسلام الناس الى قسمين : الذين آمنوا ، والذين كفروا . ووجه الخطاب اليهم ، بهذا العنوان ؛ فكان من الذين آمنوا - وهم افراد الدولة الاسلامية - رجل رومي هو صهيب ، ورجل حبشي هو بلال ، ورجل فارسي هو سلمان ، ثلاثة رموز للدول الكبرى يومئذ . وكان من الذين كفروا العربي القرشي الهاشمي عم محمد وأخو أبيه وابن جده أبو لهب . وكان هؤلاء الثلاثة منزلة رفيعة في الدولة الإسلامية ، فكان بلال وزير الدعاية يعلن مبادئ الاسلام (بالأذان) خمس مرات كل يوم . وكان سلمان معدوداً على لسان النبي من أهل بيت النبوة . ونزل في شتم أبي لهب قرآن فنحن نقرأ في صلاتنا ذم أبي لهب

ولكن الاسلام لم يطمس الوقائع التي تجعل للعروبة مكاناً ظاهراً في دولته فالنبي عربي ، والعرب قومه ومنهم أصحابه الاولون الذين نشروا الدين ، وأبلغوه أهل المشرق والمغرب . والقرآن كتاب عربي ، والحج الى بلد عربي ، فكل مسلم مضطر بذلك الى حب العرب وتقديرهم ، وتعلم لسانهم ، وزيارته أرضهم .

ولولا الاسلام ما انتشرت لغة العرب ، ولا أقبل الناس عليها ، حتى أن مسلمي الصين اليوم يتكلمون العربية . وعرب الاسلام آلاف المدن ، فهل يستطيع شباب الدعوة العربية اليوم أن يعربوا قرية واحدة تركية أو كردية باسم العربية ؟

ولما نقلت الى شمال العراق : الى كركوك ، كان الطلاب كارهين لدرس العربية ومدرسه لما كان يسوؤهم به من الدعوة الى القومية العربية وهم أكراد وأتراك . فلما دخلت أحسست هذه الكراهية في نفوسهم ، فخطبتهم خطبة قلت لهم فيها إن العرب كانوا أضل أمة فهداهم الله بهذا الدين الذي تشرف جميعاً

بالانتساب اليه ، والذي منع دعوة الجاهلية ، وحرّم العصبية ... الى أن قلت لهم : فتعلموا العربية لا من أجل هؤلاء القوميين من العرب ، بل من أجل محمد الذي تحبونه ، والقرآن الذي تقرؤونه ، والله الذي تعبدونه .

ففاضت العيون بالدمع ، وخشعت القلوب ، واحمت الكراهية من الوجود وصار درس العربية أحب الدروس اليهم

وذهبت مرة الى السلبيانية سنة ١٩٣٨ وهي قصبة الاكراد ، فمررت في آخر السهرة على مسجد فيه عين ماء لنشرب منها ، وكانت ليلة صيف ، وكانت معي شباب مجادلوني في العربية والاسلامية ، فوجدنا على بساط في أرض الجامع شابين كرديين من طلبة العلم الديني منبطحين على وجهيهما وأمام عيونهما مصباح وكتاب في اصول الفقه ، فيه عبارة معقدة ، فهما يحاولان فهمها وتفسيرها ، ويستعينان بإعرابها ورد ضماؤها الى مكانها ...

فقلت : ألا ترون ؟ إن هذين يشتغلان بلغتكم العربية اكثر من اشتغالكم أنتم بها ، لأنها عندهما دين ، فهل تستطيعون أن تجعلوا فتى كرديا غير متدين يقبل باسم قوميتكم هذه على العربية ؟ فسكتوا

من الوجهة التاريخية

ثم إنني أحب أن أسأل من هم هؤلاء العرب الذي تفخرون بهم ، وتعتزون بأبجادهم . هل هم عرب الجاهلية والعهود التي كانت قبلها ، والتي لم يدر كها نور التاريخ ، ولم يصل اليها علم المؤرخين الا قليلا ؟ أم عرب دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وهاتيك المدن والمدارس والمكتبات والمؤلفات ، وذلك العلم والأدب ؟

أما الجاهلية ، فإننا لا نعرف شاعراً واحداً فيها ذكر العرب أمة ، وافتخر

بالعروبة جنساً . إنما كان فخر كل شاعر بقييلته ، بيكر أو بتغلب أو بعبس
أو بكندة ، وهذي هي المعلقة ، وهذه اشعار الجاهلية ، فهل فيها فخر
بالعرب ؟

إن الذي جعل العرب كتلة واحدة من الكتل التي اندمجت في الوحدة
الاسلامية ، هو الاسلام

وكل ما كان للعرب بعد من مجد وعظم وعلم وسلطان وحضارة وفخار
إنما صنعه الاسلام ، فكيف يتفق في منطق هؤلاء القوميين أن نفخر بالفعل
وننكر الفاعل ، وأن نمجد أثر الاسلام ولا نفر بالاسلام .

يقول بعض المتحمسين من شباب القوميين إن في العرب قوة كامنة انتفضت
مرة فكانت الاسلام . وستكون لها انتفاضة جديدة تخرج بمظهر آخر ، ولكن
لا هم ولا نحن ولا أنتم تعرفون ما هو المظهر الآخر !

وهم يعظمون محمدا ويكبرونه ، ولكنهم لفرط الحماسة (وحماسة الشباب
أحيانا تقوى على حساب العقل) يسيئون الى محمد الذي يعظمونه ويصومونه بأكبر
ما يوصم به رجل وهم لا يشعرون . يصومونه بالكذب : هو يقول لهم إنه رسول
من الله ، وإن هذا القرآن ليس من عنده نفسه ، وهم يقولون لا بل إنه هو
الذي ألف من عبقريته ونبوغه هذا القرآن

أفرايت الى أين تصل حماسة الشباب (وكدت أقول حماقة الشباب)
بأصحابها ؟

ويأتون بكلام له رنة ودوي كدوي الطبل ، وإن كان فارغا من المعنى
فراغ الطبل من الشحم واللحم . يقولون (وهذا شعار حزبهم) : أمة واحدة
ذات رسالة خالدة

وما زالوا يهتفون بذلك ويرددونه حتى اقتنعوا بأنه من كلام النبوة الاولى
مع أنه لا معنى له . لأن العرب كما بينا من قبل ، ليسوا بجاهلهم الحاضرة أمة
واحدة ، بل المسلمون هم الأمة الواحدة . ولأن هذه الرسالة إن لم تكن
الاسلام كانت مجرد كلام

من الوجهة التطبيقية

والقومية (كل قومية في الدنيا) إنما تقوم على دعائم ثلاث : اللغة ،
والعادات ، والتاريخ

أما اللغة فإنها بعلمها وفنونها ، كالفلك الذي يدور على قطب واحد ،
وقطبها القرآن ، وما أنشئت هذه العلوم كلها الا خدمة له ، النحو لمنع اللحن
فيه ، واللغة لتحقيق عربيته ، والبلاغة لإثبات إعجازه ، والتفسير لشرح معانيه
الى غير ذلك بما هو معروف

ودعاة الاسلام كانوا ولا يزالون ، وسيكونون أبداً هم أئمة اللغة وفرسان
بلاغتها ، وأرباب البيان فيها . وما عهدنا للآخرين كاتباً بيتاً ولا راوية ولا عالماً
معترفا بإمامته وتقدمه في علوم اللغة

وأما العادات العربية (على أنه ينبغي الإبقاء على حسناتها ، والتخلص
من سيئها) فما رأينا في دعاة العربية من يتمسك بها ! ولقد رأينا أكثرهم يعيش
عيش الافرنج ، يأخذ اوضاعهم في طعامهم وشرابهم ولباسهم بل ربما تزوج
من نساءهم وكنسهم أهلهم (طبعاً) بلسانهم

وأما التاريخ فواحد . تاريخ العرب هو تاريخ الاسلام . لو حذفنا منه

الاسلام وما نشأ عنه لم يبق للعرب شيء ، فالعرب ولد مجدهم وتاريخهم يوم
مولد محمد

* * *

الخلاصة ان العربية والاسلامية كدائرتين : صغيرة وكبيرة ، إحداهما
وسط الاخرى الالهلالاً دقيقاً ، هو موضع الاختلاف بينهما . أي ان بينهما
باصطلاح أهل المنطق عموماً وخصوصاً عاماً الا من وجه واحد ، هو مسألة
المليونين من العرب غير المسلمين ، والاربعمئة مليون من المسلمين غير العرب ،
أيها أحق بأن تتولاه ؟

وكل ما يقول به دعاة العربية (فيما عدا إنكار الوحي وقطع الأخوة في
الاسلام يقول به دعاة الاسلامية) بل نحن أحق به وأولى ، نحن أعلم بالعربية
وبتاريخها واجادها ، ونحن نعمل أكثر منهم على تمجيدها بالاسلام وإعلاء شأنها ،
ونحن اصدق منهم إن قلنا عن أمة محمد (أمة واحدة ذات رسالة خالدة) .
والعجيب ان يظن أحد أننا نخلينا عن القيام بالدعوة الى العربية ، لا ... ما نخلينا
عنها ولكن ندعو اليها تحت راية القرآن التي عز بها العرب وشرفوا وصار لهم
في التاريخ ذكر ، وفي الدنيا مقام

إننا نحب العرب لأنهم قوم محمد ، واللسان العربي لأنه لسان القرآن ،
وموطن العروبة لأن فيه مشاعر الحج والقبلة التي يتوجه اليها المسلمون من
أقطار الارض ، ويدعون الى الصلاة اليها بلسان العرب الذين نزل بلسانهم
القرآن : حي على الصلاة ، حي على الفلاح . ولكننا لا ندعو الى عصية ، ولا
نعدل بأخوة الاسلام أخوة

ونحن ندعو الى الوحدة العربية ، لكن على أن تكون طريقاً الى الوحدة

الاسلامية ، ولا ننكر اخواننا في الوطن والاسان من النصارى ، لكننا
نسألهم ألا يطلبوا منا وهم مليونان ان نقطع لأجلهم روابط أخوتنا بأربعمئة
مليون مسلم غير عربي ، ويحبوننا ونحبهم ، ويشاركوننا عقائدنا وعبادتنا .
وفهم بعد دولتان من اكبر دول الارض : باكستان واندونيسيا ، لا
تدخر إحداهما في نصرنا وسعنا ، ولا تبخل علينا بدم ولا مال !
وهل قطعوا هم حبالهم من حبال البابا في إيطاليا ، وغير البابا في إيطاليا ؟
حتى نقطع حبالنا من حبال اقوام يحبوننا ويخلصون لنا ؟

عربية إسلامية

نشرت سنة ١٩٥٦

دعني من أشهر جمعية الارشاد في الكويت الى القاء محاضرات وكانت المحاضرات في بهو صلاح الدين ، الذي يتسع لثلاثة آلاف وكان منها محاضرة عنوانها بين العربية والإسلامية ، احتشد لها الفريقان : الاسلاميون والقوميون وجمعوا جموعهم ، وجاؤوا وعيونهم محمرة ، وقد استعدوا للمعركة ، وتوقعوا جميعاً (وتوقعت أنا) الشر ، ثم فكرت ، وقلت في نفسي -أنا من أكثر من عشرين سنة في معارك متصلة « بين العربية والإسلامية » أجادل القوميين ، وانكر عليهم دعوتهم الى العربية ، وهم يأبون عـلى دعوتي الى الاسلام ، وكتب في ذلك مايجيء ان جمع في كتاب كبير ، ولم يخطر لي أن أنظر يوماً في العربية والإسلامية ، ما حقيقة أمرهما ، وهل بينهما تناقض كالتناقض بين الوجود والعدم ، بحيث لا يجتمعان ولا تنعدمان ، فلا يكون المرء عربياً مسلماً ، ولا يكون إلا عربياً أو مسلماً ؟ .

هل بينها تضاد كالتضاد بين السواد والبياض ، بحيث ينعدمان جميعاً ، ولكن لا يجتمعان ؟ ما حقيقة الصلة بينهما ؟ .

وجعلت هذا موضوع المحاضرة ، فلما انتهت نظر كل من الفريقين في وجوه
الآخرين يفتشون عما كانوا يتوهمونه من العداوة والخلاف فلم يجدوه ،
وخرجوا كالأخوة المتضامنين .

فأحببت أن أعود اليوم الى هذا الموضوع ، رغبة مني في تصحيح رأي
الاسلاميين في العربية ، والقوميين في الإسلام وفي احلال السلام بينهما محل
هذا الخصام .

* * *

انه ليس بين العربية والإسلامية تناقض ولا تضاد ، بدليل أني (أنا نفسي)
عربي واني مسلم ، وان الصفتين قد اجتمعتا فيّ ، فلو كان بينهما تناقض أو تضاد ،
لكنت مناقضاً نفسي وهذا محال . وأكثر القراء يجمعون في أنفسهم بين
الصفتين فهم عرب ، وهم مسلمون . والرسول صلوات الله عليه وصحبه كانوا
عرباً وكانوا مسلمين . والقرآن كتاب الإسلام وكتاب العربية ، فهو الدين
لمن أراد الدين ، وهو البيان والبلاغة لمن أراد البلاغة والبيان .

واذا شئت تحديد الرابطة بين العربية والإسلامية ، وجدت بينهما باصطلاح
« اهل المنطق عموماً وخصوصاً من وجه ، ولا أحب أن أكون رقيقاً فأخاطب
جمهرة القراء باصطلاحات المنطق ، بل أحب أن أقرب الامر اليهم ، فاصوره
لهم دائرتين كبيرة وصغيرة ، والصغيرة وسط الكبيرة ، الا هلال منها خارجاً
عنها ، فاذا رمزنا بالكبيرة للإسلام ، وبالصغيرة للعربية ، وجدنا أن العربية
تنطوى في الاسلام الاجانباً منها ، فهناك ما هو عربي إسلامي ، وما هو إسلامي غير
عربي ، وما هو عربي غير إسلامي ، وإذا لم يكن بد من الاختلاف والتنازع ، فبين المسلم
العربي والعربي غير المسلم ، أما نحن المسلمون العرب ، فاننا تناقض أنفسنا حين

نفرق بين صفتين قائمتين بنا ، ونحن قائمون بهما ، ونجعل للتناقض سبيلا الى الدخول بينهما .

والفكرتان من التداخل بحيث لا يسكاد يظهر الخلاف بينهما ، وبحيث أن أشد الناس بعداً عن الاسلام من غلاة القوميين ، أعني من النصاري و ممن لا يدين بالاسلام ، لا يستطيع أن يجرد العربية من الاسلام ، وماذا يبقى له من العربية اذا لم يكن فيها محمد ﷺ وصحبه وأتباعه الذين فتحوا الارض ، وسادوا المدائن ، وأقاموا هذه الحضارة ، وإذا لم يكن فيها القرآن ، الذي وضع هذه العلوم كلها .

ما الذي يبقى من العربية إن لم يكن فيها محمد والقرآن ؟ .

هل تبقى الا المعلقات وبطولات حرب البسوس التي لم تزدد على (خناقة) في حي ، وموقعة ذي قار التي طار العرب فرحاً بها ، حين غلبوا فيها فصيلة من جند كسرى ؟ وغمدان والخورنق والسرير ؟ اين هذا من الحضارة التي اقامها محمد ﷺ وأتباعه ، والبطولات التي اظهروها ، والمجد الذي بنوا ، فارسوا أسسه على الصخر وساموا بشرفاته النجم ، وتركوه يزاحم بمنكبه في ميدان الخلود الدهر .

ان غير المسلمين من القوميين لا ينكرون ، ان الذي أخذ بيد العرب حتى دهم على طريق المجد ، وسلك بهم مسالك الفتح ، ووضع في رؤوسهم فكر العالم ، وبين أصابعهم قلم السكائب ، والبسهم تاج السيادة في الدنيا ، وأقدمهم مقعد الاستاذية من البشر جميعاً ، هو محمد ﷺ .

فلننظر الى أشد المسلمين بعداً عن العربية ، أعني الاعاجم ، هل يستطيع أحد منهم أن ينكر أن محمداً عربي ، وان القرآن عربي ، وان الله كان أعلم حيث يجعل رسالته ، ولو كان في الأرض أولى بها من العرب لجعلها فيهم ، إنه لم يختزلها

المتمدنين الذين يعيشون في المدائن في ظلال الابوان ، ولا في القسطنطينية
 بجوار الابراج والقباب ، ولم يختار لها رجلاً من بلاد الكروم والاعناب ، ما
 اختار الا هذا الشعب الصحراوي القوي العبقري الذي لم يتعفن برطوبة المدن
 الموبوءة ، ولم يتلوث باوضار الحضارة المزورة ، بل بقي على الفطرة ، على خلال
 الخير وسلائق الطهر ، وانه هو الذي حمل المصباح الذي اوقده محمد عليه الصلاة
 والسلام ، فضوأ به للدين كله طريق الحق والعدل والخير ، وان القرآن الذي
 يتلونه في صلاتهم عربي ، لا يفهم الا بتعلم العربية ، وان الكعبة التي يتوجهون
 اليها ، ولا يرون أمنية تعدل الحج اليها والتعلق باستارها ، هي بنية عربية في
 بلدة عربية ، وان الارض التي انبثق منها نور الاسلام ، وهبط اليها الوحي ،
 ودرج على ثراها محمد وصحبه ونشق هوائها ووطئ حصاها ، ثم ثوى بين
 احشائها هي ارض عربية ؟ .

لذلك ترى المسلمين في كل بلد يحبون العربي ، ويتبركون به ، ولقد رأيت
 العجائب من ذلك ، رأيتها بعيني لما ذهبت إلى باكستان والهند والملاياواندونيسيا .
 ولذلك جعل الاسلام كل بلد فتحها ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب
 بلداً عربياً بلسانه ، عربياً بقلبه ، وجعل من غير العرب من هم اليوم أئمتنا
 وأساتذتنا نحن العرب في لغتنا ، في اللغة والنحو والصرف والبلاغة ، وجعل
 منهم كبار شعرائنا وكتابنا ، ولا أحب أن أمثل بأبي عبيدة وسديويه
 والزخسري وبشار وأبي نواس وابن الرومي ، فإن المسألة أشهر وأعرف من
 أن يمثل عليها ، وما نتم متعلم إلا وهو يعرفها ويسوق عشرات الاسماء
 شاهداً عليها .

ونحن اليوم لانرى جماعة من المسلمين إلا وهم يعرفون العربية أو يعرفها

علماؤهم على الأقل معرفه فقه بها وفهم لها وتوسع فيها ، في الصين وتركستان
وبخارى والهند وجاوه . وهذا كله من أثر الاسلام .

* * *

فليس بين العربية والاسلامية ما يدعو الى هذا الخلاف المستمر بين الدعاة
اليها ، انما الخلاف بيننا وبين من يحاول أن يجعل من القومية ديناً يناوئ به
الاسلام ، أو يجعل من العربية أخوة يستغني بها عن أخوة الاسلام ، يريد أن
يفك باصابعه العقدة التي عقدها الله من فوق سبع سماوات ، حين قرر أن المؤمنين
أخوة ، وان الأخوة هي أخوة الايمان ، لا أخوة اللغة والجنس واللون والبلد .
وان نقطع صلتنا باربعمائة مليون من أخواننا المسلمين غير العرب لنسترضي بهم
مليونين من العرب غير المسلمين ، وهؤلاء العرب غير المسلمين عاشوا معنا ،
راضين عنا ، ألفا وثلاثمئة سنة ما قالوا شيئاً ، حتى جاءت بدعة القومية ، وجاء
القوميون منا يقولون عنهم ما لم يقولوا هم أنفسهم .

الخلاف بيننا وبين من يخالف احكام ديننا ، وكتاب ربنا . واذن
يكون خلافاً بين كفر وإيمان ، لا بين عربية وإسلامية ونحن نأبى الكفر سواء
أكان صاحبه أعجمياً أو كان عربياً قرشياً هاشمياً .

وكان أول من نهني إلى أن هذا الغلو منا في النفور من كل دعوة عربية ،
خالي الاستاذ محب الدين الخطيب أول دعاة العربية في مطلع هذا القرن ، وأول
دعاة الاسلام بعد ذلك ، وقال لي ، إنكم تخلّيتم عن قيادة الدعوة العربية ،
وتركتموها لهؤلاء فصبغوها بهذه الصبغة الجاهلية ، وأنتم في الحقيقة أهلها وأنتم
أحق بها .

وأنا أريد أن نعود إلى حمل لواء العربية ، العربية المسلمة ، وأن نعيد لها

عزها ومجدها ، وما عزها ولا مجدها إلا بالاسلام ، وأن نكون مسلمين يدعون إلى الاسلام ، وأن نكون عرباً نعتز بالعربية ، وأن نجتمع بينها في أنفسنا وعلى السنتنا وعلى أعلامنا ، وأن نعود إلى البيان العربي الذي نزل به القرآن ، ونحيي لغة العرب التي جاءت بها الشريعة ، وأن نعرف تاريخ العرب لأنه تاريخ الاسلام ، وأن نحافظ على سلائق العرب وأخلاق العرب التي أقرها وارتضاها الاسلام ، وأن نكون مع كل داع إلى هذا قائل به ، فإن جاء من ينكر نبوة محمد ﷺ ويراه عبقرياً مجرد عبقرى ، أو يريد أن نقطع حبل الأخوة الذي يربطنا باخواننا المسلمين ، أو أن يحل أخوة الارض واللغة والجنس والبلد مكان أخوة الاسلام . قلنا له : لا ، لا ، ولا كرامة ، إن الاسلام قبل كل شيء ، ولو أعطينا الدنيا بكنوزها وإجمادها ولذاتها ، على أن ننزل عن ذرة واحدة من ديننا ، لأبيناها وبصقنا عليها احتقاراً لها ، لأن الدنيا كلها لا تعدل في نظر المسلم ذرة من الاسلام .



في القهوة

أذيعت سنة ١٩٥٨

ليس هذا بالحديث الذي يعلو بسامعيه الى سماء الفن والعاطفة والفكر ولكنها قصة من قصص البلد ، لا ترتفع بهم عن أرض الواقع ، إنه مشهد من مشاهد الحياة ، وكذلك تكون أحاديث الاذاعة ، يوماً من الماضي ويوماً من الحاضر ، ومرة للاستمتاع بجمال الفن ، ومرة للعمل على اصلاح المجتمع ، وحديثاً للخاصة من المتعلمين وحديثاً للجمهور السامعين فمن لم يعجبه حديث فيها ولم يجد فيه ما ينتغي ، فليرقب آخر فلعله الذي كان يريد .

وهذه القصة أنه حكم على البارحة بلا ذنب أذنبته ، ولا جرم ارتكبته ، وابلغت القرار بنفي وابعادي عن الدار ، التي أنا (ولا فخر) ربّها وصاحبها ، وانذرت بألا أعود الا اذا مال ميزان الليل ، ودنا السحر ، ذلك ان الدار كانت تعجّ بالمدعوّات الى حفلة نسائية^(١) ، فكأنها الحمام قد انقطع عنه الماء ولو انه سمح لي لما اطلقت البقاء ، وكنت امرأة حليف البيت ورفيق الكتاب ، أعود الى بيتي من قبل المغرب ، وان أنا سهرت مرة في الشهر أو الشهرين ، فإنما اسهر الى الساعة العاشرة لا أعدوها ، فكيف امضي اكثر الليل خارج الدار ، والى أين

(١) بمناسبة زواج ابنتي الثانية .

أذهب ؟ حرت في أمري ، وضاعت على السبل ، ثم ازمعت دخول قهوة من هذه القهوات ...

... وقصدت قهوة كنت أعرفها ، فدخلتها متردداً مستحيماً ، أحسب أن عيون الناس كلهم قد توجهت الى ، وانظاؤهم قد انصبت على ، ادور بين المجالس اكاد اتعثر بنارجيلة او سهوة (طريزة) حتى وجدت صديقاً لي رأني فقام يستقبلني هاشاً باشاً متعجباً ، ودعاني فجلست ...
- قال لي : عجباً ، أراك في القهوة ؟
- قلت : هذا حكم القدر .

وضحكت وقصت عليه القصة ، ثم اخذنا نتحدث ، فكان عن أيماننا اثنان يلعبان بالنرد (الطاولة ^(١)) ، وكلما نقلنا حجراً خطاه خطأ منكراً ، فاحس بصوته (طسخ) كأنه ضربة على رأسي ، وعن شمائلنا آخران ، يلعبان الورق وحولهما جماعة من الشباب ، وكلما القى احدهما ورقة صرخوا صرخة اشعر كأنها تنقب طبله أذني ، ومن ورائنا حلقة فيها نوادر ، فكلما جاءت نادرة قهقهوا قهقهة ترج القهوة رجاً ، وخلال ذلك ، ترتفع الصيحات (من عاوز مي ؟) (واحد قهوة مظبوط) ، (شاي خفيف) ، (هات بصة) ، (نفّس عجمي لهون) ، (عشّي) ، (مين بدو عشّي !) والرادّ يزلزل الجوّ باغنية من أغاني فريد الاخرس - عفواً أقصد الاطرش ! وما كان ثمة الا من ينفخ من فمه أو من أنفه دخاناً ، فكل رجل مدخنة ، والهواء فاسد مفسد ، فما مرّت على عشر دقائق حتى أحسست كأن قد دير بي (دخت) ، وان أعصاني قد تحطمت ، فقامت لأذهب
قال صاحبي : الى أين !

قلت : الى حيث ... الى حيث أجد الهواء ، والهدوء ، والراحة ...

قال : ألا تشرب شيئاً ؟

(١) وهي حرام كالورق ، وكذلك كل لعبة مدارها على الحظ ، بخلاف الشطرنج وامثاله من اللعب التي يكون مدارها على البراعة والمعرفة .

قلت : قد شربت كأس الأذى حتى الثمالة فدعني اخرج ، فما بقى بي طاقة على الاحتمال ...

قال : اخرج معك .

قلت : تفضل .

ولما صرنا في الشارع ، ونشقت الهواء ، واستراحت أذناي ، تشهدت وقلت له : هل تحب القهوة كل يوم ؟

قال : كل يوم !

قلت : أعوذ بالله . وما تجدون فيها ؟

قال : نأكل وتشرب ونلعب وتنسلى مع الاخوان .

قلت : ولم ؟ أوليس في دارك ما تأكله وتشربه ، أليس لك زوج وأولاد تتلاعبهم ، وتنسلى بهم ؟

قال : طعام القهوة أشهى .

قلت : ولم كان أشهى !

قال : ان معه الفجل والبصل والنعنع والمخللات والمقبلات .

قلت : هذا كله عند الحضري ، فلم لا تأتي به الى الدار ، وتأمرهم أن يقدموه اليك مع الطعام ؟ وما هو ذنب امرأتك وأولادك حتى تتروكهم كل ليلة ؟ تهجر بيتك وأنسه وهناه ، وتأوي الى هذه القهوات التي تصم الآذان وتحطم الأعصاب ، لا ترجع الى دارك حتى يكون الاولاد قد ناموا ، وربما تأخرت في الصباح فلم تقم من منامك حتى يكونوا قد ذهبوا الى مدارسهم ، فلا يرونك ولا تراهم الا مرة في الجمعة ، فكأن هذه القهوة قد فجعتهم بك ، وحرمتهم منك ، وصيرتهم أيتاماً وأبوهم حياً .

وتشكو بعد ذلك أن زاع الأولاد ، أو ساءت أخلاقهم ، أو فسدت تربيتهن ؟ تترك التعب كله للمرأة المسكينة ، فلا يكفياهم الطبخ والنفخ ، والكس والمسح وهم الأولاد واكتن^(١) وأهدأ ، طول النهار ، حتى تهجرها في الليل ؟

ان المسكينة لا تصل الى المساء حتى يكون قد انهد جسمها ، وضاق صدرها وطلعت روحها ، وهي تأمل أن تجيء لتنفس عنها ، فإذا أنت تركض الى القهوة ...

قال : ما هذا يا استاذ ؟ أنت قاضٍ وتقضي علىّ ، قبل أن تسمع مني ؟ أو تظن أنني أفر من الدار لولا ان الدار صارت علىّ جحيماً ؟ أو تحسب أن هؤلاء الذين تمتلئ بهم القهوةات يتركون بيوتهم لو كانت بيوتهم جنات ، وهل يهرب أحد من الجنة ؟ إني أكدح النهار كله ، أقاسي هم الكسب ، ومعاناة الناس ، فلا ينتهي النهار حتى يكون قد نفذ صبري ، وضاق صدري ، فامشي الى الدار أرجو أن أجد فيها الأنس والسلام ، فلا أجد الا الحرب والحصام ، ان أبدت المرأة للضيوف لطفها وورقتها كان حظي منها غلظتها وشدتها ، وان أرت الا جانباً عندما تخرج جمالها ، لم أر منها أنا زوجها الا قبحها وابتذالها ، كأن كل خير فيها لغيري وكل شرّ فيها لي ، فمن ذلك أفرّ ؟

- قلت : لو فررت الى أنس وطيب لعذرتك ، أما هذا المسكان الفظيع الشنيع ...

- قال : ثق أنني لو اضطرت الى ما هو افظع واشنع ، لما ترددت في الاقدام عليه على أن اخلص من البيت ونكد البيت .

(١) اكتن من العامي الفصح .

- قلت : عجيب والله ، أما أنا فلو دعيت الى أبي السهرات ، وأعظم الحفلات ، لما آثرت ذلك على بيتي .

- قال : لعلك مستريح في بيتك فلا تبغي منه بديلاً .

- قلت : إي والله ، أنا مستريح ، والله الحمد .

- قال : افتظن أن الناس كلهم أمثالك ، أو تحسب أن كل أهل كاهلك توفر لزوجها الراحة والهناء .

- قلت : وأنت هل تريح امرأتك وتهنيها ؟ ألا تشكو هي منك مثل الذين تشكوه أنت منها ؟ وإذا كنت تفتقد الحب والعطف ، فإن أقرب طريق يوصلك الى الحب والعطف ، أن تبدأ أنت فتحب وتعطف ، فهل جربت هذا مرة ؟

- قال : وماذا اصنع سألتك بالله ؟

- قلت : ان تعرف ان لزوجك عليك حقاً ، وإن لولدك عليك حقاً ، وان تؤدي لكل ذي حق حقه .

صحيح انك تروح العشية الى دارك تعبان ضجران ، وأن لك أن تستريح وتهذا ، ولكن لا تنس أن المرأة في تعب كتعبك وضجر كضجرك ، وانها ترقب بحيثك لتأنس بك ، وتلجأ الى كنفك ، وتتخلص بك من هم العفاريات فاعطها ما تطلب منك تعطك ما ترجوه منها .

لا تعطها المال ، ولا الهدايا ، بل الوجه الطلق ، والثغر الباسم ، والتحية الحلوة ، انك مهما كنت في تعب ، وجاءك ضيف عزيز فانك تتلقاه بالسلام والابتسام ، فلم يكون هذا الضيف أحق بيوك وخيرك من امرأتك ؟

فاذا انتهيت من طعامك ، تخيّر لها من حديث يومك ، بما رأيت وسمعت

ما تملأ به وقتها وتملأ به بالحب قلبها ، وهي تحدثك بطريف الحديث ، بما يسرّ ويمتع ، لا بما يزعج ويغضب ، ويحفظ كل متاعبه ساعة لنفسه ، لا ينفذها في وجه صاحبه من أول لحظة ، ولا تقعدا ساكتين كأنكما صنان في متحف ، فان من آفات الحياة الزوجية أن الزوجين لا يتحدثان الا قليلا ، لا لأن الاحاديث تنفذ وتنتهي ، بل لأنها لا يحفلان الحديث ولا يربدانه ، والاحاديث لا تنتهي أبداً ، والدليل أن الزوجين يكونان جالسين ساكتين فاذا جاءهما قريب أو قريبة تدفق كلاهما بالحديث ، واستبقا اليه وتزاحما عليه .

ولقد قرأت مرة أن زوجين عجوزين كانا كلما قعدا تهماسا بشيء ثم انطلقا يضحكان ، فسئلا من أين يجدا دائماً هذا الكلام المضحك فقال الرجل : اننا اتفقنا على شيء نقطع به جبل السكوت بيننا ، هو اننا اذا لم نجد ما نقوله ، همست في أذنها : واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ، فقالت : ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة . فنضحك ونجد ما نقول .

لا اطلب من الزوجين ان يلتنا ويعجبنا ^(١) طول الليل ، لا ، بل بأن يتحدثا ساعة ثم يقبل هو على كتابه أو جريدته وهي على خياطتها وحياكتها . وخير من ذلك ، واجدى ، ان يختار الرجل كتاباً من كتب الحديث كرياض الصالحين للنووي أو كتب السيرة أو الاخلاق أو التاريخ ، فيقرأ لزوجته وأولاده كل يوم صفحة ويفسرّها لهم ، وكلما مرّ أمر بخير تواصوا بالعمل به ، وكلما مرّ نهى عن شرّ تواصوا بالامتناع عنه ، فيجتمع لهم من ذلك العلم والعمل والبيان والالفة والسلام .

- قال : يا استاذ ، أنت في واد ، ونحن في واد ، إنك تتكلم بالحيات

(١) المات والعجن من العامي الفصيح .

كأنك لا تعرف الواقع ، ولا تدري ما حال الناس ، وهل تظن أن نساءنا عاقلات عالقات يخاطبن بالمنطق ، ويقدرن النكتة واللفظ ، أني أكلمها من الشرق فتجيني من الغرب ، وأسوق اليها النادرة اللطيفة فأرى منها الهجمة العنيفة ، قلت لا مرأتى اذا قرب موعد رجوعي فاتركي شغل الدار على حاله ، فان شغل الدار لا ينتهي واكثر الرجال لا يهمهم نظافة أرض الدار بقدر ما يهمهم نظافة وجه المرأة ونظافة لسانها ، ولا يباليون بحسن الطبخ قدر ما يباليون بحسن الخلق ، والبسي خير ثيابك والبسي الأولاد ، وأعدي لزوجك ما يريد ، هيئي المائدة ورتبي له المسكان على النحو الذي يعجبه ويرضاه ، واستقبليه بالبشر والعناية ، والابتسام والرضا فيلقاك بمثل ذلك ، ولو كان الرجل اغلظ الناس ، لما استطاع أن يقابل هذا الخير الا بخير منه أو بمثله .

ولتلق المرأة أن الرجل اذا استراح في بيته لم يفكر في قهوة ولا ملهى ولو أن كل رجل وجد في بيته الراحة والأنس لأقفرت القهوة وأغلقت أبوابها فالذنب كله ذنب المرأة ، هي التي تكره الدار الى الزوج ، وتحبيب إليه السهر فتجني عليه وعلى نفسها .

— قلت : أما أنا فأرى أن الإصلاح من الرجل ، والفساد من الرجل ، ونساءنا خاصة من خير نساء الأمم ، وأطوعهن وأخلصهن ، ولكن الرجال لا يعرفون كيف يستفيدون من طبيعة الخير فيهن ، الرجل هو المسؤول ، الأب أولاً والزوج ثانياً ، وعليه أن يبدأ هو بالإصلاح ما أفسد .
— قال : انك تظلم الرجال ، ان البلاء كله من النساء .

* * *

وبعد فلقد دخلت كثيراً من بلاد الله ، فلم أجـد في بلد ما نراه في بلادنا

العربية ، من هذه القهوات ، التي يجتمع فيها الآلاف المؤلفة من البشر يقعدون
عضون الساعات الطوال لا يعملون شيئاً ، لا يستفيدون ولا يفيدون ، يسيئون
الى صحة أجسادهم ، والى عواطف زوجاتهم ، والى تربية أولادهم ، ويسئون
الى أمتهم وبلادهم ، هذه الأمة التي هبت اليوم تجدد بناء مجدها ، وتستعيد في
الارض مكانها ، ولها في عنق كل ابن من ابنائها ألا يضيع ساعة من وقته ، ولا
ذرة من جهده ، الا في العمل لها .

فمن المسؤول عن خراب البيوت ، واضاعة الاوقات ، وإفساد الأولاد
النساء كما يقول صاحبي ، أم الرجال ؟
فكثروا أيها القراء !



أسئلة

نشرت سنة ١٩٤٧

كان حديث الناس في الأسبوع الذي مضى ، وحديث الصحف ، هذه
الـ (أربعون الف جنيه) التي تبرع بها البدر اوي باشا وشهد عليه بها الشهود ،
وجاءته عليها رسائل الشكر وبرقيات التهاني ، حتى إذا شبع من الثناء ، وروي
من المدح ، وانتشى من الفخر ، ونال ما كان يريد من تبرعه ، ولم يبق وراءه
غنى يناله ، ما بقي إلا الغرم بالـ (أربعين الف جنيه) عاد فجحد قوله ، وأنكر
هيبته ، وطعن على الشهود ، وكذب الناقلين ، فعاد المهنتون له يعزونه ،
والمادحون إياه يهجون ، وانطلقت الألسنة بالوقعة فيه ، والنيل منه ، وأذهب
هذا القدر لذة المدح الأول ، واشتاق إليه لما فقد ، ولكن عز عليه أن
يشتره بـ (أربعين الف جنيه) ، وأن يؤديها كاملة فيكذب نفسه ، ويثبت
قول من شهد عليه ، فاقتداها بعشرة آلاف رفعها إلى السدة الملكية ، فردتها
عليه ، ولم تقبلها منه . وقالوا ، إنه سيدعى الشعب إلى اكتتاب عام يشترك فيه
الغنى والفقير ، يحقق به ما كان التبرع له ، وهو إنشاء معمل للسقاح ، يقي الناس
من هذا الوباء الذي يحصد بمنجله النفوس ، ويقطع الأعناق ، ويودي بالأسر .

* * *

انتهيت من قراءة هذا الخبر ، فنشأت في نفسي أسئلة كبيرة ، أحبيت
إذاعتها لاني أتمنى أن أجد مجيباً عليها :

أولها : السؤال عن هذا التفاوت العجيب بين الناس الذي صار شعار الحياة
المصرية ، وآيتها ... من أين جاء ؟ وكيف تركه العلماء والمصلحون وأصحاب
الرأي ، وذوو السلطان ، ينمو ويمتد حتى يصير كاللدوحة العظيمة ، ولم يقطعوه
وهو بعد غصن طرى ؟

وكيف انتهت الحال إلى أن يكون في مصر نفر من المصريين والاجانب
اجتمعت في أيديهم الملايين ، وملايين من المصريين دون الاجانب فرغت
أيديهم من كل شيء .

وكيف امتد هذا التفاوت إلى غير المال ؛ فكان في مصر نفر هم أكابر
أدباء العربية ، ونفر هم أئمة علماء الاسلام ، ونفر هم أعلام الفلسفة والحقوق
وعلوم الطبيعة ، وجاهير لا تحصى ، (إلا في دفاتر الاحصاء عند الحكومة) ،
لا تعرف من العربية ولا من الاسلام ولا من هذه العلوم شيئاً ، بل هي
لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، وصارت مصر بحيث لو ذهب منها مثا رجل
فقط ، من عشرين مليوناً ، صارت زعامة مصر الثقافية ، بين الاقطار العربية ،
خبراً بعد عين .

وكان في مصر ، بل في القاهرة نفسها العمارة التي تشتمل على خمس عشرة
طبقة ، والاكواخ التي لا شباك لها ولا ماء فيها ولا مرحاض ، وفيها أفخم
السيارات تسير بجانب عربات الكارو ، تحمل أهل القاهرة من حي إلى حي ،
وفيها شارع فؤاد وشارع سليمان ، وفيها الزمالك وجاردن سيتي ، وفيها مقابل
ذلك زين العابدين والدراسة وبولاق ، وفيها فندق شبرد ووراء حديقته أزقة
مسدودة لا تراها الشمس ، ولا يمر منها الهواء ، ولا ينيرها الكهرباء ، ولا تعرف

الطريق إليها مصلحة التنظيم ..

إن الناس يتفاوتون في بلدنا ، وفي بلاد الناس كلها ، ففهم الغني والفقير ،
والعالم والجاهل ، وعندنا العمارات الكبيرة ، والدور الحقيبة ، ولكن المسافة
بين عالينا ونازلنا قصيرة متحملة فليس في دمشق كلها عمارة كالأيواليا (ايواليا) ولا
كنصفها ، إن أعلى عمارة فيها في ست طبقات ، ولكن ليس في دمشق أيضاً ،
بيوت كبيوت مصر القديمة أو عشش الترحمان ..

وعندنا فقراء ، ولكن فقراءنا لهم ثياب نظيفة تسترهم ، وأخذية تحملهم ،
وبيوت تكفيهم ، وعندنا مالكون للأرض ، ولكن الناس يملكون معهم ،
ليسوا عبيداً لهم ، ولا اجراء عندهم ، ما عندنا هذه (الاقطاعية ...) إلا في
حماة وأمناها ، وهي مناطق محدودة ، وسائر الارض مقسمة بين الناس ، يملك
الواحد منهم ربع الفدان فما فوقه ، ولا يرى نفسه دون مالك الآلاف ، ولا
يذل له ولا يرى له عليه فضلاً .

لذلك يعجب الشامي عندما يقدم مصر ، ويرى هذا التفاوت فيها ، ويسأل
من أين جاء ؟

وثانيها : السؤال عن الكتاب والعلماء ، لماذا لا يدعون إلى تخليص البلد من
هذا الداء العياء ، وتعديل كفتي الميزان وتحقيق طبيعة العرب في المساواة ،
ومقصد الاسلام في العدالة لأريد المساواة المطلقة التي لا تبقى غنياً ولا فقيراً ،
فهذا ما لا يكون ولا ترضاه سنن الكون ، ولا طبائع الأشياء . لا يكون إلا
في أذهان الفلاسفة والشعراء ، وأصحاب الأغراض من الدعاة ، يشعبدون به
على الناس ، ويتخذونه سلباً إلى غاياتهم ، ووسيلة إلى أغراضهم ، ولكن أريد
المساواة المعقولة ، التي لا ينزل بها انسان إلى منزلة البهيمة في طعامه وشرابه
ومسكنه ، ولا يرتقي إنسان إلى الألوهية ، يدعيها كذباً وهتاناً كما ادعاها.

غرعون من قبل ، وأن يكفل لكل مصري (مهما كانت مهنته ، وكان عمله) طعامه وشرابه وكسوته ومسكنه ، كما يليق بالإنسان أن يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ، وأن لا يترك في مصر رجل واحد ، يعيش كما تعيش السائمة ، يأكل قريباً من طعامها ، وينام مثل منامها ، في الطرقات ، والحقول ، وعلى الأرصفة ، وفي الأكواخ ؛ وأناس يطعمون كلابهم الشكولاطه ، وينفقون أموالهم في المراقص ، ويذيقون ذهبهم في الكؤوس .

فماذا يصنع العلماء والكتاب ؟

وثالثها : السؤال ... إذا كان يجوز لمثلي السؤال ، عن الحكومة ما لها تقر هذه الحال ، في كثير من قوانينها وأنظمتها ، فتجعل المدارس الأولية متفاوتة الدرجات ، ولا تسوق ابن الغني وابن الفقير بعضا واحدا ، وتحشرهم في مدرسة واحدة ، كما تفعل وزارة معارفنا في الشام ؛ وما لها تعنى بالمشروعات الضخمة الكمالية ، قبل اتمام الضروري كأن القصد تنويع الحلول للأغنياء ، قبل تقديم الخبز للفقراء ؟ !

وما لها لا تضع ، ثانياً ، القوانين التي تؤدي إلى إبطال هذا التفاوت ، وإلى رفع المنخفض وخفض المرتفع ، حتى تقترب الدرجتان ، وتتداني كفتا الميزان ، فتعمل بالإسلام في أخذ الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء ، وحينئذ تأخذ هذه الـ (أربعين الف جنيه) قسراً بلا رجاء ولا شكر ، أو تعمل عمل الأمم الغربية ، فتكثر الضرائب على الدخل وعلى الموارث وتشرف على المعامل والشركات والمصارف ، ويكون لها الرأي في كل ما يمس المصلحة العامة - وهذه (اشتراكية) ليست من مبادئ الإسلام ، ولكنه لا يمنعها إن دعت إليها ضرورة ، والضرورات لها أحكام ، وتعريف الضرورة وأحكامها ،

مبين في كتب الفقه ليس هذا موضع بيانه .

ورابعها : سؤال عقلاء مصر وقادتها ، ألا تخافون أن تأتاكم هذه الحال بالشيوعية ؟ ألا ترون بوادرها ؟ ألا تعرفون أخطارها ؟ ألا تقدرون أضرارها ؟ فلماذا تلبثون نائمين ولهيب النار يقترب من منازلكم ، فلا يلبث أن يشعلها عليكم ، فيجعلكم فيها كالمحبوس في الجحيم ؟

إن الناس لا يقبلون على الشيوعية عن معرفة بها ، ولا عن حب لها ، ولكن دعائها رأوا ما هم فيه ، وعلموا أنهم يتمنون أن يجدوا الخلاص منه ولو على يد الشيطان فأوهموهم أن الشيوعية هي سبيل الخلاص ، وأنها طريق السعادة وأنهم إن كانوا دعائها ملكوا بها قصور الأغنياء ، وحقوقهم وسياراتهم ، فلذلك تعصبوا لها ولا يدرون ماذا فيها ، فهم منها كما قال عبد الله بن عمر ، لمن لامة على ترك مؤازرة ابن الزبير في دعوته إلى الإصلاح : رأيت بغلات معاوية الشهب اللاتي يحج عليهن ؟

قال : نعم . قال : ذلك ما يريد ابن الزبير !

إنهم يئسوا منكم ومن دينكم ، فأروهم أنكم معنيون بهم ، وأن دينكم لا يرضى ما هم فيه . إن الإسلام دين العدالة ، دين المساواة ، دين الخير ، أفترضى أن يستعبد بعض الناس بعضاً في قرن العشرين الميلادي ، وقد أنكر ذلك عمر في القرن الأول الهجري ؟

فلماذا لا تأتونهم بحق الإسلام ، لتخلصوهم به من باطل الشيوعية ؟

أما والله إذا صار هذا البلد (لاسمح الله ولن يسمح) شيوعياً فأنتم بأنكم العقلاء ، وبإفادة الرأي ، المذنبون ، لا العامة ولا الدماء ولا الأغرار من الشباب !

وخامسها : سؤال المصريين جميعاً ، ألم يروا هؤلاء الأجانب ، أصحاب المتاجر والمعامل والمصارف لم تمتد يد منهم بقرش لرد هذا الوباء ، ومساعدة المنكوبين به ، ورفع البيوت التي هدمها ، وإطعام الأطفال التي يتيمها ، والنساء اللاتي أتيمن ؟ ألم يأن لهم أن يتنبهوا إلى أنهم أحق بخيرات بلادهم ؟ لا بالذهب والسلب والثورة وأخذ المال من أصحابه ، لا ، ما ذلك أردت ، ولا يريد هذا عاقل ، بل بأن تطرحوا عنكم ثوب الكسل ، وتشمروا عن ساق العمل وتزلوا للميدان ، وتعلموا حب المال ، والرغبة في الأسفار ، وتتقنوا فن الاقتصاد ، وصيد الدراهم ، والتعاون على الكسب . بذلك تخلص إخوانكم الشاميون من سيطرة الأجانب ، وانقذوا بلادهم منهم ، ثم ذهبوا فغزوه في بلادهم ، وانتزعوا أموالهم من أكفهم ، وزاحوهم ، في مانشستر ونيويورك وبونس ايرس والكونغو وبومباي وطوكيو ، وكل بلد في الدنيا ، ما خلعت مدينة من تجار الشام .

إن بعض العراقيين يقولون مازحين : إن الشاميين يهود العرب !
يهود العرب .. طيب والله ! .. وهل تقاوم اليهود إلا بهذا ؟ بارك الله في تجار الشام - وإن كنت (أشهد الله) أكره نفرأ منهم ، لما رأيت من طمعهم وجشع نفوسهم . وأتمنى أن أشد أصابعي على اعناق أغنياء الحرب منهم ، ولكن الحق أحق أن يقال ، ولا تنجح أمة إلا بأمثال هؤلاء التجار .

هؤلاء الذين يشيدون مجدها ، ويثبتون بناءها ، ويحفظون مالها . فمتى يكون المصريون مثل هؤلاء ؟ ومتى أجيء مصر ، فلا أرى فيها إلا لوحة عربية باسم عربي ، على مؤسسة عربية ؟ !

يامصر ، هذا هو الطريق ! وهذا والله كلام صديق !

أسلوب جديد في التعليم

نشرت سنة ١٩٤٦

لي أخ كان كلما غشي المدرسة الثانوية ورق جسمه ونخل، وعراه ذبول، فأعفيته منها وأبقته في الدار سنوات ثلاثاً لم ألزمه فيها مطالعة شيء من دروس المدرسة وإنما كنت أدله على بعض كتب الأدب والتاريخ مما لا يثقل عليه ولا ينال من صحته، وما تجزّل فائدته وتعظم المنفعة به، فقرأ فيما قرأ تاريخ الطبري كله والأغاني... فلما أزف موعد امتحان الكفاءة منذ سنتين قلت له: لو دخلت هذا الامتحان مع رفاقك فلعل الله يكتب لك النجاح. فأطاعني واستعد لامتحان شهر آ واحداً ثم دخله فكان من الناجحين، على رغم أن الناجحين في تلك السنة كانوا دون الثلث، وعاد الى مثل ما كان عليه، حتى كان امتحان الشهادة الثانوية (البكالوريا) هذه السنة، فدخله كما دخل الأول ونجح فيه أيضاً. هذا النجاح الغريب دفعني الى التفكير في الموضوع الذي أكتبه اليوم، وجعلني أسأل نفسي فأطيل سؤاها: ألا يمكن أن نسهل للطلاب هذه الدراسة؟ وإذا كانت هذه الغاية وهي شهادة الكفاءة (والصحيح أن تسمى شهادة الكفاية) تدرك بمسيرة شهر واحد في طريق سهل لاحب، فعلام غشي اليأس ثلاث سنين في طريق صعبة معوجة من ينقطع فيها أكثر من يبلغ آخرها؟ أليس لنا بدء

من أن نضيع زهرة شباب أبنائنا في المدرسة لنعلمهم مالا يكاد ينفعهم في حياتهم ، إذا هم خرجوا منها ، ولم يقدرُوا أن يشتغلوا بعده بما يشتغل به العامي الجاهل من أعمال اليد ، واشغال السوق ؟ ألا يمكن أن نعلم كل طالب ما ينتفع به ويميل اليه ونعفيه من علوم يكرهها ولا يعتقد فائدتها له في حياته ؟

فقلت النفس : لقد أقيمت بناءك على غير أساس ، وجعلت من هذه الشاذة قاعدة ، وأصلت عليها أصلا . إن أخاك هذا وإن أخذ الشهادة فليس له علم من درس يوماً بيوم ، وسار على الجادة خطوة فخطوة ، ولم يقفز من فوق الاسطحة ولم يتسور الجدران ، وهذه العلوم كلها لازمة لا استغناء عنها ، وأسلوب التعليم صالح لا داعي لتبديله .

فرجعتني والله الى الشك وكدت أدع الموضوع . ثم فكرت فرأيت أن لكل عمل نتيجة ، ولكل مسير غاية ، والغاية من المدرسة إما أن تكون الشهادة أو العلم أو الإعداد لحوض الحياة والنضال عليها . أما الشهادة فلا بحث فيها لأنها عرض لا جوهر ، ووسيلة الى غيرها لا يصح الوقوف عليها ، ولا القناعة بها ؛ وهي بعد كاسمها (شهادة) قد تكون مزكاة عادلة ، وقد تكون شهادة زور تعطى لغير أهلها ، وتمنح من ليس من مستحقها . وما ينفع الفقير المفلس أن يشهد له الناس جميعاً بأنه الغني ذو القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟ أما العلم فاسألوا المتعلمين ماذا بقي لهم من دروس الثانوية ، بل تعالوا أحدثكم ما جربته بنفسي وما شاهدت عليه تلاميذي ، ولقد كنت في دراستي الثانوية مجتهداً دائماً أو مصلياً ، ولم أكن فسكلاً^(١) ، ولقد اشتغلت بالتعليم الاولي والابتدائي والثانوي ، الأهلي والرسمي والديني ، أربع عشرة سنة ،

(١) هو آخر خيول السباق .

قبل أن أليّ القضاء ، في مدارس الشام والعراق ولبنان ، وعرفت الآلاف من الطلاب . وأقل ما أستفيد من هذا أنني إذا تكلمت أنكم عن خبرة وإطلاع . أقول : إني وجدت بالتجربة أنه لم يبق عندي الآن بما أمضيت في تعلمه السنين الطوال ، إلا ما كان طبعي منصرفاً إليه من علوم الدين واللسان والتاريخ والفلسفة ، وما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية (لا الطبيعية كما يقول بعضهم ...) فلا أكاد أعرف منه الآن إلا أشياء عامة جداً . أما التفاصيل والدقائق وإعيان المسائل فقد نسيتها كلها . ولو سئلت عما أعرفه من المثلثات (مثلاً) لأجبت صادقاً أنني لا أعرف إلا شيئاً اسمه الجيب والتجيب (تمام الجيب) والمماس . لا أعرف ما هو على التحقيق ، حتى موضوع العلم على وجه التحديد فقد نسيت ، مع أن علامتي في السنة التي قرأنا فيها المثلثات كانت تسعاً من عشر وكنت المجلّس (الأول) في صفّي (أي صفّي) أما الكيمياء العضوية فلا أعرف منها إلا أن فيها شيئاً اسمه (الميثان) وتركيبه جزء من الفحم وأربعة من مولد الماء أي الهيدروجين ، وقد درست جغرافيه بلاد الدنيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، وكنت مع ذلك كلما سمعت باسم مدينة جديدة يأتي في أخبار الحرب أجدي أجهل مكانها ، وأذهب فأسأل عنها الكتب والمصورات استوي في ذلك أنا ومن لم يقرأ الجغرافية قط ^(١) . وكل من عرفت من الطلاب هذه حالهم لا يستقرّ في رؤوسهم إلا ما يختصون به أنفسهم ، وإلا خلاصات موجزة ، أما كان خيراً لهم لو أقرناهم هذه الخلاصات من الأصل ؟

ولست أقول ، دعوا هذه العلوم لا تقرئوها التلاميذ ، ولكن أقول إن هذا الخلط بين العلوم الكثيرة يؤدي إلى إضاعتهما كلها ، وهذا سرّ ما نشكوه

(١) والاستاذ أنستاس الكرملي يرى أن تسمى الجغرافية علم (التفريع) من قولهم
فرع الأرض ...

من ضعف الطلاب في مصر والشام والعراق في اللغة وهي أداة العلم كله ، وما نلمسه من عقم القرائح ، وفقد المخترع والباحث . ولو أنا رجعنا الى طريقة أجدادنا الذين كانوا يتعلمون علمين أو ثلاثة فإذا احسنوها شرعوا بغيرها لكان أجدى علينا . فمدارسنا إذاً لا توصل الى الغاية العلمية النظرية ، فلننظر الى الغاية العملية هل تبلغنا إليها ؟ هل تعد مدارسنا التلاميذ إعداداً جيداً للنجاح في الحياة وضمان الكسب الطيب والعيش الرغد ، مع الخلق القويم والإيمان الديني والقومي ؟ الجواب مشاهد ملموس هو أن مدارسنا لا (تكاد) تخرج اليوم الا أطباء أو محامين أو موظفين . أما الوظائف فعددتها محدود لا يمكن أن يتسع لكل المتعلمين ولا ينبغي أن يتسع لهم . أما الاطباء والمحامون في دمشق فقد صاروا من الآن اكثر من اللازم بكثير ، وغدا جلّهم يقتنع بالكسب القليل أما التجارة والزراعة وسائر طرق الرزق فإن اكثر أهلها أو كلهم ... ممن لم تخرجهم المدارس بل خرجوا أنفسهم في مدرسة الحياة الكبرى ، ولا نستطيع أن نَعْلُو فنقول بأن خريجي المدارس يمتازون من الناس بأخلاقهم الشخصية والاجتماعية ، أو أن المدارس جعلتهم طبقة مختارة ممتازة من طبقات الشعب بل إنهم كغيرهم من الناس ، منهم الصالح ومنهم الفاسد ومنهم من هو بين ذلك !

والسبب في هذا كله أن نظام التعليم في بلادنا كالبيت العتيق الحرق ، المختل الهندسة ، الذي لا يفتأ اصحابه يتعهدونه بالترميم والاصلاح ولكنهم لا يجروون على هدمه من أساسه وبنائه من جديد على هندسة صالحة ، ونمط صحي نافع . إننا نجس التلاميذ ست سنين للدراسة الثانوية ، ونحشو رؤوسهم بمعلومات اكثرها لا ينفع في الحياة . وماذا لعمرى استفدت أنا من دراسة المثلثات والهندسة النظرية و (حفظ) معادلات الكيمياء وقوانين الفيزياء في القضاء أو في تدريس الأدب أو في فن الكتابة ، وتلك هي اعمالى في حياتى ؟ سيقول قائل ، ومن

كان يدري أنك ستكون أديباً أو قاضياً ، أما كان في الامكان ان تكون مهندساً أو صيدلياً ؟ بلى ، ولكن الدراسة العالية حددت طريقي في الحياة ، فلماذا لم أحده قبل ذلك بسنوات ؟

هذه هي المسألة ، كما يقول شكسبير . إن الدراسة العالية هي المقصودة بالذات ، وما قبلها ثقافة عامة هي بمكان المقدمة اليها والتمهيد لها ، أفلا يستطيع الشاب الواعي دراسة الحقوق مثلاً ، من غير إحاطة بدقائق الكيمياء والفيزياء والرياضيات ؟ أو لا يجزئه ويكفيه أن يعرف عنها الشيء المجمل المختصر ؟ وطالب الطب هل يستحيل عليه تحصيله من غير معرفته بعلم الشعر واختلافات الكوفيين والبصريين ؟ لقد شاهدنا محاميين بارعين وقضاة لا يعرفون شيئاً من المشتقات ولا تحول التابع ولا صفات البروم ، وشاهدنا أطباء كباراً استطاعوا أن يعملوا عمليات في شق البطن وفتح الجمجمة ، على جهلهم الموازنة بين أي تمام والبحثري ، وشروط عمل اسم الفاعل .

* * *

فما العمل ؟ أنا أرى ، اذا كان في الدنيا من يسمع رأيي ، ان نجعل مدة الدراسة الابتدائية والثانوية معاً سبع سنين على الاكثر يتمكن فيها الطالب من العربية بالمران والتطبيق وتنبيه السليقة لا بحشو رأسه بالقواعد وقتل وقته بمعرفة أوجه الاعراب حتى يقيم لسانه ويتنزه عن الخطأ الفاحش ، ويبصر مرامي الكلام ودقائق معانيه ، ويتعلم من دينه ما يمسك عليه إيمانه وخلقه ويرغبه في الخير ويصرفه عن الشر ، ويمنع عنه الحرام ؛ ويعرف من الرياضيات الشيء العملي الذي لا يستغنى عنه من غير اشتغال بالنظريات المجردة ، وما لا بد من معرفته من علوم الطبيعة وقوانينها الأساسية وأسرار المخترعات ، وأن يدرس

الصحة والجغرافية والتاريخ العربي^(١) وأن يعرف مبادئ لغة من اللغات الغربية وامثال ذلك فما أردت الاستقصاء بل التمثيل .

فاذا تخرج الطالب منها عرضنا عليه فروع الجامعة ، فاذا اختار فرعاً منها حضرناه له في سنتين أو ثلاث ، علمناه فيها ما يتصل به ، فيكون في كل كلية قسم تحضيرى فيه من العلوم ما يحتاجه طالبها ، فيتلقاها الطالب برغبة فيها وحب لها لأنه هو الذي اختارها ، ووافقت هواه ، وظهر له النفع منها ، وينجو بذلك من خلق شاعراً من حفظ طلاس الرياضيات ، أو الرسوب دونها والانعطاع عن المدرسة وحرمانه التحصيل من أجلها ، وهو من بعد لا يحتاج اليها أبداً ، ولا يتعلم كل طالب الا ما يحتاج اليه مع اختصار مدة الدراسة وتقوية الاختصاص ، وكسب الوقت الذي يستطاع الاستفادة منه في تقوية الاجسام الرياضية ، ومعرفة الوطن بالسياحات ، والعناية بالتربية الحلقية والوطنية ... ومن شاء بعد الاكتفاء بالدراسة الثانوية ودخول معركة الحياة لم نسلبه وقته

(١) وهنا مسألة مهمة جداً لا أعلم أحداً نه عليها او اتبه لها ، هي أن تاريخنا السياسي الذي يدرس الآن في مدارسنا سلسلة فضائح من انقسام الى ثورات الى قتل الى استبداد . حاله في ذلك كحال تواريخ الامم كلها ، واذا استثنينا امثال العمرين وثالثها ابن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين لم نكد نجد من الملوك من تصلح سيرته لتكون قدوة ، والتاريخ العظيم الذي يجب تدريسه هو تاريخنا العلمي الفياض بالمكارم والمفاخر ، ولذلك عني علماءنا بتراجم الافذاذ اكثر من عنايتهم بالتاريخ العام . ومن العلماء من أثر في عصره أبلغ الاثر حتى وجب أن نسب العصر اليه لا الى خليفة الوقت كأحمد بن حنبل والغزالي وابن تيمية . هذا بعد أن يدرس كل تلميذ تاريخ بلده الذي يعيش فيه . وإن من اقبح العيب ألا يعرف الطالب العربي أين تقع سر من رأى وماذا فيها الآن ، وإلام صارت الكوفة ، وأن يعرف التليذ الدمشقي تاريخ الثورة الفرنسية قبل أن يعرف من بنى القلعة وكَم مرة احترق الاموي وأين أبواب دمشق ومن أنشأ حي الصالحية .

وسلحناه بثقافة عامة يعلو بها مستوى السوق واصحاب المهن ، ومن أراد التخصص فتحنا له بابه ، وعجلنا له دخوله وقويناه فيه . وهذا إيجاز للاقتراح والشرح حاضر إن احتاج اليه القراء .

أما التعليم الديني فلنعد فيه الى مثل الطريقة الازهرية الأولى مع إصلاح يسير فيها ، فقد ثبت أنها انفع وأجدي ، دنيا وأخرى ، وأن تلك الثورة عليها حتى تم العدول عنها ، والقضاء على الجامعة الازهرية ، كان فيها إغراق أدر كناه الآن . وأنا أعرف الازهر الجديد وأعرف كليات ثلاثاً أنشئت على غرارهِ في دمشق وبغداد وبيروت علّمت فيها كلها ، واشهد لله شهادة حق أن الازهر القديم كان في الجملة خيراً منها ، إذ كان أهله يطلبون العلم لله وللعلم فصار أهلها يطلبونه للشهادات والوظائف ، وكانوا يصبرون على تلك الحواشي المطولات وإن تكن عقيبات ، فصار هؤلاء لا يقرأون إلا خلاصات يجوزون بها الامتحانات . وكانوا علماء عاملين لدينهم أهل تقى وورع في سمتهم وسلوكهم ، وسرهم وعلمهم ، فصار بعض المدرسين واكثر التلاميذ ... صاروا على حال من عرفها فقد عرفها ومن جهلها فلا يسأل عن الخبر .

وأنا لا أنعم ولا اطلق القول ، وإنما أعني الكثرة ممن اعرف ، ولعل فيمن لم أشرف بمعرفته خيراً لم يصل الى علمه ولا بلغني خبره - هذا على ان تكون المدارس الدينية بمثابة مدارس الاختصاص لا يدخلها الطالب الا بعد ان يدرس هذه الدراسة الثانوية ويفهم علومها ويأخذ شهادتها . لأنها ثقافة عامة يحتاج اليها عالم الدين وعالم الدنيا والموظف وصاحب العمل الحر .

* * *

ولا بأس بعد بارتداد مناهل العلم في غير بلادنا ! على ان يطلب فيها العلم المبني على المشاهدة . اما علوم الرواية وما أصوله عندنا ، كعلوم العربية فلا ،

وهذه الجماعة التي كان أئامها الفرنسيون إذ أرسلوا شبابنا يتعلمون العربية في باريس لا يجوز أن تعداد ، وحسبنا أن صكينا نحن ثارها ، وتجرعنا صابها ، (ولا نزال نتجرعه ...) وان اضحكنا الناس علينا ، وزدنا طلابنا على ضعفهم في لغتنا ضعفاً . وعلى أن نختار الطلاب الموفدين من ذوي الدين والحلق المتين ، وأن نرسل معهم من الاساتذة الكهول المتزوجين ، مراقبين ومرشدين .

* * *

هذه كلمة صغيرة في موضوع كبير ، اعرف انها تثير مناقشات وتحتل جدالا ، وأنها لم تلم بأطراف الموضوع ولم تستوف البحث فيه وإنما هي تنبيه الى فساد ، ودعوة الى إصلاح .

★ ★ ★

مناظرة هادئة

نشرت سنة ١٩٤٦

نحن معشر الرجعيين ... لا نرى قتال المرأة ولا نزالها ، ونجد ذلك قادحاً بالرجولة ، ونعد ذنب المرأة مغفوراً وجنايتها جباراً ، ولكن آراء الرجعيين الجامدين من أمثالي ... صارت أثراً عتيقاً من آثار القرن الماضي لا تصلح إلا لدار الآثار ... وقد تغيرت الدنيا وأهلها ، وأصبح من أشد ما تأباه المرأة (أو السيدة إذا سئلت الأدب في الخطاب) وتنكره وتراه هواناً لها ونزولاً بها عن منزلتها أن تترفق بها لأنها امرأة وغدت تريد أن تكافح الرجل وتنازله لا ترى نفسها أصغر من أن تغلبه ، ولا تجده أكبر من أن ينهزم أمامها ، فعلى هذا ، وإكراماً للسيدة الجديدة ، وبجارية في مذهبها ، ووفاء بحق هذه الأمانة أمانة (القلم) الذي منّ الله به عليّ وجعلني من أهله لأضرب به في كل ميدان إصلاح ، وأقرع به كل معالم الفساد ، لا تمنعني من ذلك رهبة عدوّ ، ولا رغبة في مودة صديق ... لهذا كله أعرض اليوم عرضاً إلى هذه (النهضة النسائية) التي أصبحت الكلام فيها واجباً وجوب عين ، فغفوَ كنّ - يا سيداتي - فأنتن أردتنّ هذا ، وإنه لا يزعجكنّ - فيما أظن - الكلام في هذه النهضة ، لأنها ليست من الضعف (في رأيكن) ومن الوهن بحيث تنهدم من ضربة ، وتطير من

نفخة ، ثم إني كتبت بحياء لا مبتدئاً ، ولا منتصفاً ولا معتدياً ...
ولا بد لي قبل من ذكر مقالتي (دفاع عن الفضيلة) (١) ، لأن هذا
الفصل كالتعليق عليها ، ولولا الحياء وخوفي من أن أوصف بالغرور ، وبأنني
من يحرص على (صيد) الفرص ، لينوء باسم نفسه ويذكر كبرها ، لقلت : إنه
قلما تصيب مقالة من النجاح الصحفي ما أصابت هذه المقالة (في بلاد الشام) ،
فقد نفذت نسخ « الرسالة » كلها في ساعات من نهار ، حتى صارت النسخة
تطلب بأضعاف ثمنها فلا توجد ، وقرأ كل نسخة - فيما أقدر - أكثر من خمسة ،
ومن القراء من أخبرني أنه كان يعقد لها المجالس ليتلوها فيها كما تتلى المحاضرات ،
وسرّ بالمقالة جمهور من الناس ودعا لي من أجلها وأثنى عليّ رهنائي ، وغضب
منها جمهور من الناس ودعا عليّ وشتمني ولعنني ، ورأى فيها إخواننا الرجعيون
الحجّرون انصار الفضيلة ترجمة آرائهم ولسان افكارهم ، ورأى فيها المجددون
تجديد الباطل ، المجددون انفسهم وأهلهم من ثياب الستر ، المبددون تراث
الاجداد الماجد الثمين ، سدّاً في طريقهم الى غايتهم التي يدعون اليها ، وبلاء
صبه الله عليهم ، وخزياً لهم وغيظاً لقلوبهم ، فقالوا : رجعي ؛ وقالوا :
مُشْتَبَه محروم ينقّس بهذا عن نفسه ؛ وقالوا ؛ فاجر يتستر بالدفاع عن
الفضيلة ، وما باليت كل ما قالوا ... لأنني ما كتبت هذا المقال ، وما قبله ،
ولا ألححت هذا الإلحاح على محاربة تلك المفاصد ، ابتغاء رضا الناس ، فأنا اعلم
ان من تغضبه هذه الكتابات اطول بدأ ، وأشد سلطاناً ، وأحد لساناً ،
واقدر (ولا يقدر الا الله) على نقعي وضري ، ولكني كتبها ، غضباً لله
ولدينه ولحارمه ، وتنبهاً لهذه الأمة الغافلة ، أن يفتك بها ذلك الداء ، وتحرقها
تلك النار ، ووطنت نفسي على حمل ما (قد) تأتيني به من الأذى ، لا حمل

الضعيف العاجز ، بل المحارب المقاتل الذي لا تصيبه الضربة حتى يردّها بعون الله
 عشرأ . على أني اذا ذكرت الحكومات ورجالها ، فلا أبرئ العلماء ولا الأدباء ،
 فهم أولى باللوم ، واحمل للتبعة ، إذ يسكتون عن إنكار المنكر ، ولا يستخرون
 له السننهم واقلامهم ، ولو أنهم أدّوا زكاة بيانهم دفاعاً عن الفضائل والاعراض
 وأثاروها داحسية بسوسية على الإباحية والفجور ، لما حقت هذه اللعنة علينا
 حتى صار يقود ناسئتنا في دورنا واسواقنا نفر من الفجار عباد إبليس ، سموا
 انفسهم كتاباً وصحفيين ، وصارت لهم كتب تقرأ ومجلات ، وما كتبهم ولا
 مجلاتهم الا الترجمة الفنية لحديث المراقص والمواخير ، وبيوت الحنا والزنا ،
 وما يكون فيها من مشاهد وصور ، تحملها كل يد الى كل دار ، فيقرؤها الشاب
 في المدرسة ، والفتاة في الحدر ، فتكون هادياً لهم الى تلك البيوت وإماماً !

ولكن المسؤول قبل الحكومات وأرباب البيان ، والمجرم الأول ، ومنبع
 الشر ورأس البلاء ، إنما هو الأب ، الأب الذي يرضى لبنته أن تتكشف
 وتتعري ، وتحتك بالشبان في الترام ، وتشرب القهوة عند البياح في سوق
 الحرير ، ويرسلها الى مدارس يعلم فيها أدب بشار وأبي نواس شباب في اعصابهم
 مثل النار التي في اعصابها ، وبيعها في رحلاتهم التي تمت أياماً وليالي ، تنزل معهم
 في الفنادق ، وتركب معهم في السيارات ، وتؤم معهم المتنزهات ، وتسمع
 (وكيف لا تسمع ؟) الفاحش من نكاتهم ، والبذء من اغانيهم ؟ وما أغانيهم
 الا غزل في مثلها وتشوق اليها ، وهي في السن التي تُصرّخ فيها غريزتها ،
 وتغلي دماؤها ، ويفتح للحب قلبها !

ولا يدري هذا الأب المغفل القرنان ان ليست عاقبة هذا الا فضيحة تقصم
 الظهر او مرضاً يحمل الى القبر ، ثم إنها لظي ، نزاعة للشوى ، تدعو من
 أدبر وتولى !

أقول : إن هذه المقالة شغلت الناس ، واختلفت فيها آراؤهم ، وكان من
اعجب ما سمعت من التعليق عليها ، أني كنت في الترام ، وكان الترام في تلك
الساعة خالياً ، فسمعت حديثاً بين امرأتين في غرفة النساء ، لا أراهما ولا
تريانني ، موضوعه التعليق على هذه المقالة ، ولست أروي من هذا الحديث الا
كلمتين اثنتين تدلان عليه ، قالت الأولى :

- يه ! ما تردّي عليه ؟ ينزل عليه الدم ان شاء الله ، وعلى هامشاخ كلهم !
- قالت الثانية : وانت ليش مهتمة فيه ، مين رادد عليه ؟ بيعت له الحمى
يعني بدو ترجع للورا ، ونضيع النهضة النسائية ونرجع جاهلات متحجبات
يتحكم فينا الرجال ؟ فشر ! إننا سنكسر راسه !

وليصدقني القراء اذا قلت لهم إن هذا كلامها بالحرف الواحد ! وأنا
لا أحب ان أردّ هذه الشتائم ولا أحسن مثلها مع الأسف الشديد ، إنما احب
ان أبحث في اصل الموضوع ، اما رأسي فقد عجزت عن كسره اقلام كتاب
فحول حاولته من قبل ، وألسنة خطباء مقاول ، وعصيّ حكام جبابرة ،
فلن تكسره اقلام طرية ، في أيدي ذات سوار ، رخصة البنان ، بحمرة الاظافر
لا يا سيدتي ، إن الله قد صنعه من (مواد غير قابلة للكسر) ، فدعني رأسي
وتعالين نقناظر (مناظرة هادئة) في هذه النهضة النسائية ، فذلك أجدي عليكن
من كسر رأس لا تستفيدون من كسره شيئاً ... لأن رؤوس (الرجعيين)
لا تزال كثيرة جداً !

ما هي هذه النهضة النسائية ؟ بماذا تختلف نساء اليوم عن نساء الأمس ؟
أنا الحُص الاختلاف في كلمات :

كانت نساؤنا تقيات جاهلات متحجبات مقصورات في البيوت ، فرق دينهن

وتعلمن وسفرن وخالطن الرجال ، ولننظر في كل خصلة من هذه الحُصَال ،
أكانت خيراً أم كانت شراً :

أما الدين (على إطلاقه) وخوف الله في السر والعلن ، وما يكون معه
من الاطمئنان والرضا ، والإحسان الى الناس ، والبعد عن الفواحش ، وترك
الكذب والغش والحسد والمكر ، وهذه خلائق يوحى بها كل دين من الأديان^(١)
فلا يشك عاقل في أنه خير ، وإن تركه شر ، وإن هذه النهضة بإبعادها النساء
عن شرعة الدين ، قد أضرت ولم تنفع ، وكان ضررها مضاعفاً مكرراً ، لأنه
إن جاز أن يمنع الرجل من الفاحشة خلقه وإرادته ، فقد ثبت أن المرأة لا يمنعها
منها إلا دينها !

وأما العلم ، فهو خير للمرأة بشرط أن تتعلم ما يصلحها ويصلح لها ، وألا
يوجب تعلمها اختلاطها بالرجال ، لأننا إن قدرنا العلم قدره ، وعرفنا له فضله
فلا نستطيع أن نفرط من أجله بالشرف ولا نضيع العرض ، وهما أكبر قدرأ
وأكثر فضلاً ، وليس معنى هذا أن كل اختلاط يؤدي حتماً الى إضاعة العرض
لا ، ولكن الغرائز موجودة ، والشهوات مستقرة في النفس ، إن منعها سدّ
فقد تطفئ فتخطم السدّ أو تعلو عليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتفع
فيه ، والعبرة بالشائع الغالب ، لا الأقل النادر ، وعلى ذلك نزلت الشرائع
ووضعت القوانين ، ولو كان احتمال سقوط المرأة في هذا الاختلاط واحداً في
الألف لوجب منعه وتحريمه ، لأن أمة في كل ألف من نساءها واحدة ساقطة
لأمة فاجرة ليست بذات خلق قويم ، ولا تستحق أن تعيش ...
ونحن لا نكره أن نرى في نساءنا أمثال باحثة البادية ، ووردة اليازجي

(١) وإن الدين عند الله الاسلام .

ومميّ ، وماري عجمي ، ووداد سكا كيني ، ونهاد ونجاح العطار ، ومريم خشة . ولكن أين السبيل الى ان نوجد امثالهنّ ؟ وهل توصل الى ذلك مدارسنا ؟ إننا نبصر فتيات يتجاوز عددهن الآلاف المؤلفة ، يقطعن الطرقات كل يوم الى المدارس ، غدوّاً اليها ورواحاً منها وهنّ بأبهى زينة وأبهج منظر ، يقرأن كل ما يقرؤه الشبان من هندسة وجبر ومثلثات وكيمياء وفيزياء وأدب غزل ويتعلمن الرسم والرياضة والغناء ، ويدخان مع الشباب في الامتحانات العامة ويحملن مثلهم البكالوريات والدبلومات ، ثم يجتمعن بحس (بعدهذا كله) بالعاميات الجاهليات ، فلا تجدهنّ اصحّ منهنّ فكراً ، ولا أبعد نظراً ، ولا ترى لهذا الحشد من المعلومات الذي جمع في رؤوسهن من أثر في الحكمة ولا في النظر الى الاشياء ، فكأن هذه المعلومات الاغاني التي تصب في اسطوانات الحاكي (الفونوغراف) إن اردتها سمعت لهجة فصيحة ، وكلاماً بديلاً ، ونغمات حلواً فتقول انها تنطق ، فإذا سألتها وكلمتها رأيتها جماداً أخرس ، ليس فيها الا ما استودعته من الكلام الملحن ...!

وهذا حق ، ما أردت بسرده الانتقاص ، ولكن بيان الواقع ثم إن تزوجن لم يمتزن الا بإهمال الولد ، وتركه للخاديات والمراضع والانصراف عن الدار واعمالها ، والترفع عن الزوج ، ثم إنه لا يعجب إحداهن الا ان تلقى في زوجها حماراً (ولا مؤاخذة) تركبه الى غايته ، لا رجلاً نجبه وتطيعه ويحبها ويرفق بها .

وإن هي استغلت معلمة او محامية او طبيبة ، لم تكن الا (دون الوسط) في المعلمين والمحامين والاطباء ، فما هذا العلم ؟ ولماذا لا تتعلم ما ينفعها امرأة وزوجةً وأماً وربة بيت ؟ ولماذا لا تتعلم مع ذلك التحرر من عبادة (الموضات) والأزياء ، ومن حبّ تقليد النساء الغربيات حتى فيما هو ضرر محض ، وأن

يجعل لها العلم استقلالاً في فكرها ، تتبع كل ما تجده صالحاً ولو كان مخالفاً
ل (الموضة) ، مبادئاً لما عليه أهلها ؟

واما الحجاب ، واعني به ستر الاعضاء التي تثير غرائز الشر في نفوس الرجال .
حتى تبقى الفتاة كالجوهرة في صدفها ، لا يصل اليها سارق ولا غاصب ، فأنا
افهم سبب ثورة الفساق من الرجال عليه ، إنهم يريدون ان يستمتعوا بالجمال
المحرّم عليهم ، ولكنني لا افهم أبداً لماذا يقلدوهم النساء في هذه الثورة ، وما وضع
الحجاب الا لصيانتهم وإكرامهن ؟ وماذا يضر السيدة الفاضلة المتعلمة اذا لبست
اللباس المحتشم الساتر ، وهي ترى الرجل الذي تحاول التشبه به لا يكشف الا
وجهه وكفيه ، مع انها هي التي ينبغي ألا يظهر منها الا وجهها (عند أمن الفتنة)
وكفاها ؟ أفانعكست الحال ، وانقلبت الامور ، حتى احتجب الرجال
وتكشف النساء ؟ وما الذي ربحناه من السفور ؟ ليجب من كان عنده جواب
مقنع ، اما أنا فأدعي أننا لم نربح منه الا الشرور والفجور ، والدلائل حاضرات
اما الاختلاط ، واستغلال المرأة بأعمال الرجل ، فأنا اعجب من مطالبة
المرأة به ، ولا افهم من منا يريد لها الخير ، ومن الصديق لها ومن العدو !

نحن نريد لها ان تكون سيده حقاً مخدومة لا خادمة ، نأثيها حاجتها من
غير ان تسعى اليها ، وهم يريدون ان تسعى وتراحم الرجال حتى تصل الى خبزها
ولو اشتغلت بأخص الصناعات وأخط المهن ، ويدعون مع ذلك أنهم انصار
المساواة .

أين المساواة اذا حملت على ظهرها مثل حمل الرجل وهي تحمل في بطنها
ولده ، وأخذت مثل وظيفته وهو يغذي نفسه وهي تغذي نفسها وتغذي من
تدبها ابنه ؟

ثم إنك تقلدن أوربة ، مع ان المرأة تشتغل في أوربة عن عجز وحاجة
وكريمت السيدات لا يشتغلن شيئاً ، إنما تعمل البائسات الفقيرات ويتمنين زوجاً
يخلصهن من جهد العمل ، وإن عقلاء أوربة يصيحون ساكنين من مزاحمة المرأة
الرجل ، فقد عطلت بيتها ، وشغلت الرجل بـ (غير العمل ...) فقللت إنتاجه ،
ورضيت بالأجر الحسيس ، فنزلت الاجور ، فاضطر العامل ان يبعث بامرأته
الى العمل ، فجاءت قضية الدور التي زعم المناطقة أنها من المستحيل !

أفنبداً نحن من حيث أراد الغرب أن ينتهي ؟ أنلحق ما يريدون هم
الفرار منه ؟!

وهذه هي الصناعات ، فأياها تصلح له المرأة العادية وتعديل فيه الرجل ؟
إعرضها كلها من تكسير الحطب وتنظيف المجاري وكس الطرقات^(١) الى الحمامة
والقضاء والنيابة والوزارة ، وأخبرني عما تحبّون منها ...

نعم إن الدهر يجود أحياناً بنساء نابغات يصلحن لبعض اعمال الرجال ،
ولكن الكلام على سواد الرجال والنساء لا على النادر ، فكم نسبة الصالحين
لكل من هذه الاعمال من الجنسين ؟ وإذا صالح لها النساء فهل يصلح الرجال
(بالمقابلة) للطبخ وادارة المنزل وتربية الطفل ؟ إن هذا ينتهي بنا الى إعلانات
(مساواة الجنسين) ، وأنه لم يبق مجال للتفريق بين رجل وامرأة ؛ وإذا
يجب على الحكومة أن تسنّ قانوناً يجعل الحبّل على كل منها سنة ، فهي تحبل
مرة وهو مرة ، وهي ترضع ولداً وهو يرضع ولداً ، وأن ينص هذا القانون
على أن من يستعمل (نون النسوة) يعاقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات !

ياسيدي ، إنك تعودتن منا التشجيع والتصفيق والتهنئة ، ولكن
المسألة خرجت عن المجاملات وصارت مسألة موت لهذه الأمة أو حياة ، فأعدن
التفكير في أسس هذه النهضة ، واجعلن مصلحة الامة هي الميزان فيها !

(١) وقد سمعنا ان المرأة تشتغل بذلك في بعض الدول الاجنبية !

ياسيداتي، لقد كنا نرجو منكن أن تدفعن عنكن هؤلاء السفلة من الرجال
وأن تصفعنهم على وجوههم النجسة ، كما تصفع المرأة العفيفة أحد هؤلاء الكلاب
إذا حاول الاعتداء على عفافها ، وان تقاطعن هذه المجلات الداعرة الحبيثة التي
تؤدي شرفكن باسم الصحافة والفن ، وأن تشرن على هذه الأفلام السينائية
الداعرة ، وأن تخرجن معلمات حاذقات وتنادين بمنع كل شاب مهما كان شأنه
معلماً أو مفتشاً أو ناظراً ، من تجاوز عتبة مدرسة من مدارس الأنثى ، فهل
تحققن هذا الرجاء، هل تعين هذه النهضة على أساس الدين والخلق والعلم النافع؟!

★ ★ ★

لؤلؤ والمرآة

نشرت سنة ١٩٤٦

أدبت أمس حساني في المطعم وتهيأت للخروج ، فسمعت من ورائي لهجة غريبة ... فتلفت فرأيت على مائدة قريبة مني ، عراقياً بسيدارة ، ومعه شامي بعمامة مطرزة ، ونادل المطعم قائم أمامهما ، والعراقي يقول له :
- ماعون باجيلا على تَمَنِّ ، وَصَمُونَه .

والنادل مهبوت ، يقول :

- إيه ؟! إيه ؟!

فيقول الشامي : العمى ، شو ما بَسْتَفْهم عربي ؟ بدّو ماعون ما بتعرف الماعون ؟ يعني طبق غسيل ، وصابونَه .

- النادل : إيه بآه ؟

- الشامي : ليش ؟! برّ كي بدّو يتغسل !

(ويضحك من نكته)

- النادل : يتغسل ! بعيد الشرّ ، عاوز تؤول يشطّف .

- الشامي (مغرقاً في الضحك) : يشطّف ! ياغييب الشوم ، شو

ما بتستحي انتّه ؟

- العراقي : والله ، ماذا أفقّهم ، حشّي غريب هوايّه ، يابّه ،

ما تحشّي عربي ؟!

- النادل : ما نحكي عربي ، ياخويا ؟!

- الشامي : لكان عمّ يحكي أرناؤوطي ؟! هذا عربي !

- النادل : أمّال بؤول إيه ؟

- الشامي : بؤول بدو كوسا بحشي ومهوايه ، يعني مروحة .

* * *

ولم أستطع أن أتقاعس أكثر من ذلك ، وخفت أن يفضحني الضحك ،

فخرجت وأنا أسأل نفسي : ماذا يكون لو أقرّ جمع اللغة (العربية ...)

اقترح الأستاذ فريد أبو حديد بك ، الذي يدرسه الآن أعضاؤه ؟

والذي يقول فيه « فلو كانت العامية لا تريد على أنها استخدمت أداة

للتعامل في الأسواق والحياة اليومية لكان أمرها هيناً ، ولكنها منذ برهنت

على صلاحها للتعبير الأدبي صار من الممكن أن تنطلق في سبيلها متباعدة عن

الفصحى حتى ينتهي بها الأمر إلى الاستغناء عنها . بل إن جمال أساليب التعبير

العامي إذا بلغ مداه كان أجدر أن يسترق القلوب لأن تلك الأساليب أقرب

إلى النفوس والافهام من الفصحى لشدة اتصالها بحياة الكافة .

ولقد كان من أكبر ما عمل على تقويض أركان اللاتينية ظهور كتاب

مبدعين في اللغات القومية الأوروبية ، وقد كانت تلك اللغات عامية في وقت

من الأوقات بالنسبة للغة اللاتينية ، فقد ظهر دانتى في إيطاليا ، وكتب روائع

قومه بلغته (إلى أن قال) ولكننا لانحشّي على العربية الفصحى أن يكون

مآلها هو مآل اللاتينية لعدة أسباب :

١ - إن العامية لم تستطع إلى الآن (تأمل) أن تتسامى إلى آفاق الفكر العليا ، فإنها لم تزد بعد (تأمل) على أن تكون وسيلة للتعبير الساذج والأحاسيس الابتدائية ، ولم يظهر فيها بعد (تأمل) أمثال النوابغ الذين أنتجوا روائعهم الخالدة ، بلغاتهم الأوروبية الحديثة الدارجة .

٢ - إن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلغ شيئاً يقرب من الفارق بين اللغات الأوروبية الدارجة وبين اللاتينية ، فما زال التفاهم ممكناً في سهولة بين المثقف وغير المثقف بلغة سليمة بسيطة فصحي .

غير أننا لا ينبغي أن نتجاهل الخطر المائل في لباقة اللغة العامية ، وصلاحيتها كأداة للتعبير الأدبي فهو إن كان اليوم محدوداً فقد يكون غداً أقوى وقد تصبح أقدر على الأداء الأدبي السامي من الفصحى إذا فتت الشباب المثقف بالإنتاج الفكري باللغة العامية ، وعملت أجيال منهم على الارتفاع بها إلى المستوى الأدبي الذي يجعلها لغة فكر وتعبير صحيح « اه .

وأفكر ماذا يكون لو فتت الشباب المثقف هذه الفتنة (نعوذ بالله من الفتنة ، مظهر منها وما بطن) ، وصار في الدنيا لغة شامية ولغة مصرية ولغة عراقية ، ونشأ في كل واحدة منها أدباء وشعراء ، كما هي الحال في الفرنسية والاطالية والأسبانية ، وإن بقيت اللغة الفصحى (كما يريد الأستاذ) لغة القرآن والعلماء والمساجد والمعاهد العالية . وماذا يصنع إذن صاحب المطعم الذي كنت آكل فيه آنفاً ؟

إنه لا بدّ له من ترجمان ، عارف بهذه اللغات ، واقف عليها ، متخصص فيها ، عالم بدقائقها وسنن أهلها في كلامهم ، ليفهم النادل أن الماعون في بغداد

هو الطبق في مصر^(١)، والصحن في الشام، وأن التشطيف في مصر غسل الوجه واليدين، ولكنه في الشام غسل ال... أعني الاستنجاء، وأن الصمونة في بغداد هي رغيف الخبز الأفرنجي، ويسمى في دمشق الأفرنجوني، ولكنها في تونس اسم لشيء يستحيا من ذكره ولقد حدثني الأستاذ القليبي رحمه الله أنه قال لغلام الفندق لما كان في بغداد: هات لي خبزاً طرياً لاني بلا اسنان. فقال له: أجيّب لك صمونة؟ فغضب الأستاذ غصبة مغربية وقال: ماتسحي تمزح معي وأنا بقدر جدك. والباجيلاء الفول والتمن الرز، وأن ال (هوايه) في العراق، صفة للشيء الكثير، وهي في غوطة دمشق الصفعة على الوجه، وأنتك إذا (بسطت) رجلاً في الشام ومصر فقد سررته، وإذا (بسطته) في العراق فقد ضربته، والمبسوط المضروب (علّقة)، وهي في الشام (فلسقة)، والتقليع في الشام الطرد من الدار ونحوها وفي مصر نزع الثياب وأن التقفيل في مصر إغلاق الباب وله في الشام معنى هو أخبث من أن يشار إليه، و (هون) في الشام هنا، وفي العراق (هنا) ، والهون في مصر هو الهاون الذي يدق به واسمه في الشام الهاون، هذا عدا عن الكنايات السائرة والمجازات المشهورة، وهي كثيرة في كل بلد لا يعرفها إلا أهله يلحنون بها في أحاديثهم، ويسخرون بها من الغريب؛ وعندك بعد اختلاف النطق وما ينشأ عنه من اختلاف المعنى، فمن المصريين من يميل بالسين إلى مخرج الزاي، ومن هنا سارت النكتة في دمشق عن مدرس مصري جيء به إلى مدرسة بنات، فقال لإحداهن مؤنباً:

— إيه الأسباب التي منعتك من إعداد الدرس؟

وفي العراق يجعلون القاف جيماً معطشة، وقد سألت حوذيلاً يوم وصلت بغداد، أن يأخذني إلى ضاحية نزهة. فقال:

(١) ومن الطرائف أن الماعون في السلط كان يسمى (السفل)، فنقول المرأة لجارتها: اعبرينا سفلك... .

- تروح باب شرجي ؟

فكدت أبطش به ، وما يريد إلا (الباب الشرقي) وهو من متنزهات بغداد .
ومن ذلك أن أديباً مصرياً زارني في إدارة الرسالة ، وكان الحديث عن
الفساد في مصر ، فقال لي إن في دمشق ما هو أفظع وأشنع ، اعلانات على
ابواب الدكاكين فيها طلب صريح للخنا ، فأنكرت واستوضحت ، قال لقد
رأيتها بعيني ، لوحات فيها (يلزمننا آنسات للخياطة) ، والخياطة في عامية مصر
كناية عن الزنا . فتأمل !

نعم انه لابد من ترجمان ؟

وليس يجيء هذا الترجمان إلا من مدرسة ، فلا بد لنا إن أقر المجمع اللغوي
هذا الاقتراح من أن ندرّس هذه اللغات الشرقية الحية في مدارسنا الثانوية ،
وننشئ لها قسماً في كلية الآداب ، أو أقساماً لأن اللسان الشامي سيكون فيه
لغات متعددة ، فلغة دمشق ليست لغة حلب ، وهي تختلف في معاني المفردات ،
وفي تركيب الجمل ، وفي طريقة النطق ، ولغة حلب غير لغة حمص ، ولغة
حمص غير لغة حماة ، وكلها تختلف لغة دير الزور ، وهذه تختلف لغة البادية ،
فصار عندنا في الشام لغات في كل منها لهجات ، ولهجة أهل دمشق غير لهجة أهل
الغوطة ، ولهجة هؤلاء ليست لهجة جبل القلمون ، وفي القلمون عشرون لهجة
تختلف اختلافاً بيناً ، وفي كل منها شعر ... وأدب ... إي والله وموسيقى ...
وقس على ذلك ألسنة لبنان وفلسطين والعراق ومصر والسودان والحجاز
واليمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، واجمع هذه الألسنة بما فيها
من اللغات واللهجات ، تجدها تحتاج إلى عشرة أساتذة لهم كراسي في الجامعة ،
وتحتل عشرة دبلومات ، يكتب صاحبها على بطاقته (فلان ، دبلوم اللغات
العراقية) أو (دبلوم اللهجات اللبنانية) ... ودبلوم في أصول هذه اللغات

ومصادرها ، ودبلوم في نحوها وصرفها المقارن .

وعندئذ يكون شكوكو من أمراء الشعر الذين تدرس آثارهم في الجامعة ،
واسماعيل ياسين من أمراء النثر ، ويكون من تعبيرات النقد الجديد ، أن
نقول للكاتب المعقد الذي لا يفهم « إنه يكتب بالعربي » كما يقال في أوربة عن
الكاتب الفرنسي المحدث إذا أغرب وعقّد ، أنه يكتب باللاتيني .

وعندئذ ينشأ في كل لسان ، ترجمة يترجمون إليه الآثار العربية لتحفظ في
المدارس ، ويربى بها النشء على البلاغة كما ترجمت إلى الفرنسية آثار دانتي
وفرجيل ، فتحفظ الطلاب في دمشق قول المتنبي ، مترجماً هكذا :

على أدّ أهل العزم بتجي العزائم وبتجي على أدّ الكرام المكارم

وقول شوقي في الأزهر ، يصير :

أومبتم^١ الدنيا وسلم ع الأزهر ورش على أدّ الزمان الجوهر^(١)

بدلاً من :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

و :

ثم في غم الدنيا وحيّ الأزهر وانثر على سمع الزمان الجوهر
ولا شك أن هذه الترجمة (أجدر أن تسترق القلوب) - كما قال الأستاذ
أبو حديد بك في تقريره .

وعندئذ تطبع الرسالة أربعة آلاف فقط ، وأخبار اليوم عشرة آلاف ،
وينشأ في كل بلدة جريدة صغيرة تنطق بلسان أهلها ، ولا يبعد أن تشتد الحماسة
لهذه اللغات كما اشتدت بتوكيا الجديدة الحماسة للسانها ، فيؤذن بها على المنابر ،

(١) هذا ... فإذا أخذ بالاقتراح الثاني ، وكتبناها بالحروف اللاتينية ؟

ويخطب بها على المنابر ، ويترجم القرآن إلى كل واحدة منها .
وعندئذ لا تستطيع الدول العربية أن تجتمع في جامعة ، ولا أن تتحد في
شعور ، ولا أن تسوق جيوشها إلى فلسطين موحدة القيادة ، لان الصلة الوحيدة
بينها هي هذه العربية ، فإن انقطعت لم يصل بينها شيء ، ولا الدين ، لانها إن
ذهبت العربية ذهب معها القرآن فلم يبق دين .

وبعد فلن يكون شيء من هذا . ولو قال به المجمع (ولن يفعل) لما سمع
منه أحد ، لمكان القرآن من هذه العربية ، ولان الله تكفل بحفظ القرآن ،
ولكننا أردنا أن نسلّي القراء في أيام العيد التي لا عمل فيها يشغلهم كما أراد
الاستاذ أبو حديد أن يسلّي أعضاء المجتمع ، الذين جعل الله أيامهم كلها ...
أعياداً ...

* * *

المشكلة الكبرى

١

نشرت سنة ١٩٣٨

صورة المسئلة

آلاف مؤلفة من الشبان يبيتون مسهدين ينتظرون أزواجهم اللائي خلقهن الله لهم ، وآلاف مؤلفة من الشابات يبتن الليل مؤرقات ينتظرن أزواجهن الذين برأهم الله هن والذرااري تطل من شرفة الغيب ترقب تعارف أبوجها ، لتأخذ باذن الله ، طريقها الى عالم الوجود ، فيكون منها عباد الله صالحون ، وجنود للوطن مخلصون ، وانصار للحق ثابتون

ثم اذا قدر الله وكان زواج ، كان الزواج (أكثر ما يكون) همماً ونكدآ وخلافاً مستمراً ، وآض البيت من بعده جحيماً محرقاً ، وسجناً مظلماً ، ونشأ الأولاد على غير تهذيب ، ومن غير دين ولا أخلاق ...

هذه هي صورة المسئلة : انتظار أليم يسلم الى الجنون أو الى الفسوق أو الى اليأس ، ونقص في الأولاد ، وضعف في الأمة ، وخراب للبيوت ، وضياع للأسر ، وفقد للسعادة ...

سبيل العلاج

هذه هي صورة المشكلة ، فما هي أسبابها ؟ وما نتائجها ؟ وما علاجها ؟ بل وما نفع الكتابة فيها ؟

لقد كُتِبَ فيها وكُتِبَ (حتى لو أن محصياً أحصى المكتوب فيها لجاء معه كتاب ضخيم) فلم يُغنِ المكتوب شيئاً ، ذلك أن المشكلة تحتاج الى حل عملي يقوم به الآباء ، لا الى نظريات وفلسفات يدلى بها الكتاب والأدباء ، من أجل ذلك نحوت في هذا البحث نحو العمل فلم أتعق ولم أتفلسف ! ومن أجل ذلك ضربت من الواقع امثلة ، وأخذت من الحياة شواهد وصوراً ... على أنها لا تغنى المباحث ، ولا تجدي الشواهد ولا الصور ، ولا المقترحات ولا الآراء ما لم يحققها عقلاء الآباء ، أو من لهم في الامة أمر أو نهى ، من أرباب الحكم واصحاب السلطان !

موانع الزواج

لو سألت أكثر العزّاب من الشبان : « ما منعكم من الزواج ؟ » لكان جواب الاكثرين إن لم أقبل جوابهم أجمعين : « المهر ، وما يتصل بالمهر من تكاليف وبلايا » ، ولست أذهب بالقارىء الى بعيد ، بل أضرب له المثل من نفسي ...

أنا أريد الزواج ، وأنا امرؤ في رأسه أشياء وليس في كيسه شيء ... أما الذي في رأسي ، فقد أفنيت في تحصيله شبابي ، وببضت في طلبه ليالي وسوّدت نهري ، وخذعني عن حقيقته معلمي فحسبته أثمن شيء في الوجود ، وصدقت أن العلم خير من المال ... فرأيت من بعد أن المال خير من كل شيء ... وأما

كيسي فما فيه وفر، ولكن فيه مرتبا يكفيني ويكفي بحمد الله اربع زوجات معي ، لو أن الزوجة بقيت الى اليوم شريكة الحياة وربة البيت ، تطلب حياة هنيئة وزوجاً صالحاً ، بيد ان هذا كله قد ذهب ... وصارت الزوجة (يا أسفى !) متاعاً يشرى ، ولا بد للمتاع من ثمن ، فاذا أخذ الاب الثمن لم يبال بعده شيئاً ، ومتى كان يبالي التاجر اذا استوفى الثمن بأخلاق الشاري أو سيرته في أهله ؟ وثن الزوجة (أقل ما يكون) خمسون أو مائة (ليرة) ذهبية فتصور يا صديقي القارئ متى تجتمع لرجل مثلي مكساب متلاف لا يستطيع ان يمسك شيئاً ، أو لا يفضل عن نفقته شيء ؟ وليست هذه المصيبة كلها . إن بعدها نفقات العقد (الكتاب) وقبل العقد خاتم الخطبة ، وما يكون إلا من الذهب ، و (الشبكة) وما يصلح لها الاحلية لها قيمة ... وبعد العقد الهدايا واللبطف يحملها الى دار (الزوجة العتيدة) كلما زارها ، ولا بد له من أن يزورها ؛ ثم تأتي بلايا العرس ، وما أدراك ما بلايا العرس : كسوة أهله وأقربائه من تجب عليه نفقتهم (وكسوة النساء) أقبح التبذير ، لانهن يشترين قماشاً لا يدفع ولا يستر ، ويدفعن ثمنه غالباً ، ثم اذا مرت شهور بطل طرازه (موضته) فأصبح لا يصلح لشيء ... وبعد الكسوة نفقات حفلة الزفاف . ثم اذا دخل على زوجته ، وانفرد بها ، لا تكلمه حتى يدفع اليها (ثمن شعرها) وهي جملة من المال لا تقل عن (بضع ليرات ذهبية) ولا حد لزيادتها ، وما أدري والله كيف تنزل الفتاة للمقص عن شعرها يجزّه ويلقيه على الارض ، ثم تطلب (ثمنه) من زوجها ؟

ثم إذا أصبح اعطاها (وجوباً) عطية اكبر من (ثمن الشعر) هي (الصبحة) ، فاذا زال النهار أهدى اليها هدية ، لا بد أن يكون فيها ازار للحمام ثمين وقد يكون منسوجاً بخيوط الفضة ، ومناديل (مناشف) الخ ...

ثم تأتي نفقات (السبعة الأيام) يقيم فيها الاقارب والاهلون في داره ، ولم لهم كل يوم الولائم ، ويُطرفون بأنواع الطرف ، فاذا انتهت دعوا جميعاً الى الحمام وقد قلّ ذلك في هذه الايام منذ كثرت الحمامات في الدور ، وأهملت الحمامات العامة أو كادت ، ثم يدعو أهلها (أي أهل الزوجة) جميعاً وأهلها الى وليمة كبيرة تسمى (التعرّينة) يعرف فيها بعضهم ببعض - وقد يبلغ المدعوون اليها المئات في بعض الاسر الكبيرة ...

فأني لملي الطاقة على هذه المصروفات التي تحرب بيوت الاغنياء ؟ وإني لأعرف قاضياً شرعياً زوج ابنه ، فتكاثرت عليه النفقات ، فلم يقدر عليها حتى باع بيته - لينفق ثمنه في ليالي العرس ! هذا أول موانع الزواج وأظهرها ...

الحجاب

وهب أني قد وقعت على كنز ، أو اصبحت إرثاً فأصبحت غنياً وتوفر لي ما أبتغي من المال فكيف أختار زوجتي ؟ أما الحاسرات المتبرجات اللاتي يعرف الرجال كلهن : صدورهن ونحورهن وأيديهن وسوقهن ، فأنا (بحمد الله) أعقل من أن أتخذ زوجة منهن ، ولو كانت ابنة ماء السماء ، وأعلم العلماء ، وما احسب ذا دين ومروءة ، يرضى أن يتزوج من رضىت لنفسها إهمال الدين وإسقاط المروءة ، بتعرضها في زينتها وفتنتها للرجال ، تستهويهم وتأخذ بأيديهم الى النار ... بقى على المتعجبة من بنات الأسر ، وهي التي لا سبيل الى رؤيتها الا ليلة الزفاف ، بعد أن يكون الغل قد استدار حول عنقي ، والقيد قد أحكم إقفاله على يدي ورجلي ، ولم يبق لي الا أن أقبل بها ولو كان لها وجه قرد وأخلاق الشيطان !

أف هذا من المعقول ؟

يريد المرء سفرًا ، فيتجرى عن أخلاق رفيقه أياماً ، ليعلم أوافق أم يخالفه
ويبتغي أجيراً فيراه ويبحث عن أصله وفصله ، ويجرّ به أياماً ؛ ويعزم على أن
يتزوج ، فلا يرى رفيقة حياته ومهوى قلبه ، وموضع حبه ، الا بعد أن يتم
كل شيء ؟

مع أن الشرع أباح له أن يراها ويجالسها ^(١) ... ومع أنها تخرج الى السوق
فيراه (على خلاف الشرع) البائع ومن كان عنده ، ويقدم اليها القهوة ويجادتها
ويراها عمال السينا ، ويراه ... ويراه ... فما الذي حاق بالآباء حتى هان عليهم كل
محرم ، وصعب عليهم ما أحل الله ؟

هذا هو المانع الثاني من موانع الزواج ، بل إن هذا الوضع هو الذي سبب
ما نرى من تبرج النساء وحسورهن ، وعريهن على السواحل ... ولا علاج له
الا بحجاب شامل (وذلك ما لا يستطاع) أو بسفور شرعي ، كالذي سماه
صديقي الأستاذ عز الدين التموخي بسفور الراهبات ، وذكر أن الحشويين
الجامدين ، يقابلون من يفتى به بالسباب والشتائم ، وذلك هو الواقع ، فان
هؤلاء قائلون بالمرصاد لكل من يعرض رأيا في إصلاح حال المرأة الذي كاد
يصل الى حدّ العري المطلق بل لقد بلغه فعلا ... ولكنهم لا يأتون بأي رأي
من عند انفسهم ، ولا يهتمون بما يرون ، فهم هادمون ولا يبنون ، وهم مفسدون
لعمل كل مصلح ولا يصلحون ... والله الحمد على أن ضعفت منبتهم ، وخففت
اصواتهم ، وبادت جماعتهم ، ونسأل الله أن يبدلنا بهم علماء يفهمون روح
الاسلام ويعرفون حقائقه ، ويفهمون روح العصر ويعرفون حاجات أهله

الخريف العائلي

فاذا يسر الله لامرئ سبيل الزواج ، وانجاء من هذه الموانع ، عرضت له

(١) أي يراها غير حاسرة ويجالسها غير منفرد بها .

مشاكل ، ورأى من المتاعب ما يندم معه على ما أتى ، ولو ذهبت تنقص أحوال
المتزوجين ودخائلهم في بيوتهم لوجدت أكثرهم متألماً شقيماً ، ولهذا الألم أسباب
يمكن تلافيها لو فكر فيها الزوج ، وعزم على التلافي .

أول أسباب الخلاف

أعرف أخوين : أما أحدهما فشيخ محافظ توفي رحمه الله من سنين طويلة ،
وأما الثاني فأديب موسيقي على الطراز الجديد . تزوج الأول ، ولبت مع زوجته
سنة عشر عاماً حتى توفي عنها ولم يكلمها على مسمع أهل كلمة ، وإنما كان يوجه
الكلام الى أخته سائلاً حاجته ، أو يأمر أخته أن تقول لها ما يريد ، وألفت
ذلك منه ورضيت به أو صبرت عليه . وكانت تخشاه كخشيتها الله أو هي أشد له
خشية .. وأما الثاني .. لا . بل إن أكثر من عرفنا من الأزواج (المجددين)
تتجكم بهم نساؤهم ، فيأمرهم وينهيهم ، ويشتتمهم وقد يضربهم ! وهم يخافونهم
ولا يجردون عليهم ..

أي أن الأزواج بين رجلين ، رجل أعمل سلطته ، وأسقط عاطفته ، فكان
في بيته سيداً ، ولكنه لم يذق طعم الحب ، ولا عرف السعادة الزوجية ،
ورجل تبع عاطفته فأرضاها ، وأهمل سلطته فأضاعها ، فعاش في داره عبداً ،
وتفصيل ذلك أن الزوج هو الذي يحكم على نفسه ، ويختار طريقه ، فإذا دل
زوجه في الأيام الأولى ، ومثل لها (دور العاشق في الروايات الخيالية) ، ومنحها
قيادته ، وأراها أنها حياته ، وأنها الآمرة الناهية عليه ، وتذل لها وخضع ،
(ولذة الحب في التذلل والخضوع) ألفت ذلك منه ، وتعودته .. فإذا طارت
من رأسه سكرة الحب ، وأحب أن يحكم في الدار ، كما يحكم رب الدار ، وجد
الأمر قد أفلت من يده ، فبدأ الخلاف ، ثم لا ينتهي أبداً . وإذا هو ضبط

نفسه في الايام الاولى ، ولم يعط الا بقدر واستعمل عقله وسلطانه ، ألفت منه الزوجة ذلك ، فوجدت كل عطف منه بعد ذلك غنياً كبيراً ..

فالزوج العاقل الحازم من لم تله حلاوة العسل التي تدوم له شهراً ، عن مرارة العلقم التي ستبقى دهرأ طويلاً . ومن لم تشغله اللذة الجسمية العاجلة ، عن السعادة الروحية الآجلة . فليتنبه لهذا الأزواج ، فمن هنا منشأ الخطر ...

مقوق الزوجين

ومن أسباب النكد البيتي ، والشقاء الدائم ، الخلاف على حقوق كل واحد من الزوجين ، فمن الرجال من يأخذ أكثر من حقه ، ومن النساء من تقيم نفسها مقام الرجل ، وتفرض عليه سلطانهما ، حتى إن الرعناء لتسأله : أين كنت ؟ ومن كلمت ؟ بل إن من النساء المققاوات المتحذلقات ممن يحسبن أنهن متعاملات من تحاسب زوجها على زيارته أهله ، وصلته رحمه ، وتغار عليه إذا كلم عمته أو زارها .. حتى أصبح الأمر فوضى لا ناظم له وظلمة لا نور فيها : مع أن الشرع الاسلامي (الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا بين وجه الحق فيها) قد حدد حقوق الزوجين ، فجعل « من حقوق الزوج على زوجته أن تطيعه فيها ، لا معصية فيه ، وأن تصون عفافها ، وألا تخرج إلا بإذن منه أو لضرورة ، وأن تحرص على إدخال السرور عليه ، وألا تكلفه مالا يطيق ولا تطالبه بالزائد من حاجة نفسها ، وأن تبذل جهدها في أداء واجباتها الدينية ، وأن تعطيه زمام الرياسة المنزلية . ومن حقها عليه أداء مهرها كاملاً اليها والالتفاق عليها بالمعروف وأن يجتهد في تعليمها واجباتها الدينية وأن يكرم سرها ولا يتحدث به وحسن خلقه معها واحتمال بعض الأذى منها وممازحتها ومداعبتها » (١) أي أن للرجل

(١) حقوق الزوجين للاستاذ الشيخ محمود ياسين .

على الجملة رياسة المنزل (حين لم يكن بد لكل شركة أو جماعة من رئيس) وله السيادة فيه ، وحفظ كرامته ، وإدارة شؤونه الخارجية والاشراف على أموره كلها ، وله الحكم في كسوة المرأة وخروجها ، وله تأديبها بالعدل ، ومن غير أن يخرج على ما أحل الله وذكر في كتابه ، وللمرأة حق التصرف بأموالها ، وإدارة شؤون المنزل الداخلية ، والتفقه عليها وضمان حاجاتها اللازمة ؛ ولها عليه ان يحرص على سعادتها وسرورها ، ويعاملها بالخلق الحسن ، والقول اللين ، ويتغاضى عن خطيئاتها ما أمكن التغاضى ، ويعلم أنها شريكة حياته ، وأدنى الناس اليه فلا يستأثر دونها بطعام أو شراب ، ولا يدعها في المنزل وحيدة متألماً ويسهر في المقاهي والملاهي ، ولا يقدم نفسه عليها في كسوة أو متعة من متع العيش .

المساكنة بين الزوجين

وإن من اظهر الخلاف بين الزوجين ، ألا يكون بينهما مساكنة ومماثلة ، كأن يكون فقيراً وتكون هي غنية ، فتعيره بفقره ، وترفع عليه بما لها ، أو ان يكون من رجال الاعمال ، وتكون متعلمة ، على أن المتعلمة العالمة حقاً لا ينتظر منها الا كل خير ، ولكن البلاء في هؤلاء اللاتي يحبين أنفسهن متعلقات لانهن كن قبل الزواج معلمات في مدرسة أو مديرات ، وإن كن لا يفتحن في السنة كتاباً ، ولا يفهمن شيئاً ، ولا يعرفن الا تنكيد حياة الزوج ، وإضاعة ماله في الولائم والاستقبالات ، والكسوة والزينة ، هؤلاء هن البلاء الازرق ، وخير منهن الامية الجاهلة . ومن اشنع اشكال الاختلاف بين الزوجين حال من يتزوجون بالاجنبيات ، فيرون منهن (على الغالب) ما يتمنون معه الموت الاحمر . وإني لأعرف من الناس رجلاً درس في فرنسا وجاء معه بفتاة

زعم أنها من اكرم الاسر الفرنسية واعرقها ، فتزوج بها ، فكان من أسير ما تصنع انها تذهب الى السينما فترى الضباط الفرنسيين فتحن اليهم بصلة الدم فتكلمهم وتصادقهم ثم تدعوهم الى دارها فلا يروع صاحبنا الا الضباط قد ملأوا بيته . ثم انتهى امرها بالفراق مع واحد منهم !

ومن العجب ان دماغين كبيرين تواردت خواطرها على مسألة واحدة ، وبينهما الدهر الاطول ، وبينهما ما بين المشرق والمغرب فوقعا فيها على الصواب الذي نعرفه ولا نريد ان نتبعه :

لما كانت القادسية ، ولم يجد الناس نساء مسلمات ، تزوجوا نساء اهل الكتاب فلما كثر المسلمات بعث عمر بن الخطاب الى حذيفة بن اليمان بعد ما ولاء المدائن « بلغني انك تزوجت امرأة من اهل الكتاب فطلقها » فكتب اليه : « لا افعل حتى تخبرني أحلال أم حرام ، وما أردت بذلك ؟ » فكتب اليه عمر : « لا ، بل حلال ، ولكن في نساء الاعاجم خلافة ، وإن اقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » . فقال حذيفة : الآن ! وطلقها .

هذا حكم الرجل العظيم ، عمر ، وقد حكم به في المدينة منذ الف وثلاثمائة سنة . وأما الثاني فحكم موسوليني ، حكم به المؤتمر الفاشي في روما في هذا الاسبوع حين كان من مقرراته منع الايطاليين من الزواج بالاجنبيات فمن لم يعظه قول عمر ، فليعظه حكم موسوليني !

المشكلة الكبرى

٢

سقت اليك في الفصل الماضي طرفاً من حديث المشكلة ، وانتهيت بك الى الكلام على المشاكلة بين الزوجين ، وأنها ركن كبير من اركان السعادة الزوجية ، فاذا لم تكن مشاكلة ، وكان بينها اختلاف في الغنى او العلم او الجاه كانت الحياة الزوجية موتاً بطيئاً . على أنه لا بأس أن يكون الزوج هو الأعلى في جاهه او ماله او علمه ، ولكن البأس كل البأس حين يكون الأدنى لأن الغنى والعلم والجاه من وسائل السلطان ، فاذا كان ذلك للمرأة زاحت الرجل على سلطانه ، ونازعته رياسته ففسد الأمر ، واضطرب حبل الود . وأحسب أن مبدأ الكفاءة في الزواج (في الفقه الاسلامي) هو الدواء لهذا الداء .

وأنا متحدث اليك في هذا الفصل عن سائر أسباب الخلاف بين الزوجين ، ولست أزعم أنني متقصيها كلها أو محيط بها ، فذلك مالا اقدر عليه ، ولكنني ذاكر منها ما انتهى الى خبره .

موقف أهد وأهلها

فمن ذلك موقف امله وأهلها ، فانه من اظهر اسباب الخلاف بين الزوجين

واكثرها انتشاراً بين ظهرائنا ، حتى إنه ليبلغ منا العجب حين نسمع أن داراً تجمع بين الكثرة والحماة ، ولا تجمع اليها النكد والشقاق والبلاء تصبه على الزوج صباً ... فلا يكاد يروح الى داره ليجد فيها الراحة بعد تعب النهار ، والهدوء بعد الكدح المضى ، والكدة المميت ، حتى تستقبله المعارك والشكايات والدسائس ، وما اكثر القراء به عالمون ... فيحار في أمره : لا يدري أيسوء أمه وهي التي حملته جنيناً ، وربته صغيراً ، وأحبته وجعلته أمها في حياتها ، أم يسوء زوجه وهي التي هجرت أهلها وفارقت عشها لتجعله أهلها من دون أهلها وأمنها ومفرعها ، ثم إنها قد تكون بريئة لا ذنب لها ويجد أن أمه لا ترضى عنه حتى يفارق زوجه ، ويبتسم أولاده ، وزوجه لا ترضى عنه حتى يطرد أمه ويعصى ربه ، وهما خُطَّتَانِ أهونهما اصعب الصعاب ، وخيرهما من شر الأمور وليس الى إقناع إحداهما من سبيل ، لأن المرأة منطقاً خاصاً ، يجعل بينها وبين الرجل هوة لا يلتقيان معها أبداً ، ويدع الرجل وإقناع الف رجل اسهل عليه من إقناع امرأة واحدة ...

والخلاف بينها باق لا يزول ، معروف لا يتبدل . فالأم ترى أنها هي سيدة الدار لأنها الكبرى ، ولأنها الاصل ، وأن على الكنة التي أحضرتها بيدها واختارتها برأيها ، ان تطيعها ، وتعمل بإشارتها ؛ والزوجة ترى ان الام عجوز قد مضى زمانها ، وذهبت ايامها ، واصبحت كالموظف المتقاعد ، له مرتب وليس له أمر ولا نهى ، وانها هي السيدة في الدار ، وان لها الرأي في إدارتها .. ثم إنها تختلفان على قلب الرجل ، فالام التي عرفته وليداً ، وربته طفلاً وبافعاً ، وكان لها وحدها ، لا تطيق أن تراه وقد صار لغيرها ، ولا تقدر أن تبصر نفسها فريدة في غرف الدار ، كأنما لم يكن لها ولد لان ولدها خال بزوجه ... والزوجة التي أعطت زوجها قلبها كله وحياتها ، ولم تجعل له شريكاً فيها ، لا تستطيع

احتمال هذه الشركة بينها وبين هذه العجوز ، ولا يقنعها الا أن يكون الزوج خالصاً لها ...

وما يقال في الأم يقال مثله مع الأخت ، بل إن الأخت إذا كانت عانساً لم تتزوج ، وإذا كانت على بقية من شباب ، تكون أشد على الرجل من أمه ، لأنها أقل منها حباً له وحناناً عليه ، وأكثر منها غيرة لمكان الصبوة من نفسها ، ولأنها ترى امرأة غريبة تستمتع بالزواج الذي حرمت هي منه ، ويكون هذا الزوج أخاها ، غلبتها هذه الغريبة عليه ، وحرمتها عطفه وحبه ، فيكون حرمانها مضاعفاً ...

هذا وليس ينفرد أهل الزوج بادخال الألم عليه ، وتنغيص حياته الزوجية بل يشارك في ذلك أهل الزوجة ، يكرهون فئاتهم على الزواج بمن لا تريده ، لعلو سنه عن سنّها ، أو قبحه وجمالها ، فلا يحفلون بإرادتها ولا يباليونها لأنهم يرونه غنياً ، فهم يبيعونها منه بيعاً ، أو صاحب جاه فهم يجعلونها وسيلة الى الانتفاع بجاهه ، بل ربما زوجوا الفتاة بنت خمس عشرة ، بالشيخ أبي الستين ، ولم يستأمروها ولم يروا رأيها ، وربما زوجوها من الرجل القبيح . ولقد قال عمر (الرجل الملمم) فيما احفظ من قوله : (لا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يحبين ما يحبون) ... فتدخل الزوجة دار زوجها وهي له كارهة ، فلا يأتي منها الا مساءته وإتعا به ، إن لم يسقها صباها وعجزه الى أن تنصل بغيره من الفتیان .

هذا طريق ، ولأهل الزوجة طريق آخر الى إفساد الحياة الزوجية ، هو التقصير في تربية فئاتهم أولاً ، وعجزهم عن ضبطها وتأديبها ثانياً . فإذا كانت الزوجة سيئة الخلق رعناء ، فإنها تدع دار زوجها لأتفه الاسباب ، وتذهب مغاضبة تشكو الى أهلها وتستعديهم ، فإذا كان أهلها علاء ردوها اليه ، واصلحوا

ذات بينها ، ولا موها على خلوة بها ، كما يلومونه على خلوة به ، فيؤلف الله بهم
بين القلبين ، وتعلم الزوجة أنه لا ملجأ لها الا دار زوجها ، ولا منجى لها الا
حسن خلقها فترضى وتستقيم ، وأما اذا كان اهلها جاهلين يغضبون لها غضبة
الجاهلية فيعينونها على طلاقها ويزيدون في عنادها فيخربون بيوتهم بأيديهم ،
ويسوقون الشقاء الى فتاتهم ، ويكونون شرأ عليها وعلى زوجها ووبالاً ...

ودواء هذا الداء أن يبحث الرجل عن اخلاق الاسرة ، وأسلوبها في تربية
بناتها ، وحال أمها مع زوجها ومبلغ طاعتها له ورضاه عنها ، قبل الاقدام على
الزواج ، فاذا اطمأن الى ذلك وصاهر عاقلاً حازماً ، وكان الزواج برأي الفتاة
ورضاها ، من غير احتيال عليها ولا إكراه لها ، فقد أمن جانب اهلها ، وبقي
عليه جانب أهله ... والمصيبة بهم أشد ... والعلاج أن يتفرد عنهم بزوجه . فاذا
لم يستطع ذلك ، فعليه بالحزم في الايام الاولى ، وأن يعرف لأمه حقها ، فان
زوجه تطيعه وتتخرج به وتتربى على ما يربّيها عليه ، أما أمه فلا سلطان له
عليها ... وعليه بعد ذلك أن يرضى زوجته فيما بينه وبينها ، ويعوضها بما فقدت
من السيطرة في الدار ، بما يدخل السرور على قلبها ويمأؤه رضى وأملاً والسبيل
الى ذلك شتى .

المساكن المالية

أولها هذا (الجهاز) فكم ثار من أجله من خلاف ، وكم هدد من أسر ،
وكم أصاب من بلایا ... يتنافس القوم من أجله في إغلاء المهور حتى تبلغ المئات
من الجنيهات ، فتبور سوق الزواج ، وتكسد البنات ، ثم اذا كتب الله على
الزوج أن يدفع هذا المهر الفاحش ، لم يكن دفعه غنماً للأب ولا لفتاته ، لان
عليه أن يدفع مثل ما دفع الزوج أو قريباً منه ، ثم يشتري بذلك كله أثاثاً ومناجاة

وما سئلت من الخُرْتُي^(١) الذي لا ينفع في دنيا ولا آخرة ، فمن خزانة محفورة منزّل فيها أدق الاصداف ثمنها سبعون جنيتها ، ومن مقاعد وأرائك على نحوها ثمنها مائتان لكنها لا تقيم على الاستعمال عاماً واحداً ، ومن ستائر للتوافد ثمن إحداهن عشرة جنيهات ؛ ومن أوان فضية وقوارير (كولونية) نصف على المناضد صفا ، كصف الجند ثم لا تفتح أبداً ، والمناضد (نسيت المناضد) وثن إحداهن عشرات الجنيهات ، وغير ذلك مما لا أعرفه ولا أذكر اسمه وإن كنت قد رأيته في دور الحمقى والمغفلين ...

ولقد عرفت شاباً مستور الحال أراد الزواج فطلبوا منه أربع مائة دينار ذهبي ، فباع داراً كانت لابيه ، وأعدّ المهر ، فسلمه الى أم الزوجة ، وضمت اليه أمها ثلاثمائة من عندها لتشتري بها جميعاً (جهازاً) لابنتها ، فلما بلغه ذلك طار عقله وذهب يقنع أم الفتاة أن تشتري لها بذلك داراً (عمارة) يكون لها ملكها وريعها وتبقى على الدهر فقبلت ومرت أيام فبلغه أنها قد عدلت عن ذلك وأنفقت المال كله في الجهاز ... فسألها عن السبب فاذا السبب أن البنت بكّت وقالت : هل أنا دون ابنة فلان ، وقد جيزوها بكذا ...؟؟ قالت الام : « فقطع قلبي بكأؤها ، فلم يسعني إلا أن افعل ما تريد ... »

وتم العقد واستأجر الزوج داراً فخمة (على نسبة الجهاز) فلم تمض الا شهور حتى ركبته الدين ، فاضطر الى استئجار دار تليق به ، ويحتملها مرتبه ، فلم يلق فيها مكاناً لهذا (الجهاز) فذهبوا يبيعونه ؛ فلم يأتهم بأكثر من مائة وعشرين ، وقد كان ثمنه سبع مائة ...

ومن مشا كل الجهاز أن الزوجة تجده رأس مالها ، وقتيتها في حياتها ، فتحافظ عليه محافظتها على روحها ، وتكره أن يدعى الى الجلوس على مقاعده

(١) الحرّي : المتاع الذي لا فائدة فيه .

ضيوف زوجها ، او ان يدخل غرفته زوار أهله ، وقد لا يكون في الدار غرفة للاستقبال سواها ، لأن الناس يجعلونها أبداً للاستقبال . فتبدأ المشاكل ... وقد تنتهي بالطلاق ... رأينا ذلك مراراً .

وعندي ان الدواء بإبطال الجهاز بالمرة ، وان يفرش الرجل داره كما يريد ويستطيع ^(١) ، ويشتري بالمهر القليل الذي يدفعه الزوج عقار تملكه الزوجة ويسجل باسمها ، او حلية ذهب تبقى لها محتفظة بشمها .

* * *

والمشكلة المالية الاخرى نفقات المرأة وكسوتها . أقص عليك قصة امرأة واحدة . فيها وصف لنساء كثيرات ، تلك هي امرأة موظف كبير مرتبه ثلاثمائة ليرة سورية ، وهو مبلغ في دمشق ضخمة ^(٢) ، تخرج من دارها كل يوم في عربة او سيارة لا تستطيع لثقلها ان تمشي ، فتطوف على بيوت الناس ، فأصبحت تعرف عشرات من الأسر الغنية المبذرة . فلا يمر اسبوع لا تدعى فيه الى عرس او حفلة الا كلفت زوجها كسوة جديدة . لأن من العار عليها ان ترى بثياب قد سبق فرثيت فيها من قبل . فتشتري الازار والرداء (او ما يقابله في الاصطلاح النسائي فما اعرف ماذا أقول ...) والحذاء والجوارب ، ويتراوح ثمن ذلك (كما حدثني المسكين وحلف لي) ما بين ستين وتسعين ليرة سورية فلا يقوم مرتبه كله بكسوتها ، فيستدين ليم لها ما تريد وينفق على نفسه وأولاده حتى هذه الدين واصبح مضطراً الى بيع أملاكه المرهونة ...

ومن النساء من لا تبذل في الاسراف هذا المبلغ ، فتكتفي بنصفه او ثلثه

(١) قلت هذا وأنا شاب عزب وأنا معلم وهانذا بعد عشرين سنة في القضاء وبعد أن مرت زوجاً وأباً وجداً لا أزال أقول به .

(٢) نشرت هذه المقالة من اكثر من عشرين سنة .

ولكن مرتب الموظف المتوسط نصف مرتب صاحبنا او ثلثه ، فتبقى النسبة على حالها ؛ اما الموظفون الصغار كالمدرسين الذين يأخذون خمسين ورقة في الشهر وأربعين وثلاثين والصناع وصغار التجار ، فتصور أنت موقفهم من نساءهم ، فما يبلغ القول تقرير الحقيقة ووصف الواقع .

ولست أزعم ان النساء كلهن عماوات لا يبصرن حالة أزواجهن ، وان قلوبهن قد قدت من حجر فلا تشفق ولا تحزن ، بل إن في النساء عاطفة وحساً ولكنهن يألفن حالة ، فلا يطقن ان يراهن احد على حالة دونها ، ويستحيين من صاحباتهن ورفيقاتهن ... ووراء هذه المشكلة الحزم في الايام الأولى من الزواج (وهو رأس الادوية كلها) وتقليل الاختلاط ، والاقتصاد في زيارة الناس ومصاحبتهم ، وليس من بأس بعد ذلك ان يخصص الزوج لزوجته مبلغاً من المال لكسوتها يدفعها اليها مباشرة ، ويدعها تفعل فيه ما تشاء ، على ان تقنع به ، ولا تسأله من بعده درهماً واحداً لكسوة او ثياب . ولقد جرب هذه الطريقة كثير من الرجال فوجدوها صالحة مؤدية الى الراحة والاطمئنان

مسائل أخرى

إن من طبيعة المرحلة التي نجتازها اليوم أمم هذا الشرق الاسلامي : مرحلة الانتقال ، انه يلتقى فيها عصران ، ولكنها لا يأتلفان فيتحدان ، ولا يختلفان فيتباينان ، فينشأ عن ذلك هذا الازدواج في الحياة ، فيعيش قوم في عصر مضى وقوم في عصر لم يأت ، فكيف يلتقى الزوجان وبينهما عصر مديد ... هو يعيش محافظاً ، وهي تريد التجرد بما يحافظ عليه ، وهو متدين وهي رقيقة الدين ! إن كل شيء يحتمل : ضياع المال والتعب والشقاء ، يجد الانسان عزاءه عنه في انتظار ثواب الله ، في الآخرة ، يجد عزاءه في الدين ، فاداع الدين فأين يجد

العوض منه والعزاء فيه ؟

لذلك كان أول ما يجب على الزوج أن يفكر فيه ، هو أن يختار زوجته من طبقته ورأيه ، محافظة او تجديداً ، والا كان الزواج شراً كله .
هذا اصل يتفرع عنه فروع كثيرة ، أولها : تأدية حق الله في العبادة ، والمحافظة على الصلوات ، والرجوع الى احكام الدين فيما يختلف فيه من أمور الحياة ، الى غير ذلك بما يراه المسلم رأس الأمر وملاكه ويسميه المجردون (المتجردون) رجعية وجوداً .

وثانيها : خروج المرأة من دارها ، وحالها عند الخروج وزيتها وزينتها ، وتبرجها في الاسواق وتيممها السيئات ودور اللهو ، وعرض مفاتها على الرجال وما الى ذلك بما يسميه المسلم وقاحة ورذيلة وقلة حياء ... ويدعوه المتجردون مدنية وتقدماً ...

وثالثها : الاتصال بالناس ، وتخصيص الايام الكثيرة لاستقبالهم ، وإضاعة الاموال في إكرامهم وتعطيل اعمال الدار وتربية الأولاد في سبيلهم وما يجره هذا الاختلاط الشديد الذي ينفر منه العقلاء ، ويرونه فساداً لا خير فيه ، وبابا لا يلج منه الا كل ضرر ، لأن النساء لا يقبسن من النساء الا السوء المكروه ، ويراه اهل التجديد واجباً لا بد منه ، وفرضاً لا تكون المرأة متمدنة محترمة ... الا به !

ورابعها : اتباع (الموضة) والابتنان بها إيماناً لا شك فيه ، والخضوع لها خضوعاً أعمى ، والتعامي عما تجر على الأسرة والامة من ضرر . وهذه ثمرة من ثمرات الاختلاط المرة ، يراها العقلاء سخافة وحماقة ، ويعدها اهل التجرد والتجدد من فروض العين !

* * *

ومن هذه المشاكل الفرعية الخلاف على تربية الأولاد حين تحكم المرأة عاطفتها فتأبى على الأب أن يؤدب ابنه أو يأخذ به بالحزم ، وهذا فضول من المرأة لا معنى له .

على أنها قد نشور الثائرة بين الزوجين لغير ما سبب واضح ، كأن يكون الزوج متأثراً في نهاره أو مصاباً بمصيبة لا يجب أن يسوء بها أهله ، فيدخل مقطباً من حيث لا يشعر فتحسب الزوجة أن ذلك موجه اليها ، فتغضب وتعرض ، فيألم الزوج في نفسه ، ويظن أنها رأت في مصيبة فأعرضت عنه بدلاً من أن تعطف عليه ونواسيه ، وينأى كل واحد منهما عن الآخر ، ويوسوس له الشيطان حتى يصبحا متنافرين حقاً ، وهذا مشهور يتكرر تمثله دائماً ، وداء يعتاد الأزواج في كل حين ودواؤه الناجع كلمة يقولها أحدهما يشرح بها حاله ، وقهر لهذه الكبرياء الخبيثة التي تمنعه من هذه الكلمة .

كلمة الختام

وبعد فهذا كله سهل يتداوى منه بشيء من الحكمة والحزم فما دواء حماقة الآباء في إغلاطهم المهور ، وتمسكهم بهذه العادات الباطلة ، حتى أدى ذلك الى « أزمة الزواج » التي اشتدت وعمت ؟

ومتى نجد الأب الذي يملك في نفسه من الجرأة ، وفي رأسه من العقل ، وفي صدره من الدين ، ما يكسر به هذا السد الذي يمنع عن الأمة كل خير وسعادة ؟

الى علم مصر

نشرت سنة ١٩٤٤

كنت أصفح الرسالة فوقع بصري على المقالة البارة التي كتبها الاستاذ الزيات عن شواطئ مصر وما فيها ، فقرأتها حتى بلغت قوله فيها (... جرجر البحر إحدى موجاته الضخام إلى أعلى الساحل ، فجريت الى فوق ، أتقي هذا المد المفاجيء ، فإذا بي واقف إزاء مظلة جميلة منعزلة ، قد انبطحت تحتها فتاة ناهد ، لم تقع العين منذ الصباح على أكمل منها صورة ، وكان دعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر ، فلما وقع بصرها عليّ ، تهضت نهضة الظبي الفزع تحيي بالعربية أستاذها القديم .

— أوه ... فلانة ؟!

نعم ، وبسرتني أن أراك بعد خمس سنين .

— هل أنت وحدك هنا ؟

— كلا ، بل معي أخي ... وقد أتعبه صراع الامواج الثائرة ، فذهب

إلى « الكابين » .

— وكيف حال البك ؟

— الحمد لله خير حال ، وما أكثر سؤاله عنك ، وأشد شوقه إليك ، لقد

(١) أصفح : اتصفح

كان جالسا في الكازينو ، ثم انصرف إلى البيت منذ قليل .
 قالت ذلك تلميذتي الأرستوقراطية المسامة ، وهي تنصب كرسيها طويلاً
 من القماش دعتني إلى الجلوس عليه ، ثم جلست هي على كرسي آخر ، وكانت
 كأما حواء لا يستر جسمها العاري إلا « ورقتان » خصفتها عليه من أمام ومن
 خلف ، فسرعان ما ذكرت ذلك المكتب الفخم الذي كانت تجلس قبالي عليه
 لتستعد لامتحان البكالوريا ، وهي ملففة بثوبها الأزرق الأنيق المسبل ،
 وعيناها الساجيتان لا تفارقان الصحيفة حياء وخفراً ، وثغرها الحيي الدقيق ،
 لا يرسل سهل الكلام إلا في تلثم وبطء ...)

* * *

لما بلغت في المقالة هذه الصورة ، كنت متمدداً في فراشي أهم بإدارة مفتاح
 النور والاستسلام للنوم ، فطار النوم من قلتي ، وتوقدت في أعصابي نيران
 الغضب للفضيلة المجني عليها والعرض المزدري ، ودار في نفسي كلام ، لو أنا
 أطعت النفس وبعثت به للنشر لبعثت عاصفاً يعصف بهذا البك الذي ارتضى
 لفتاته ما لا ترضيه البهائم لإنائها من غيرتها عليها ، وهذا الشاب الذي صارع
 الأمواج ليثبت رجولته المزورة ، ثم انصرف إلى هذا « الكابين » الذي
 لا أعرف أي شيء هو ، وقد صُرع شرفه وثلم عرضه ، ولأرسلت شواظاً من
 نار على هذه (المجلات) المستهترة التي سخرها إبليس لهدم الأخلاق ونسف
 الفضائل والدعوة إلى شرع الشهوات بما تنشر من الصور العارية ، وما تحبذ
 من السفور والحسور والاختلاط ، وما تنال من أصحاب الشرف والفضيلة
 كالشيخ الجليل أبي العيون ...

... ثم رددت القلم إلى قرابه ، وأطفأت بكأس اليأس وقدة الغضب ،
 ورجعت على نفسي باللوم فقلت : يا نفس ويحك ! هل تظنين أنك وحدك

الحققة ، وهؤلاء الناس كلهم من المبطلين ، وكلهم يخطيء وأنت تصيبين ؟ أو لا ترين .
للناس عيوناً يبصرون بها هذا كله كما يبصره (أبو العيون) ثم يسكتون ؟ فلو
كان محرماً أو ممنوعاً أكانت مصر تقرأه ؟ أو كان علماءؤها يكفون عن
إنكاره ؟ أو كانت كبارؤها وعظماؤها يرضونه لبناتهم وأخواتهم ؟ كقضي .
يا نفس فقد مضى زمنك وغبرت أيامك ، وصرت في آرائك وأفكارك من
آثار الأولين . وهل تريد أن يعود الناس إلى عصر الجهالة والظلام يوم كان
الأب رب بيته ، والزوج قواماً على امرأته ، والمرأة لا تعرف الفسيولوجيا
والجيولوجيا ، وإنما تعرف الطبخة... لوجيا والكنيسة... لوجيا ، وكان
جمال المرأة لزوجها وحده قد حُرمت من عرضه على الناس ، ومثلها البيت
وحده لا الشارع ولا الساحل . هل تريد أن يعود الناس إلى تلك العهود
حيث القيود أنواع : فمن قيد الدين ، إلى قيد الخلق ، إلى قيد الآداب ...

لا ، إن العصر عصر الحرية ، حرية المجنون الذي يفعل كل ما يشاء ، فيخلع
اليوم ثوبه ، وغداً دينه وعقله ، ولا يستطيع أحد أن يقول له : دَعْ ! حرية
راكب السفينة الذي يخرق مكانه ليدخل عليه الماء فيستنقع فيه ، يقول : هو
مكاني أفعل به ما أشاء ، فما لكم ولمكاني ، يقول : هي امرأتي ألبسها ما أشاء
فما لكم ولا مرأتي ، هي ابنتي أجردها كما أشاء فما لكم ولا بنتي ، « فإن أخذوا على
يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » ؛ لأن السفينة إن ملأها الماء
لا يغرق من خرقها وحده وإنما يغرق الجميع ، والنار إن شئت في البيت لا تحرق
من أضرها وحده وإنما تحرق الجميع ، والفجور إن انتشر لا يهلك الفاجر
وحده وإنما يهلك الجميع .

فيأثمها المصريون ، بل أيها المسلمون انتهبوا ، إنها النار شئت في ستانلي .
باي ، وأقبلت تضر بها الرياح الأربع وتهيجها تحرق كل ما تمسه ، واندفعت
مندلعاً لسانها تمتد شرقاً وغرباً وإلى الجنوب ، إنها النار ... النار وهاتيكم .

المجلات تنفخ فيها وتضررها ، وتحمل إليها الوقود لحوماً بشرية
وأعراضاً وأنجاداً ؟

* * *

يا قوم إن الله خلق الشهوة وأمر بكف شررتها وكسر حديدتها . وشرع
لها طريقاً مرسومًا كيلا تطغى كما يطغى النهر إذا خرج عن سبيله ، وجاوز
مجرهه ، وهذا الطريق هو الزواج . وأقام لها الحواجز والسدود ، فخوف
المرض سداً ، وخشية الله سداً ، وتجنب الفضيحة سداً ، والهرب من الحد
سداً ، فغلظتم حدود الله فلا تقام على زانٍ ، ووضعتم قوانين تكاد تبيح ثلاثة
أرباع الزنا ، ولا تعاقب إلا على الربع الباقي ، ومنعتم الفضيحة حين جعلتم
هذا المنكر معروفاً ، وأعلنتموه وقد كان شراً مستتراً ، وجعلتموه قذراً وقد
كان وحشياً وخزياً وعاراً ، وأنسيتم أولادكم خوف الله حين أقلتم من دروس
الدين في المدارس ، ولم تدخلوها في الامتحانات العامة ، واستعنتم بالطب على
تجنب المرض ، فأدخلتم الذنب على غنمكم ...

إن الشهوة ذنب كاسر فلا تطلقوه عليكم ، فلا تدرون ماذا يفعل ببناتكم
وأولادكم . إنه يفسدهم ويفسدهن ، وما للعرض الذهاب من رجعة ، إن
الشهوة إن أطيعت في الحرام بطل الزواج ، وهذا ما حلّ بنا أوكاد ، وإن
بطل النكاح حق السفاح ، وإن حق السفاح صار البشر كالحنازير والعياذ بالله !
فالمكم كيف تحكمون ؟

* * *

إنكم تشكون تقصير الطلاب ، وخَوَر العزائم ، وضياع الأمانة ، وسبب
ذلك كاه السفور^(١) والاختلاط والحسور والتكشف ، وكيف ينصرف تلميذ إلى
درس ، ويقبل معلم على علم ، وتاجر على تجارة ، وموظف على عمل إن شغلته

(١) اعني غير الشرعي منه

شهوته ، وسيرته أعصابه ، وركبه إبليس وألجمه بلجام ؟

خبروني هل في الدنيا دين من الأديان أو خلق من الأخلاق يبيح هذا الذي في ستانلي باي وسيدي بشر ؟ فلماذا لا يُحارب المنكر ؟ لماذا لا يقوم عليه القائمون على الأخلاق ؟ لماذا لا ينفر منه الأدياء ؟ لماذا لا تحمل عليه جمعيات الهداية والشبان والإخوان والأنصار ، وخطباء الجمعة ؟ هل تريدون كلمة الحق : (وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ مِنْهُ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) ؟ إنكم منذ خالفتم فطرة الله فقلتم المرأة مثل الرجل سواء بسواء ، ونسيتم أنها لاتم المساواة حتى نسنوا قانوناً يجبر الزوج ان يجبل سنة والمرأة سنة ، ويرضع شهراً وترضع شهراً ، ويخلق لحية مرة وتركب لها لحية مرة أخرى ... ومنذ عكستم حكمة الخالق فجعلتم المرأة قوامة على الرجل وجعلتم طاعتها تمداً ورقياً وهي منذ خلقت تطيع الشيطان ، ومنذ علمتموها ما لا ينفعها من العلوم وما لم تخلق له ... فتجتم الطريق التي تذهب إلى جهنم مارة بستانلي باي ! وطارت شرارة منها فاضرمت هذه النار ...

إنها النار ... وإني نذير لكم ! فهل تطفئونها قبل أن تستفحل ؟

يا كتاب مصر ! يا علماء مصر ! يا رجال مصر ! إنها النار ... وإنها لن تحرقكم وحدكم ، ولكن تحرقنا معكم لأننا اتخذنا مصر إماماً وأئمةً مممناً بها . إنا جعلناكم قادتنا وتبعناكم ، فالله الله أن تقودونا إلى الدمار والعار وإضاعه الذمار ... وأن نصلي في الدنيا ناراً وفي الآخرة (النار) ! ...

الأدباء الرسيون

نشرت سنة ١٩٣٩

ما كان لي أن أعرض الى هذا الموضوع بعد ما تكلم فيه الاستاذان العقاد والزيات ، لولا أن في النفس منه اشياء ، وأن آراء العامة فيه يعيها الضلال البين ، ويعوزها التقويم ، وأن من الناس من يدعى الأدب ثم يزن أهله بميزان الحكومة ، فيضع قيمتهم الادبية في كفة ، ويضع في الكفة الاخرى درجتهم في (الوظيفة) ومبلغ ما يقبضون من مرتب . فالشاعر الذي يعلم في مدرسة ابتدائية ، لا يساوى بالشاعر المدرس في الثانوية ؛ والاديب الذي يعمل في تفتيش اللغة العربية اكبر من الاديب الذي يشتغل بالتدريس . أما الشاعر الذي جعلته الوزارة أو أصارته الايام أول المفقشين ، فواجب وجوباً أن يكون شاعر الشرق كله ، أو شاعر العرب على الاقل الادنى .. ويدللون على هذا المنطق السقيم بأن الحكومة لو لم تجده أعلم العلماء وأبرع الادباء ما أحلته هذه المنزلة ؛ فالطعن في تقدمه طعن في الحكومة ونفى لحسن التقدير عنها ... وامتد هذا الجهل الى الصحف ، فصارت تقدم من الادباء من قدمته الحكومة وتكتب في رأس المقالة كما يكتب صاحبها في ذنبها ، مرتبته ودرجة الوظيفة الحكومية التي يقوم بها ، كأنها هي الشهادة له بتمكنه في الادب وعلو كعبه فيه ، وغدا

من المستحيل أن يقدم شاعر بجود محسن ولكنه مدرس عادي ، على شاعر مفتش أو رئيس ديوان ولو كان دونه إحساناً ونجوداً ، كأن شعر الوزير في الشعر كشخص الوزير في الناس ، يتقدمهم ويعلوهم ولا يوزنون به ولا يتقدمون عليه . ومشى هذا المنطق السقيم وهذا الجهل البين في الناس ، حتى صار هو القاعدة المقررة والاصل الثابت ، وصار غيره هو الفرع الذي يحتاج الى دليل ...

وما من أحد يدرك هذه العلة إدراك الاديب الموهوب الذي اضطرت له الحاجة الى (الوظيفة) وأجبره الكدح للعيش على أن يفكر برؤوس رؤسائه الفارغة لا برأسه هو ، فلا يكتب الا ما يشتهون ، ولا يقول الا ما يريدون وعلى أن يضع أدبه وذكاه ومواهبه بين يدي مفتش قد يكون جاهلاً أو يكون مخطئاً أو يكون لئيماً ينتقم لغباوته وجهله من الاذكياء العلماء . والمدرس على ذلك كله ملزم باتباع رأيه والصدور عن مشورته .. واذا كتب ينقده في صحيفة أو يسمع به في مجلس ، قامت عليه القيامة ونفى الى أقصى الارض ، أو اخرج من الوظيفة اخراجاً ، ثم لا ينصره عليه أحد لان الناس قد استقر في افهامهم أن المفتش أعلم وأبرع من المدرس ، ولا سيما إن كان دكتوراً أو كان استاذاً في جامعة ، فإن مثله لا يأتية الخطأ من بين يديه ولا من خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن شماله ، ولا من فوقه ولا من تحته ... والمدرس يركبه الخطأ من جهاته الست لا شيء الا لان مرتبه أقل ، ووظيفته اصغر ... ثم إن عندك الموظفين الجاهلين المتزلفين الذين يتقربون الى المفتش الشاعر أو الرئيس الاديب بإذاعة فضله ، والثناء عليه ، ومنحه الاقاب جزافاً ، ويستمررون على ذلك ما استمر قاعداً على كرسيه لانهم عباده صاحب الكرسي ... فتؤثر هذه (الدعاية) - على بطلانها - في نفوس الاخلياء ، وينال هذا المفتش الشاعر شهرة ومنزلة لم تقم على أدبه وإنتاجه ، وإنما قامت على أرجل كرسيه الاربع

والسنة اتباعه التي تشبه أرجل الكرسي ... وربما خدع التاريخ بهذه الشهرة
- والتاريخ يخدع أحياناً - فانطمس الحق وعمت البلية ...

فما هو سبيل الخلاص من هؤلاء (الادباء الرسميين) الذين يستغلّون هذه
الشهرة الزائفة وهذه المنزلة السكاذبة فيقيمون انفسهم أو تقيمهم الحكومة مقام
الأئمة من اهل الادب ، فيرسمون للناس خططه ويضعون مناهجه ويملكون
تحويله من وجهة الى وجهة ، ويستطيعون ان يؤثروا في مستقبل الادب بما
أوتوا من السلطان ، وان المدارس في أيديهم ، وأموال الدولة تحت إمرتهم ،
تأثيراً لا يقدر على بعضه الادباء غير الرسميين الذين لا يملكون إلا أقدامهم
وعقولهم بل إن الادباء الرسميين قد يستطيعون والحكومة من ورائهم ان
يسخروا بعض الصحف لغاياتهم ومقاصدهم . ولو كان هؤلاء (الادباء الرسميون)
الذين تعتمدهم الحكومة وتثق بهم يُختارون دائماً من ذوي المنزلة الرفيعة في
الادب ومن لهم فيه تمكن ورسوخ لكان الخطب ؛ ولكنهم قد يكونون عـلى
الضدّ كما قلت ؛ بل قد يسيّر الادب في وزارات المعارف من ليس بينه وبين
الادب رحم ولا قرابة ... فإلى أين يسير الادب في حالة مثل هذه الحال؟ وكيف
ندفع عن الادب ذلك المصير المحزن ؟

* * *

لقد اشار الاستاذ الزيات الى هذه المشكلة والى دوائها ؛ فرأى ان دواءها
العدول عن (السياسة التقليدية التي اتخذتها الوزارة الى اليوم في نظام التأليف
وطريقة التفتيش واختيار المدرس) وتطهير التعليم (من المفتش الذي يعاقب
على نسيان الهنزة وذكر الغزل ، والمؤلف الذي يؤلف بسر الجاه ونباهة
الاسم) . وأنا ازيد أنه لا بد بعد ذلك من تصحيح مقاييس الناس وإفهامهم ان

قيمة الاديب بإنتاجه ومواهبه ، لا بوظيفته ومرتبته ، وان الادب لا يقاس بهذه المقاييس الجامدة ، ولا بد من التفريق بين شخصية المفتش والوزير الرسمية وبين شخصيته الادبية ؛ فأننا أرعى للوزير حق مكانته ، وأعطيته كل ما ينص القانون على أنه حق له من الطاعة والاحترام . اما الوزير الاديب ، والمفتش الشاعر ، فإنها عاطلان من هذه الحصانة ، معرضان للنقد ، يستطيع ان ادرس أدبهما وشعرهما كما ادرس أدب أي أديب وشعر أي شاعر ، واستطيع ان احكم لهما أو عليهما ، ولا يدخل في حساب النقد وظيفة عالية ولا مرتب ضخم . واذا اقترح الوزير اقتراحاً في تعديل خطط التعليم ، أو رأى رأياً يتبعه أذى للأدب أو خوف على مستقبله ، فإنني استطيع ان أناقشه وأرد عليه . وبغير ذلك لا تنمو المواهب ولا تثمر ثمرها ، ولا يزدهر الادب ولا يعطي أكله . بقي أمر واحد وهو حماية هذا الموظف الاديب الذي ينقد ويبحث ، ويقوم بحق الادب من غير أن يقعد عن حق الوظيفة ، حمايته من انتقام الرئيس وتشفي المفتش ، ولا يكون ذلك إلا بقانون ينظم علاقة الرئيس بالمرؤوس وبوضح لكل منهما ماله (بالضبط) وما عليه ، أما اذا بقي أمر المدرس بيد المفتش والرئيس ، وترفعه وتنزله تابع لرأيهما و (تقريرهما) ، فلا حرية في البحث ، ولا ازدهار في الادب ، ولا استثمار للمواهب ، لان المدرس لا يستطيع ان يضحى بوظيفة وهي سبيل حياته ومورد رزقه من أجل بحث أو فصل أدبي فيسكت على مضض ، ويتم الى سكوته ، فتموت قريحته ، وتذهب ملكته ، ولا يبقى فيه بقية لإنتاج . وإذا ذكرنا ان وضعنا الاجتماعي الشاذ ساق اكثر الشباب طوعاً أو كرهاً الى وظائف الحكومة قدرنا مبلغ الحسارة الادبية التي يُمنى بها الادب ، ومبلغ الاذى الذي يصيبه به (الادباء الرسمىون) الذين يعملون عمداً وبغير قصد على تقييد حرية الادباء ، وقتل المواهب ، وسد الطريق على

الناشئين المتأدين ...

هذا وإن الأديب لا ينتج ولا يعمل الا معتداً بنفسه واثقاً بها ، وهذه العزة وهذه الكبرياء الادبية هما عدة الأديب ، فإذا خسرهما لم يصلح بعدهما شيء . ومن نظر في حياة الموظف الصغير نظر مدقق ناقد ، رأى أنه لا يستطيع أن يجمع بين إرضاء رؤسائه وبين الشعور بهذه العزة الادبية ، وماله من فقد إحداهما بدت ، وهو يؤثر (على الغالب) أن يفقد عزته الادبية على ان يحضر وظيفته . وكـ من موظف أديب نابغ معتد بنفسه ، رأى ألوان الإيذاء ، واتهم بالشذوذ والعناد ، وعاداه صحبه ورؤساؤه ، لأنه لم يبيع كرامة نفسه وعزتها بهذا المرتب القليل ؛ وربما كان هذا الموظف المغضوب عليه ، المنسى المهمـل ، من خير الموظفين علماً وكفاية وقياماً بعمله ، وحرصاً على الواجب عليه ... ولكنهم الرؤساء ، أولئك (الأدباء الرسميون) ...

* * *

بين الزوجين

أذيعت سنة ١٩٤٨

يا سادتي ويا سيداتي . قعدت لأكتب هذا الحديث ، فما بدأت به حتى هبت العاصفة في بيت الجيران ، وعلت الاصوات ، وزجر الرجل وصخب ، وولولت المرأة وعيطت ^(١) ، وقام الشيطان يهيج للشر ويضحك ، ثم هدأت العاصفة فجأة كما هبت فجأة ، وأعقبها سكون ثقيل ، سمعت له دويّاً في أذنيّ شغلني عن الكتابة ، فقامت انظر من شباكّي الذي يكشف مكانهم ويبدّي كلّ ما فيه ^(٢) انظر ماذا جرى . فإذا الزوج قاعد في ركن المنزل ينظر في جريدته عابساً ، ولا أظنه يفقه منها حرفاً ، والمرأة في الركن الآخر تطرز ولا أحسبها تلقي لتطريزها بالاً ، وهو يندب حظه بحسب أنه وحده الخائب في زواجه ، وهي تبكي جدّاً تحسب أنها وحدها التي فقدت سعادتها ، ورأيت الولد قد ملّ هذا السكون ... فمشى الى أبيه خائفاً يترقب ، فقال له :

- بابا . اعطني شكولاتة

فصرخ به زاجراً : قل لأهلك . أتريد أن أخدمكم في السوق وفي البيت ، وأن أعمل عمل الرجل والمرأة !؟

» (١) « عيط » في الشام صاح وفي العربية كذلك « تقريباً » وفي مصر بكى .

(٢) وهذه بلية من بلايا هذه المساكن الجديدة ...

فابتعد عنه الولد ، ونظر الى أمه ، فصاحت به من غير أن ترفع رأسها
عن شغلها :

- ابتعد عني والا كسرت رأسك ، أنت اصل السبب ، يا ضيعة تعبي ،
اشقى من الصباح الى المساء فلا أجد من يقول لي : الله يعطيك العافية !

فهم الرجل بالانفجار ، ثم تماسك ونجّده ، وسكت على غيظ ومضض ،
ومشى الولد الى الأريكة فتكوى عليها ، ودس وجهه في وسادتها ، وراح
يبكي بكاء خافتاً متصلاً موجعاً !

وعاد البيت ساكناً كما كان ، ومرت دقائق ، لمحت فيها على وجه المرأة
ظلال نزاع عنيف في نفسها ، بين شفقتها على ولدها ، وغيظها من زوجها ، ثم
رأيتها تثب فجأة ؟ فتمضي الى غرفتها فتنبطح على سريرها وتشتج ... ويرفع
الرجل رأسه ، متعجباً منها ، ويضيق صبره على هذه المسرحيات (تمثّل) في بيته
وهو يريد به بيتاً فيه الهدوء والمحبة ولا يفهم سر بكائها وهي - عنده - الظالمة ،
فيمضي اليها بعد تردد ، حتى يقوم امام السرير منتصباً مبرد الوجه ، كأنه
القائد العسكري في جنده ، أو النائب العام في مقعده ، ويقول لها بصوت بارد
كالثلج متماسك كالجلد :

- وما آخرة هذه المساخر ؟

وكانت تظنه قد جاء يواسيها في كربتها ، ويعطف عليها ، ويحاول أن
يفهم ألمها ، ويزيح همها ، فلما سمعت ذلك منه ، فقدت عقلها ، فصاحت :

- مساخر ؟ أنتم الرجال ليس عندكم وفاء ، ليس لكم قلوب ، إنكم ...

فنسى أنه امام امرأة ، وأنه امام زوجة ، وحسب أن الذي يقول له هذا
الكلام قرن له أو خصم ، فأجابها جواب الأقران ، وكلّمها كلام الخصوم ،

ولم يبق بينهما وبين الطلاق إلا شعرة واحدة .

فذهبت اليها فصحت بها : بس ، انتظروا ، قولوا ما هي الحكاية ؟
فنظرا الى ، وحسباني (وأنا قريبها) غفريتا قد نبسح من الأرض ففرعا
منه ، ثم اطمأنا الى وعرفاني ، وانطلقا يتكلمان بصوت واحد كلاماً متواصلاً
متداخلاً ، تتلاحق كلماته ، كأنه السيل انهدم سدّه فاندفع ، أو لسان النار
غفلت عنه فاندلع ، وما فهمت الحكاية حتى كادت نفسي تزهق ...

و (الحكاية) التي سببت هذه النكبة ، وكادت تهدّ بيت الزوجية ،
وتطلق الزوجة وتشرد الولد ، أنه جاء من عمله فوجد الصبي على الباب ، والباب
مفتوحاً ، وليس عنده أحد يمنع أن يمشي فيضل في الحارة ، أو تدعسه ^(١) سيارة
أو تلفحه الشمس ، أو يصيبه المرض ، ونخيل الف مصيبة قد حاقت بالصبي
ونزلت به فاستحال حبه له حنقاً على أمه التي أهملته ، وتركته على شفا الهلاك
ودخل مغضباً حنقاً ، وبدأها باللوم قبل السلام ، وكانت قد نظفت الدار
وأعدت الطعام ، و (لبست ...) تنتظر وصوله ، لتسعد بقربه ، وتجسد
مكافئتها في شكره إياها ومسرته منها ، فلما رآته مخاصماً تبدد أملها ، وخاب
ظنها ، وسيطر عليها الغضب ، حتى اعماها عن حادثة (الباب المفتوح) والخطر
المرتقب ، فلم ترفها الا حادثة تافهة ، لم ينشأ عنها شيء ولم يأت منها ضرر .
وبدأ من هذا الخلاف ، وتطايير الشرر .

ياسادتي ويا سيداتي : هذه صورة ترون كل يوم أمثالها ، فاسمحوا لي أن
اجعل حديثي هذه العشية تعليقاً عليها ، وبياناً لها ، وليست صورة غريبة عنكم
ولا نادرة ، بل الغريب النادر ان تخلو دار منها ؛ وأنا قاض شرعي عملي ان

(١) دعسته السيارة : وطئته ، أما قولهم دهسته فهو من الغلط .

أرى دائما دخائل البيوت ، وان اطلع على أسرار الاسر ، فصدقوني إذا قلت لكم ، إني لا أعرف زوجين لا يختلفان ، ولكن خلاف الأزواج كحريق في كومة من القش ملقاة في رحبة الدار ، إذا أطفأته او تركته ينطفئ همد بعد لحظة ، وحمل الريح رماده ، فلم يرزأك رزءاً ، ولم يعقبك أذى ، وإن هجته او أدنيت منه ثوبك ، او قربته من بيتك ، احرق الثوب وخرب البيت ، ولقد كان بيني وبين زوجتي اليوم خلاف كهذا ، فقلت لها :

- تعالى أعينيني على كتابة مقالة ؟

وكانت هذه المقالات ضرئها ، فحسبتني اسخر منها ، واندفعت تريد أن (تقول) ... فما زلت بها أكلمها بجحد ، حتى بدا عليها الاهتمام وقالت :

- وكيف أعينك ؟

قلت : تقولين لي كيف يختلف الأزواج ؟

ومضينا نستعرض حوادث الاختلاف بيننا ونحلل اسبابها فانتهينا الى الضحك منها .

ياسادة وياسيدات : إنه قد يكون بين الزوجين اختلاف مفهوم على مال أو عقار ، ولكنه نادر واكثر الخلاف تافه مضحك ، ليس له الا عندهما قية او خطر ، وأنا افهم ان تهتم المرأة بهذا ، وما دامت تريد ان تشغل عقلها كما تشغل يدها ، وما دامت لا تجد مشكلة علمية او أدبية تبحث فيها وليس لها الامشا كل البيت - ولكن ما بال الرجل يهتم بها ويبالغ في تقديرها ؟

تقولون : كيف نضنع ليسود البيت السلام ويشمله الهدوء ؟

أنا اقول لكم ؛ مقالة مجرب حكيم ، فاستفيدوا إن شئتم من حكمتي وتجربتي . هذه (اقراص) سهلة البلع ، عظيمة النفع ، فيها شفاؤكم من هذا الداء : أولها : ان الزواج يبدأ بالحب والعاطفة ، والحب اوله حلاوة وآخره مرارة

فهو يعمي البصر ، ويصمّ الأذن ، ويغطي العيوب ، فإذا زال الغطاء ، ولا بد يوماً أن يزول الغطاء ، وبدا المحجوب من العيوب ، وظهر المستور من الأمور واقتقد الزوجان لذة الحب فلم يجداهما ، انتهى شهر العسل ، وبدأت سنوات العلقم ، فتجرعا العمر كله مرّتها ، وقاسيا خمرتها . والدواء ألا يرقب الزوجان المحبة والعشق ، فالحب عمره كعمر الورد ، لا يعيش الا أمداً قصيراً ، ومن طلبه بعد عشر سنين من الزواج كان كمن يطلب من وسط القبر من العظام والرمم الغادة الحسنة والغائنة الهيفاء . لا ، ولكن مودة وإخلاص وحب كحب الاصدقاء والاخوان .

وثانيها : ان الرجل يغتفر لصديقه ما لا يغتفر لزوجته ، ويحمل منه ما لا يحمل منها ، ويتسامح معه فيما لا يتسامح فيه معها ، وما ذلك الا لأنه يصدق هذه الخرافة التي تقول إن الرجل والمرأة كليهما مخلوق واحد ، فهو يريد منها أن تفكر برأسه ، وهي تريد منه ان يحس بقلبيها ، مع ان الناس كخطوط مستطيلة وفيها اعوجاج يسير ، فإذا كانت متباعدة بدت للعين متوازية متوافقة تضع من البعد هذه الفوارق الصغيرة بينها ، فإذا تسدانت وتقاربت ، بانت الفجوات ، فأنت تصحب الصديق عشرين سنة ، فلا ترى بينك وبينه اختلافاً ثم ترافقه اسبوعاً في سفر ، تنام معه وتأكل وتشرب فتري في هذا الاسبوع ما لم تره في السنين العشرين ، فتشنؤه وتبغضه وقد كنت تحبه وتؤثره

والله لم يخلق اثنين بطباع واحدة ، لا الصديقين ولا الزوجين ، فليكن الزوجان متباعدين قليلا ، حتى لا يظهر الاختلاف بينهما وليكن بينهما شيء من الكلفة والرسميات ... كما يكون في عهد الخطبة وأوائل الزواج ، ولتكن عنه بعض ما في نفسها ، فإنه ما تكسف اثنان الا اختلافاً . وما زالت الكلفة الا زالت معها الألفة ، لأن المرء يتظرف ليظرف ، ويتلطف ليلطف ، ويساير الناس

ليحبه الناس ، فإن لم يفعل ثقل عليهم ، وأنا اعرف رجالا من اهل النكتة والظرف ، يحرص الناس عليهم في مجالسهم خفة أرواحهم ، وحلاوة أحاديثهم إذا دخلوا بيوتهم كانوا أجهم الناس وجهاً ، وأبيسهم لساناً ، وأثقلهم نفساً وما ذاك الا لإسقاط الكلفة ، وإذهاب المجاملة .

وثالثها : ان الرجل يمشي في الطريق فلا يرى الا نساء في أحسن حالاتهن قد طلين وجوههن ، وجملن ثيابهن ، ثم يدخل داره ، فيرى زوجه على شرّ هيئة ، وأقبح صورة : مصفرة الوجه ، قدرة الثوب ، منغمسة في اوضار المطبخ أو غارقة في غبار الكنس ، فيظن أن نساء الطريق من طينة غير طينتها ، وان عندهن ما ليس عندها ، فيميل اليهن وينصرف عنها ، والدواء أن تكون المرأة عاقلة ، فلا تجعله يراها الا في الهيئة التي تخرج فيها من بيتها ، وتستقبل عليها خيفها ، ولا تدعه يبصرها نائمة ولا يراها بغير زينة ، ولا يطلع عليها في مباحثها وأعمالها .

ورابعها : أنه لا بد لكل شركة أو جماعة من رئيس ، فإن كان في المركب رئيسان غرق المركب ولو كان في السماء والارض إلهان فسدت السماء والارض فلا بد من رئيس أحد الزوجين والرجوع عند الاختلاف الى رأيه ، واعتراف الثاني برأيه وعلى الرئيس بعد أن يكون حاكماً بعدل ورفق ، وعلى المرؤوس أن يكون طيعاً بفهم واحترام .

وخامسها : أنه لا بد لدوام المودة من اغتنام الفرصة لإظهار العاطفة المكنونة بحديث حلو ، أو مفاجأة منه : هدية ولو صغرت ، وطرفة ولو قلّت ، واهتمام منها بصحته وراحة نفسه ومطعمه وملبسه وكتبه ، وان يصبر كل منها على غضب الآخر ونعته .

يا سادة : إن مشاكل البيت هيئة سخيقة ، ولكنها إن استفحلت نعست

العيش وسودت وجه الدنيا ، ولم ينفع معها ملك ولا مال ، فلقد كان
 الامبراطور نابليون الثالث يجد من مكارها ما لم ينجح منه ملكه ، وكان الرئيس
 لنكولن يلقى من متاعبها ما لم يخلصه منه سلطانه ، وإني لأستأذن السيدات
 المستمعات بأن اختم هذا الحديث بكلمة لامرأة مثلهن هي (آن شرر) . قالت :
 « إن بين كل عشر نساء تسعاً يحرصن على مضايقة الرجل ، وتنكيد عيشه
 ولهن الى ذلك وسائل لا تحصى ، وهن يعتقدن أنه لا عمل للرجل الا الثناء على
 جمالهن يومه كله ، وامثال أوامرهن ، وإجابة رغباتهن ، وإذا رأيته مقبلاً على
 قراءة او كتابة او عمل له ، اقتحمن عليه مكتبته ، ونفضن في وجهه من المنغصات
 ما يحيل عزلته سجنًا ، وحياته جحيمًا » .

فيا سيداتي المستمعات : أرجو أن لا تكون فيكم واحدة من هؤلاء !



صديقي رمضان

نشرت سنة ١٩٣٩

صديق عزيز ، لقيته وأنا طفل في دمشق ، ثم افتقدته وأنا شاب أذرع الأرض وأضرب في بلاد الله ، ففرحت بلقائه وأحبيته ، وأملت لفقده وازداد حنيني إليه ، فأين أنت يا صديقي رمضان ؟

كنت أرقب قدومه ، وأحسب له الأيام والليالي على مقدار ما يحسن طفل من الحساب ، فإذا جاء فرحت به وضحكت له روحي لأني كنت أرى الدنيا تضحك له وتفرح بقدومه .

كنت أبصره في المدرسة ، فالمدرسة في رمضان مسجد ، ودرسها تلاوة وذكر ، وأهلوها أحبة ، ما فيهم مدرّس يقسو على طلاب ، وطلاب يكرهون المدرس ، لأن رمضان وصل النفوس بالله فأشرق عليها من لدنه النور فذاقت حلاوة الإيمان ، ومن ذاق حلاوة الإيمان ، لم يعرف البغض ولا الشر ولا العداوات .

كنت أراه في الأسواق ، فالأسواق تعرض بضاعة رمضان وتفيض عليها روح رمضان فتمحو الغش من نفوس أهلها محواً ويلوؤها خوف الله ورجاؤه ، وتقف ألسنتهم عن الكذب لأنها جرت بذكر الله واستغفاره ، وهانت عليهم

الدنيا حين أرادوا الله والدار الآخرة ، فغدا الناس آمنين أن يغشهم تلجر ، أو يخذعهم في مال أو متاع ، ويمضي النهار كله على ذلك ، فإذا كان الأصيل ودنا الغروب نجلى رمضان على الاسواق بوجهه فهشت له وجوه الناس ، وهتف باسمه السنه الباعة ، فلا تسمع إلا أمثال قولهم : « الصائم في البيت بركة » - « الله وليك يا صائم » - « الله وليك ومحمد نبيك » ثم لا ترى إلا مسرعاً إلى داره حاملاً طبق « الفول المدمس^(١) » أو « المسبحة » أو سلال الفاكهة أو قطع « الجرادق^(٢) » ، ثم لا تبصر إلا مراقباً المنارة في دمشق ذات الثمانين منارة ، أو منتظراً المدفع ، فإذا سمع صيحة المؤذن أو طلقة المدفع دخل داره ، والأطفال يجتمعون في كل رجة في دمشق ليسمعوها فيصيحوا : أذن ... أذن ... أذن ... ثم يطيروا إلى منازلهم كالظباء النافرة .

و كنت أبصر رمضان يؤلف بين القلوب المتباينة ، ويجلو الأخوة الإسلامية رابطة (المسلم أخو المسلم) فتبدو في أكمل صورها فيقابل الناس عند الغروب تقابل الأصدقاء على غير معرفة متقدمة فيتسألون ويتحدثون ثم يتبادلون التمر والزبيب ويقدمون الفطور لمن أدركه المغرب على الطريق فلم يجد ما يفطر عليه ، ثمرة أو حبة من زبيب ، هينة في ذاتها ، نافذة في ثمنها ، ولكنها تنشيء صداقة وتدل على عاطفة ، وتشير إلى معنى كبير .

و كنت أنظر إلى رمضان وقد سكّن الدنيا ساعة الإفطار وأراح أهلها من التكالب على الدنيا والازدحام على الشهوات ، وضم الرجل إلى أهله ، وجمع الأسرة على أحلى مائدة وأجمل مجلس وأنفع مدرسة . فواشوقاه إلى موائد

(١) الدياس في اللغة الحمام .

(٢) أطباق جافة رقيقة وكبيرة تصنع من مواد خاصة يرش عليها الدبس ، ولا تصنع إلا في رمضان الواحدة جردقة وهي كلمة فصيحة .

رمضان وأنا الغريب المنفرد^(١) في مطعم لا أجد فيه صائماً ولا أسمع فيه أذاناً ولا أرى فيه ظلاً لرمضان .

فإذا انتهت ساعة الإفطار ، بدأ رمضان يظهر في جلاله وجماله وعظمته في المسجد الأموي أجل مساجد الأرض اليوم وأجملها وأعظمها ، وكنت أذهب إلى المسجد بعد المغرب وأنا طفل فأراه عامراً بالناس ممتلئاً بحلق العلم كما كانت عامراً بهم ممتلئاً بها النهار بطوله ، فأجول فيه مع صديقي سعيد الأفغاني خلال الحلقات نستمع ما يقول المدرسون والوعاظ ، وأشهد ثرياته وأضواءه وجماعاته ومن صنع الله لهذا المسجد أن صلاة الجماعة لا تنقطع فيه خمس دقائق من الظهر إلى العشاء الآخرة في أيام السنة كلها وقد بقى ذلك إلى اليوم على ضعف الدين في النفوس وفساد الزمان^(٢) . . وإن أنس لا أنس تلك الثريا الضخمة ولم يكن قد مدّ إليها الكهرباء ، فكانت توقد مصابيحها (وهي أكثر من ألف) بالزيت واحداً بعد واحد يشعلها الحسكيون^(٣) وهم يطيفون بها على سلاسل قصيرة من الحشب فيكون لذلك المشهد أثر في النفس واضح ، ثم يكون العشاء وتقوم من بعده التراويح ولها في الأموي منظر ما رأيت أجلاً منه ولا أعظم إلا صلاة المغرب حول الكعبة في مسجد الله الحرام فإن ذلك يفوق الوصف ، ولا يعرف قدره إلا بالعيان . وليس يقلّ من يصلي التراويح في الأموي عن خمسة آلاف أصلاً ، وقد يبالغون في الليالي الأواخر الخمسة عشر والعشرين

(١) كتبت هذه المقالة وأنا موظف في كركوك « في شمالي العراق » .

(٢) على أن تكرار الجماعة في مثل الأموي مما كرهته الشريعة .

(٣) الحسكي خادم الأموي ، كلمة شامية ولعل أصلها من الحسكة ، ومعناها بلفظة

المغرب الشمعدان وزخرفة المساجد واتخاذ أمثال هذه الثريا من البدع .

ألفاً^(١) ، وهو عدد يكاد يشك فيه من لم يكن عارفاً بحقيقته ولكنه الواقع ، يعرف ذلك الدماشقة ومن رأى الأموي من غيرهم . وحدث عن الليالي الأواخر (في دمشق) ولا حرج ، وبالغ ولا تحش كذباً ، فإن الحقيقة تؤشك أن تسبقك مبالغة ، تلك هي ليالي الوداع يجلس فيها الناس صفوفاً حول السدة بعد التراويح ، ويقوم المؤذنون والمنشدون فينشدون الأشعار في وداع رمضان بأشجى نعمة وأحزنها ثم يردد الناس كلهم : يا شهرنا ودعتنا عليك السلام ! يا شهرنا هذا عليك السلام ويتزلزل المسجد من البكاء حزناً على رمضان^(٢) .

* * *

وسحّر رمضان ! إنه السحّر الحلال . إنه جنة النفس ونعيمها في هذه الدنيا ، وإني لأقع من جنات الفردوس أن تكون مثل سحّر رمضان ، فأين ذهب رمضان ؟ وأنسى لي بأن تعود أيامي التي وصفت لأعود إليه ؟

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

إني لا أستهي شيئاً إلا أن أعود طفلاً صغيراً لأستمع بحجّ المسجد في رمضان وأنشق هواءه وأتذوق نعيمه . لم أعد أجد هذا النعيم ، وما تغيرت أنا أفتغيرت الدنيا ؟

إني لأتلفت أفتش في غربتي عن رمضان فلا ألقاه لا في المسجد ولا في السوق ولا في المدرسة ، فهل مات رمضان ؟

(١) هذا ما كان عند نشر هذا الفصل من عشرين سنة ، فيا أسفى كم تبدلت الحال من عشرين سنة إلى الآن !

(٢) وذلك كله من البدع .

إذن فإننا لله وإنا إليه راجعون .
لقد فقدت أنس قايي يوم فقدت أمي ، وأضعت راحة روحي يوم افتقدت
رمضان ، فعلى قايي وأمي ورمضان وروحي رحمة الله وسلامه !

★ ★ ★

النشيد السوري

نشرت سنة ١٩٤٦

ناظم هذا النشيد أديب كبير ،
وصديق كريم ، وهو يعلم ان ليس
له عندي الا الاجلال والتوقير ، وأن
الشاعر « وإن نبغ » يسبق تارة
ويقصر ، وإن النقد « وإن قسا »
لا يصدر عن حقد ، ولا يرمي الى
تحقير ، وإن مصلحة الوطن بإصلاح
نشيده تسوغ مفاجأة الصديق الكبير
بنقد هذا النشيد .

كانت نشأتنا الاولى في عهد العثمانيين ، وكانت لهم أناشيد يلقونها علينا
باللسان التركي ، اذ لم نكن نفهم معانيها الضخمة الا بالترجمة ، والترجمة لا تحمل
دائماً المعنى كله ، فلقد كانت تهزنا ألحانها القوية المثيرة التي وضعت لتكون لمشاة
الجيش قوة وعوناً . وكنا اذا أنشدناها سائرين لا نستطيع ان نقف ، واذا
تلوناها واقفين سرنا ، وإن قرأناها قاعدين حركنا ، من غير قصد منا ، أيدينا
وأرجلنا - وإنها لتحرك الحجر ! ثم جاء عهد فيصل ، وكان عهد ازدهار وحياة
ونشاط بدا في كل شيء ، فنشطت فيه الاناشيد العربية من عقالها . فترجمت
اكثر الاناشيد التركية . فكان منها نشيد :

أنا أُمي لم تلدني إلا للحرب العوان
بنغمته القوية ، ولحنه العاصف - وكان أسير أناشيد ذلك الزمان وأشهرها
نشيد : (أيها المولى العظيم) ، الذي اعتبر النشيد الوطني السوري بل العربي ،
على هلهلة أسلوبه ، وضعف معانيه ، يليه في الشهرة والذوبوع نشيد :

أنت سوريا بلادي أنت عنوان الفخامة
كل من يأتيك يوماً طامعاً يلقي حمامه

لفخري بك البارودي ، وهو نشيد ضعيف النسيج ، متهافت البناء ، لكن
معانيه في الذروة ، واشتهرت أناشيد أخرى منها نشيد : (سيروا للمجد طراً
سيروا للحرب ، واستعيدوا بالمواضي دولة العرب) ؛ ونشيد طلاب المدرسة
الحربية : (نحن جند الله شبان البلاد) ، وهو من خيرها لفظاً ومعنى ، وقد
جمعها (الفلاح العربي) في رسالتيه المعروفتين في تلك الأيام .

ثم لما قضى الله قضاءه فينا في (ميسلون) ، ووقعت الواقعة ، ودخل العدو
ديارنا ، منعت هذه الاناشيد كلها ، إلا أن تردد همساً ، واشتهر يومئذ نشيد
الاستاد أديب النقي رحمه الله : (في كل صوب حشدت عساكر مدحجون) ،
الذي يصور فيه موقعة ميسلون ، فكان ينشد وراء الأبواب ، وحيث لا يسمعه
الغاصيون ، وهو نشيد جيّد ، لحنه حزين مؤثر .

وانقطع بعد ذلك سيل الأناشيد الوطنية ، حتى قدم علينا من العراق
الكشافون في العهد الوطني الأول (سنة ١٩٣٦) ، فأخذنا منهم نشيد
اشتهرا فينا وسارا بيننا ، حتى كان الطفل الذي لم يتعلم بعد الكلام يدير في
حلقة كلمات منها ، وهما (هذا الوطن حق له أن يفقد بالدماء والمهج) و (نحن
كشاف العراق) ، والشعر فيها ليس بذاك ، واللحن فظيع هو أشبه بصراخ

لا دلالة له ، منه باللحن الذي يؤثر في الاعصاب ويحرك القلب ، ولكنها مع ذلك نشيدان قويان .

ووضعت على أثر ذلك أناشيد جيدة منها (نحن الشباب لنا الغد) ، ولكن يعيب لحنه هذه الصيغة المؤنثة في آخر البيت ، عند تكرار (نحن الشباب) ، فهي صيغة عجوز تأكل كان لها الأمس ، لا صيغة شباب لهم الغد ، والنشيد العظيم حقاً في نظمه ولحنه ، ولفظه ومعناه ، نشيد : (موطني) لفقيد الشعر ابراهيم طوقان - رحمه الله - ومن أجودها لحناً نشيد الأستاذ حسني كنعان : (أيها الكشاف بادر وارثق أوج العلا) ؛ ولحنه نموذج للألحان الحماسية - نسجل هذا للتاريخ !

وصحت النية على وضع نشيد للجمهورية السورية ، وكانت مسابقة ، ولجنة ، وجائزة ، ثم عدل عن ذلك واختير النشيد الذي قدمه هذا الأديب الكبير ، فلما قرأناه علمنا أنه لوحظ باختياره اسم الشاعر ومزله ، وأنه لهما لا لبراعة الشعر فرض علينا هذا النشيد ، واحتملناه سنين ، غير أنه لا يصح أن نختله الآن ، وقد تم استقلالنا ، أو هو قد أشرف على التمام ، واستقبلنا عهداً من حياتنا جديداً ، ولا بد من بيان عيب هذا النشيد لتستبدل به :

* * *

الأصل في النشيد الوطني أن يكون على لسان المتكلم ، لأن الأمة هي التي تردده وتنطق به ، وهذا النشيد موجه إلى حماة الديار ، مطلعته :

حماة الديار عليكم سلام
أبت أن تذلل النفوس الكرام

فمن الذي يقول هذا الكلام ، ومن المخاطب به ؟ إن كان ينطق به الشباب وهم حماة الديار ، لم يعقل أن ينادوا أنفسهم ، ويسلموا عليها ، وليس هذا من

(التجريد) الذي كان يألفه شعراء العرب ؛ وإن كان يقوله غير الشعب لم يكن مقبولا لأن النشيد يوضع ليقوله الشعب ويتوجه به عن آماله ومطامحه .

وهذا السلام أليس أشبه بلهجة أروام الإسكندرية وأرناؤوط الشام ، منه بأسلوب الشعراء الأبناء^(١) ؟

ثم يقول بعد هذا :

عرب	العروبة	بيت	حرام
وعرش	الشموس	حى	لا يضام

فلا يعرف السامع ما عرب العروبة هذا ، أهو الجزيرة أم مصر أم الشام أم العراق ؟ ولا يعرف المسلم (بيتاً حراماً) إنما يعرف البيت الحرام ، لا ثاني له ، فهذا التنكير أولاً ، وابتدال اسم البيت الحرام في كل مكان ثانياً ، كلاهما قبيح . وما هو هذا العرش ، والنشيد نشيد جمهورية ؟ أنظمه ليكون النشيد الرسمي لبني أمية ، وأي شمس هذه ؟ وما هذا الإبهام حيث لا يحسن إلا التصريح والتوضيح ؟ يأتي بعد ذلك هذا المقطع العجيب :

ربوع	الشام	بروج	العلاء
تحاكي	السماء	بعالي	السناء
وأرض	زهت	بالشموس	الوضاء
سماء	لعمرك	أو	كالسماء

أما (بروج العلاء) هذه فتصح في كل أرض يريد أن يبالغ في مدحها الفائل ، ولا تدل على ميزة للشام ولا تصفها بصفة فيها ولا تعرف بها الغريب عنها ، ولا تحبها إلى أبنائها ، فهي كمراتي الأستاذ علي الجارم التي تصلح لغازي وللاسكندر المكدوني وللشيخ المراغي ، لأنها تهد الجبال وتبكي السماء ، وتقيم القيامة ، أو ترسل على الدنيا قبلة ذرية ، لا يحجم البيضة ، بل يحجم الفيل ، ثم

(١) الأبناء جمع بين

لا تذكر المراثي بشيء مما كان عليه . وهذا استطراد نعتذر إلى الشاعر الكبير علي الجارم بك منه ، فقد جرت به المناسبة .

وما دامت الشام بروج العلاء ، وكان ذلك قد تقرر لدى السامع فما معنى كونها تحاكي السماء ، وبروج العلاء هي السماء في أفهام الناس كلهم ، وهل السماء أسنى سنا من البروج ؟ المسألة تحتاج إلى خبير فلكي .

ثم إن الضياء هو السنا بالقصر ، أما السناء بالمد فهو الارتفاع ، ومن هنا أطلق على المجد مجازاً ، فصار معنى قوله (بعالي السناء) برفيع الارتفاع ، وهو الحشو نفسه وهو إذا قبل في القصيدة لا يقبل في النشيد ، لأن النشيد كلمات معدودة وألفاظ محدودة ، لا يجوز أن يذهب لفظ واحد منها من غير أن يدل على شيء .

وهو بعد أن جعلها بروج العلاء التي تحاكي السماء ، عاد فهبط بها فجعلها (أرضاً زهت) ولكن بالشموس الوضاء ! وما فهمت إلى اليوم ما يريد بهذه الشموس التي يردها ولا يشبع من ذكرها ، إن كان يريد الحقيقة فهي شمس واحدة ما خلق الله سواها ؛ وإن كان يقصد المجاز ؛ فليذكر ما يدل عليه . ويصرف الفكر إليه ، وما كل سامع للنشيد أو تال يستطيع أن يجد له التأويل ، هذا إذا كان لهذا الكلام العجيب تخريج أو تأويل .

وأعجب العجب ، وأقبح القبح ، أن يعود بعد كل ما مر ، فيجعلها سماء ثم ينزل بها فيجعلها كالسماء ، وهذا ضد ما عليه البلغاء في كل عصر ، وفي كل أمة ، ولا أحسب ذوقاً في الدنيا يسيغه ، عدا عن هذا الحشو في كلمة (لعمر ك) وعمر من هذا الذي يحلف به ؟ ولئن هذا الخطاب ؟ والمفروض في النشيد كما بينت أن ينطق به الشعب كله ؟ !

وما هو مغزى هذا كله ، وما دلالاته ، وأي مجد للشام يذكر ، وأي

عاطفة تثير ؟ لا شيء ، إلا هذه المناقشة المزعجة في الشام : هل هي بروج العلاء
تشابه السماء برفيع الارتفاع ؟ أم هي أرض ولكن زهت بالشموس ؟ أم هي
سما (وحياة عمرك ...) أم هي كالسما ؟ هذه هي المشكلة الوطنية الكبرى ، ملأ
النشيد بذكرها ، وهذه هي آمال الوطن ومطامحه ، والله المستعان !

* * *

وباقى النشيد لا يختلف كثيراً عما ذكرت منه ، على حين أن النشيد يجب
أن يكون موضوعاً على لسان الشعب ، وأن يكون قوياً العبارة ، خالياً
من الحشو ، واضحاً كل الوضوح ، صالحاً لكل زمان ، معبراً عن آمال الشعب
وآلامه ومطامحه ، مثيراً نخوته وحماسته ، مشيراً إلى ماضيه ، وجمال أرضه
ودياره ، إلى غير ذلك مما يوصل إلى الغاية من وضع النشيد ، وهي إثارة العزة
الوطنية في النفوس ، وأن يختار له النغم القوي من غير خشونة ، العاطفي بلا
ضعف . وحياة النشيد بلحنه وما يهز هذا اللحن من أوتار القلوب ، ويحرك من
أعصاب السامعين ، فإذا كان لنا نشيد يشتمل على هذا كله ... وإلا فلا
تقولوا : لنا نشيد !!

* * *

فهرس

الصفحة	الصفحة
١٠٨ داء الشباب	٥ مقدمة
١١٦ أخلاقنا	٧ أين الاقلام
١٢٤ يا أيها الأغنياء	١٣ إن هذا العلم دين
١٣٠ حق الضيافة	٢٠ بطون جائعة وأموال ضائعة
١٣٥ العربية والاسلامية	٢٦ مستقبل الأدب
١٤٧ عربية إسلامية	٣٣ رجل في ملابس النساء
١٥٣ في القهوة	٤١ وكم في مصر من بنات أمبان
١٦١ أسئلة	٤٧ تاجر حرب
١٦٧ اسلوب جديد في التعليم	٥٤ إنذار
١٧٥ مناظرة هادئة	٦٠ الى القرية يا شباب
١٨٤ لو أقر المجمع	٦٧ في منظار الخفيف
١٩١ المشكلة الكبرى - ١	٧٥ دفاع عن الأدب
٢٠٠ » » - ٢	٧٩ إلى علماء الأزهر
٢٠٩ إلى علماء مصر	٨٦ الأمانة
٢١٤ الأدباء الرسميون	٩٣ دفاع عن الفضيلة
٢٢٦ صديقي رمضان	١٠١ من أخلاقنا
٢٣١ النشيد السوري	

تصويب الأخطاء

ص . س	الخطأ	الصواب
٣٩ ٦	وكبرياتها	وكبرياتها
٥٢ ١٥	موثوق	موثوقاً
٧٣ ٤	يتوضآن	يتوضآن
٧٣ ١٨	ويولي	ويولي
٧٨ ٥	وينشؤوا	وينشؤوا
٨٤ ٨	وبالعمل الخلق	وبالعمل وبالخلق
٩٠ ٧	التمذيب	للتعذيب
٩٠ ٧	القاعد عليه	القاعد عليها
١٠٦ ١٠	بعد النجوم	بعد النجوم
١١٨ ١١	يوماً	يوماً تامه
١٢٦ ١٥	واستبدلوها بعزة	واستبدلوها بعزة
١٤٦ ٣	ويجبوننا	يجبوننا
١٤٨ الأخير	العربي	غير العربي
١٥١ ١٦	أن هذا	هذا
١٩١ ٣	فتجيني	فتجيني
١٦١ ٦	ورائه	من ورائه
١٦١ ١٠	واشتاق	اشتاق
١٦٢ ١	كبيرة	كثيرة
١٧٢ ١١	الرياضية	بالرياضة
١٧٣ ١١	يقرأون	يقرأون
١٧٦ ١	ولا منتصفاً ولا	ومن نصفاً لا
١٧٨ ١٧	تستفيدون	تستفدون
١٨٠ ١١	أردتها	أدرتها
١٩٠ ٩	الاجتمع	المجمع

من آثار المؤلف

- ١ - رسائل الإصلاح
- ٢ - بشار بن برد
- ٣ - رسائل سيف الاسلام
- ٤ - الهشميات
- ٥ - في التحليل الأدبي
- ٦ - أبو بكر الصديق
- » » »
- ٧ - عمرو بن الخطاب (جزءان)
- ٨ - كتاب المحفوظات
- ٩ - في بلاد العرب
- ١٠ - من التاريخ الاسلامي
- ١١ - كلمات
- ١٣٤٨ هـ (نقدت)
- ١٣٤٨ هـ (نقد)
- ١٣٤٩ هـ (نقدت)
- ١٣٤٩ هـ (نقدت)
- ١٣٥٣ هـ (نقد)
- الطبعة الاولى ١٣٥١ هـ (نقدت)
- الطبعة الثانية ١٣٥٣ هـ
- ١٣٥٢ هـ (نقد)
- ١٣٥٥ هـ (نقد)
- ١٩٣٩ م (نقد)
- ١٩٣٩ م (نقد)
- ١٩٥٢ م (نقد)

وله سلسلة كتب جديدة تستعمل على ثلاثة عشر كتاباً

صدر منها:

- ١ - قصص من التاريخ ١٩٥٧
- ٢ - رجال من التاريخ ١٩٥٨
- ٣ - صور وخواطر ١٩٥٨
- والباقى معدة للطبع ينتظر الناشر
- ٤ - قصص من الحياة ١٩٥٩
- ٥ - هذا الكتاب

دار الفكر الاسلامي

للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة ثقافية تعمل على نشر نفائس الكتب والمؤلفات الإسلامية القديمة والحديثة .

دمشق - هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

تتولى إصدار سلسلة :

دخائر الفكر الاسلامي

تأليف

ابو الأعلى المودودي

صدر منها حديثاً :

٩ - نظام الحياة في الاسلام : عرض شامل لفكرة الاسلام عن الكون والانسان والحياة وشرح موجز لآيه في نواحي الحياة المختلفة.

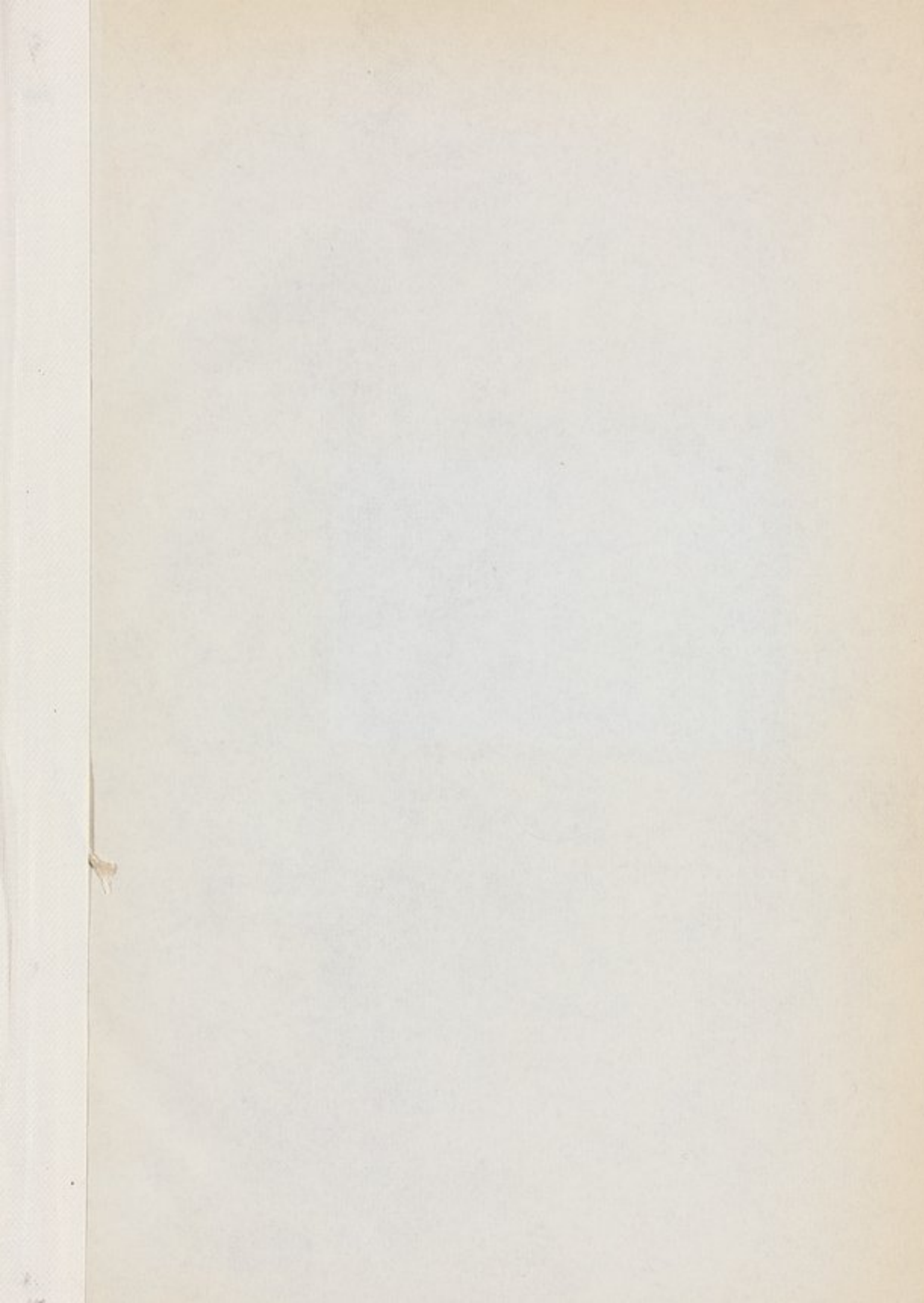
١٠ - الربا : يعالج الربا (المعضلة الاقتصادية الكبرى في العصر الحديث) ويرسم صورة نظام اقتصادي إسلامي لا يعترف بالفائدة الربوية ويكفل حاجات مجتمع معاصر وسيصدر قريباً :

١١ - الحجاب : يشرح هدي الاسلام ونظامه لما بين الرجل والمرأة من العلاقة في الحياة الاجتماعية ويفند ما راج بين المسلمين في هذا العصر من المواقف الاجتماعية مما كاد منهم لحضارة الغرب ومدنيته الزائفة .

١٢ - تفسير سورة النور : يتضمن المزيد من التوضيح لأحكام الشريعة الإسلامية في باب الحياة الاجتماعية .

كما أصدرت أيضاً :

الرق بيننا وبين أمريكا
الأمرة بين الجاهلية والإسلام وأوضاعها الراهنة
مصور الدول العربية المتحدة مع دليل سياحي
للاستاذ علي شحاته
» بشير العوا
» حسن عمار



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



دار الفكر الاسلامي

دمشق - شارع خالد بن الوليد

هاتف : ١١٠٤١

ص.ب : ٩٦٢

B

بغداد : مكتبة المثنى

٢٥٠ ق.س أو مايعادها